مكتبة الأسرة 1999

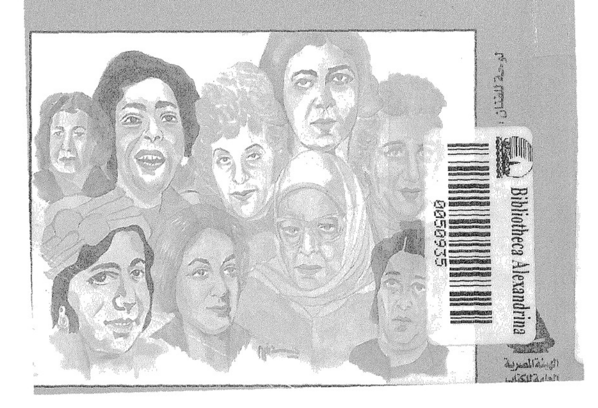
مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الخاصة

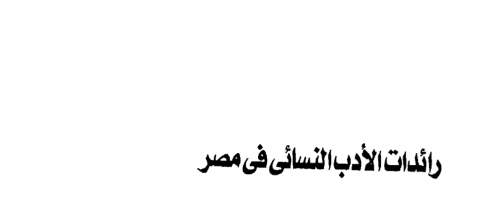
رائدات الأدب النسائى (فى مصر)

أميرة خواسك

تقديم: د. عبد العظيم رمضان



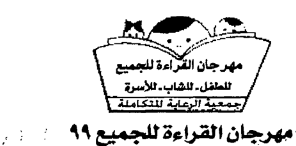
الهيئة المصرية العامة للكتاب


رائدات الأدب النسائى فى مصر

رائدات الأدب النسائى فى مصر

تأليف : أميـــرة خـواســك

تقديم : د.عبدالعظيم رمضان



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

رائدات الأدب النسائى فى مصر

تأليف : اميرة خواسك تقديم : د. عبد العظيم رمضان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

تقـــديم

بقلم الدكتور عبد العظيم رمضان

يسرني أن أقدم هذا الكتاب عن رائدات الأدب النسائي في مصر » الذى كتبته تلميذتي وقرينتي أميرة خواسك ، وهو كتابها الثاني بعد عملها الأول « رحلات بنت بطوطة » .

وقد عاصرت تأليف هذا الكتاب منذ كان فكرة في ذهن صاحبتها ، وتابعت عن كثب مراحل تأليفه ، وكنت واثقا من حسن اختيارها للشخصيات التى سوف تتناولها ، بحكم ثقافتها الواسعة ، وتنوع اهتماماتها من الأدب إلى الصحافة إلى الفن وتذوق الموسيقى العربية والكلاسيكية ·

وقد أسهمت مكتبتى ـ أو بالأحرى مكتبتنا ـ فى تزويدها ببعض المراجع المهمة ، وتولت بنفسها الحصول على المزيد من دار الكتب المصرية ، ومن أرشيف مجلة أكتوبر وبعض الأرشيفات الأخرى ·

وكنت أراقب تفاعل المعلومات فى ذهنها ، وسعادتها كلما غاصت أكثر فأكثر فى أعماق شخصية من الشخصيات التى تناولتها ، وعثرت على معلومة جديدة لم تكن تتوقعها ! أو كلما توضحت معالم الشخصية التى تعالجها اكثر فأكثر · فقد كانت تهتم

بالجانب الانسانى بقدر اهتمامها بالجانب الأدبى ، وقد أحزنها أن الجانب المأساوى فى حياة أولئك الرائدات كان أكبر من الجانب المشرق ، على العكس من الصورة التى يحملها ذهن الجماهير عن هذه الشخصيات !

وقد استفدت شخصيا من النتائج التى توصلت اليها دراستها لهؤلاء الرائدات ، والتى لم أكن أعرفها ، فقد كانت تمتلك عقلية باحثة لا تيأس من البحث عن الحقيقة ، كما كانت تملك قدرة تحليلية ساعدتها كثيرا على تحليل المعلومات بأكبر قدر من الدقة والموضوعية ٠

وأعتقد انها ألقت أضواء جديدة تستحق الذكر فى هذه الدراسة ، وكان اختيارها للقطع الأدبية التى انتقتها وقدمتها كنماذج لأعمال أولئك الأديبات ، اختيارا موفقا ٠ أما رؤيتها لأولئك الأديبات ، فهى رؤية تستحق التقدير ، لأنها خلت من السطحية والتسرع ، وقامت على الغوص فى حياة كل شخصية لسبر أغوارها ، بعيدا عن التجميل والتزويق ٠ واذا جاءت بعض هذه الصور على غير ما يعتقد البعض ، فليس ذلك ذنب هذه الصور ، وانما هو ذنب الصور الناقصة أو المزيفة التى رسمها البعض لبعض هذه الشخصيات !

وأملى أن يجد القارىء العزيز فى هذا الكتاب ما ينشد من فائدة ومتعة ٠

تحريرا فى ١٩٩٩/٧/٩ ٠

أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان

مقـــدمة

يسعدنى أن أقدم للقارىء العزيز نخبـــة من كاتبـــات مصر العظيمات اللائى رحلن عن عالمنا بعد أن وضعت كل منهن لبنة فى تاريخ الفكر النسائى دعمت بها الدور التاريخى والثقافى للمرأة المصرية ، فكانت كل واحدة منهن شعلة انارت مستقبل هذه الأمة لتؤكد المساواة والعدل بين رجالها ونسائها .

وحتى ندرك أهمية الدور الذى قامت به كل واحدة مـــن هؤلاء الرائدات ، علينا أن نعرف انه فى أوائل هذا القرن كـــان ذكر اسم المرأة يعد عيبا .. وحين تتفجر الموهبة لدى احداهـــن لتكتب أو تبدع أو تشارك فى قضايا وطنها الثقافية والاجتماعية ، لم تكن تجرؤ على التوقيع باسمها . والمثال على ذلك ملك حفنى ناصف التى اتخذت لنفسها اسم « باحثة البادية » ومى زيادة التى اختارت فى كتابها الأول اسم « ايزيس كوبيا » وعدة اسماء أخرى ، وتسمت عائشة عبد الرحمن « ببنت الشاطىء » .

هؤلاء الكاتبات وغيرهن — وهن قلة — كافحن من أجل حرية المرأة ومنحها حقوقها التى حرمت منها ، فكان طريقهن طويـــلا

وصعبا ومليئا بالأشواك اذ كانت العادات والتقاليد وقيم المجتمع الرجعية . والنظرة المتدنية للمرأة تقف امامهن سدا ، وتجعل جهودهن صعبة ، ولكن مواهبهن واصرارهن على النضال فتح الطريق امامهن عنوة ، بل فتح الطريق الى كاتبات وصحفيات اليوم للتمتع بمطلق الحرية والمساواة فى الكتابة والنشر .

وما نحب أن نؤكده فى هذا الكتاب ان هذه المزايا التى تحققت للمرأة اليوم كان وراءها عدد من هؤلاء الرائدات اللائى صعدن جبلا عاليا بأظافرهن حتى وصلن الى القمة .

ولقد هدتنا دراستنا لحياة هؤلاء الرائدات الى اكتشاف عدة **حقائق** :

أولها أنه اذا صح القول الشائع بأنه وراء كل عظيم امرأة ، فان الحقيقة التى كشفتها دراستنا هى انه كان وراء كل امرأة عظيمة رجل ... رجل يسبق عصره وآمن بالدور الذى يمكن أن تلعبه ابنته أو زوجته . وأؤكد هنا خاصة على دور الأديب فهو العامل المشترك بينهن جميعا – باستثناء روز اليوسف ولطيفة الزيات – وهو الذى ساهم فى تكوين الشخصية وساعد على تخطى صعاب المجتمع خصوصا بالنسبة للكاتبات اللائى ظهرن فى فترة مبكرة من هذا القرن .

وعلى سبيل المثال تجد أن الشاعرة عائشة التيمورية – وهى أقدمهن – بدأت الكتابة فى أواخر القرن الماضى ، وظهرت فى فترة لم يكن للفتاة من دور غير شئون المنزل وتعلم فنون الابرة وما الى ذلك ولم يكن فى وسعها بالتالى التغلب على هذه الظروف لولا والدها الذى تنبه لموهبتها وصقلها وعلمها اصول اللغة وقواعدها .

أما الحقيقة ، أو الملاحظة الثانية ، فهى دور البيئة فى بروز هؤلاء الرائدات . فقد كن جميعا ينتمين الى مستوى اجتماعى رفيع أو على

الأقل فوق المتوسط . وهو ما يسر لهن اهتضام العلم واحتراف الكتابة .

اما الملاحظة الأخيرة المشتركة بين كاتباتنا فهى أن الكتابة للصحافة كانت عنصرا مشتركا بينهن ، بل أنه على الرغم من تنوع انتاجهن بين الشعر والقصة والمقال والدراسة الأدبية والمسرحية فانهن جميعا اشتركن فى الكتابة للصحف والتعبير عن أنفسهن على صفحاتها .

وانه ليسعدنى أن أقدم فى هذا الكتاب تسع شخصيات نسائية بدان طريق الكتابة والأدب فى وقت كان الرجل يسيطر على هذا المجال تماما ، فكانت رحلتهن شاقة ومضنية . كما اقدم نماذج لكتاباتهن التى اشتهرن من خلالها ، والتى حرصت على أن يكون كل أنموذج منها وحدة متكاملة يمكن أن تعبر عن الكاتبة وفكرها .

واعترف أن رحلتى معهن كانت ممتعة ، فمن خلالها تعرفت على كل واحدة منهن عن قرب وتفاعلت مع حياتها ، والامها ، وآمالها ، ودورها فى المجتمع ، وان كان البحث أحيانا صعبا لبعد الفترة الزمنية ، وعدم توافر كتابات عنهن على الرغم من أن البعض منهن كان متواجدا بيننا حتى وقت قريب ، وأملى أن يستمتع القارىء بهذه الرحلة كما استمتعت ، وأن يسعد بها كما سعدت .

ولا يسعنى فى النهاية الا ان اتقدم بخالص شكرى لاستاذى الجليل الدكتور عبد العظيم رمضان على نصائحة وتوجيهاته التى كان لها الفضل فى ظهور هذا الكتاب للنور ..

والله الموفق ..

أميره خواسك

الهرم — يونية ١٩٩٩

خنساء العصر

(عائشة التيمورية)
١٨٤٠ ـ ١٩٠٢

فى أحد قصور « درب سعادة » وهو أحد احياء الدرب الأحمر حين كانت تلك المنطقة مقرا للطبقة الارستقراطية ولقصورهـا وعائلاتها الكبيرة ، فى أحد هذه القصور ولدت الشاعرة الكبيرة عائشة عصمت التيمورية سنة ١٨٤٠ · ولكنها لم تكن كأى فتاة من قريناتهـا ، بل كانت فتـاة تملـك موهبـة تسـيطر عليها وتجعلها مشدودة الى ما تهوى غير عابئة بما يجب أن تكون عليه مثل قريناتها ·

هكـذا كـانت عائشـة التيموريـة كريمـة اسـماعيل باشا تيمور رئيس القلم الافرنجى للديوان الخديوى فى عهد الخديوى اسماعيل وهو ما يعادل منصب وزير الخارجية حاليا ، ثم أصبح رئيسا عاما للديوان الخديوى · أما والدتها فهى معتوقة شركسية تنتمى للطبقة الأرستقراطية فى ذلك الوقت ، وحين حاولت أمها أن تعلمها ما تتعلم البنات من أصول النسج والتطريز ، أظهرت عائشة فشلا وعدم استجابة بل وهروبا ـ كما ذكرت هى فى كتاباتها ـ حتى انقذها والدها الذى كان على درجة كبيرة من الادراك والوعى

لملكات ابنته ، فأولى أمرها الى متخصصين لتعليمها القرآن الكريم والفقه والخط والنحو والصرف واللغة الفارسية والشعر ..

وتروى عائشة هذه القصة عن نفسها فتقول :

« فلما تهيأ العقل للترقى ، وبلغ الفهم درجة التلقى تقدمت الى ربة الحنان والعفاف ، وذخيرة المعرفة والاتحاف ، والدتى تغمدها الله بالرحمة والغفران ، بأدوات النسج والتطريز ، وصارت تجد فى تعليمى وتجتهد فى تفهيمى وتفطينى ، وأنا لا أستطيع التلقى ، ولا أقبل فى حرف النساء الترقى ، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ، وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فأجد لصرير القلم فى القرطاس أشهى نغمة ، وأتخيل أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة ، وكنت التمس - من شوقى - قطع القراطيس وصغار الأقلام ، وأعتكف منفردة عن الانام ، وأقلد الكتاب فى التحرير لأبتهج بسماع هذا الصرير ، فتاتى والدتى ، وتعنفنى بالتكدير والتهديد فلم ازدد الا نفورا ، وعن هذا التطريز قصورا ، فبادر والدى تغمد الله بالغفران ثراه ، وقال لها : « دعى هذه الطفيلة للقرطاس والقلم ، واحذرى أن تكثرى من الكسر فى قلب هذه الصغيرة ، وان تثلمى بلعنف طهرها ، ومادامت ابنتنا مياله بطبعها الى المحابر والأوراق ، فلا تقفى فى سبيل ميلها ورغبتها ، وتعالى نتقاسم بنتينا ، فخذى « عفت » واعطينى « عصمت » ، واذا كان لى من « عصمت » كاتبه وشاعرة فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لى بعد مماتى » . وأخذ بيدى ، وخرج بى الى محفل الكتاب ورتب لى أستاذين ، أحدهما لتعليم اللغة الفارسية والثانى لتلقين العلوم العربية » .

وهكذا كان وعى الأب وحده هو الذى أنجب لنا شاعرة بحجم عائشة التيمورية التى يرى العديد من الباحثين انها من أبرز شاعرات العرب بعد الخنساء .

وأعتقد أن نشأتهـا وتكوينهـا يشبهـان الى درجـة كبيرة نشـأة وتكوين أمير الشـعراء أحمد شوقى من حيث الانتماء الى الطبقة الارستقراطية ، والارتباط بالسلطة الحاكمة ثم الموهبـة الكبيرة فى الشعر حتى اننا نجد أن الكثير من أشعارها ، كانت تدور حول الحاكم ! كقصيدة تهنىء الخديوى بعد عودته ، وأخرى ترثى الخديوى توفيق وتهنىء الخديوى عباس بمقدمه ، ثم تهنىء مدينة بنها « العسل » بمرور الخديوى عليها ! وهى فى غير ذلك اما ترثى عزيزا ، أو تتحدث عن أوجاعها عند مرضها بالرمد .

وعلى الرغم من قدرها الكبير فى الشعر ونظمه ، وقدرتها على استخدام اللغة وتطويعها ، الا أننا نجد أنها لم تكن تعبر عن قضية فكرية أو وطنية ، كما أنها بعيدة تماما ـ ربما بحكم طبقتها ـ عن أى مشكلات أو أفكار اجتماعية أو شعبية باستثناء مقال كتبته فى جريدة المؤيد سنة ١٨٨٨ بعنوان « لا تصلح العائلات الا بتربية البنات » وهى بذلك سبقت قاسم أمين باثنتى عشرة سـنة فى الدعوة لتعليم البنـات !

ولعل أعظم ما نظمت عائشة التيمورية قصـيدة « بنتـاد يا كبدى ولوعة مهجتى » التى ترثى فيها كريمتها « توحيدة » التى توفيت فى سن الثانية عشر ، وظلت سبع سنين تبكيها حتى ضعف بصرها واصيبت بالرمد فانقطعت عن الشعر والأدب .

أما انتاج عائشة التيمورية فهو ديوانها باللغـة العربيـة « حلية الطراز » وديوانها الفارسى « اشكوفه » وقـد طبع بمصر والآستانة وايران ، و « نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعـال » وهى رسالة فى الأدب طبعت بمصر وتونس ، ثم « مرآة التأمل فى الأمور » .

كما ألفت رواية بعنوان « اللقا بعد الشتات » كما تركـت رواية أخرى غير مكتملة بخطها .

وفى سنة ١٨٩٨ اصيبت بمرض فى المخ منعها من مزاولة نشاطها الأدبى ، واستمر المرض أربع سنوات حتى توفيت فى الثانى من مايو سنة ١٩٠٢ . ولعل الفضل يرجع الى ابنها محمود توفيق بك زاده القاضى بالمحاكم الأهلية فى جمع وطبع انتاجها الشعرى والنثرى باللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية وهو ما مكننا اليوم من الاطلاع على ما نظمته الشاعرة والأديبة عائشة التيمورية التى يرى الكثيرين انها خنساء هذا العصر ، وقد أطلق على ديوانها .. حلية الطراز ، وهو الذى نعرض بعضا منه فيما يلى :

١ ـ قالت تهنىء « الخديوى » بقدومه الى « مصر » :

بشراك يا « مصر » فالاقبال قد منحا
وكلل البشر تيجان السعود ضحى
ولازم الانس ورد اليمن مغتبقا
ورنح الفوز عطف الدهر فاصطحبا
وشرف القطر مولاه ومالكه
وقدم الدهر للاقبال ما اقترحا
تمنطقت بالبهـا ليلات مقدمه
واليوم أصبح بالأضواء متشحا
نعم التهانى باقبال السرور فقد
سما سنا بارق الأفراح واتضحا
سماء صفو المنى ابدت كواكبها
وغيث فوث الهنا حيا بها سمحا
نيا له مقدما قادت بشائره
مغانم الدهر للراجى وقد ربحا
وعم اشراقه كل الورى فغدا
نورا يسر وبرقا زنده قدحا

عاد العزيز الذى جـادت لعودتـه
أيامنا فاغتنمن الأنس والمنحـا
لو قيل للشرف : اختر ، قال : خدمته
أو قيل للدهر : سابق عزمه ، افتضحا
لا زال ذو العهد مصباح العلا أبـدا
ما اخضرعود وشادى أيكـه صدحـا
ولا خلا من ضوافى ظـله زمـن
به حباه الجليل اليمن فانشرحـا
فأحرف سطرت تزهـو بمدحتـه
تتوجت بـلال نورهـا وضحـا
واقبلت لمعاليـه مؤرخـة :
وافى الخديوى فأولى الجـد والفرحـا

١٢٨٩ هجرية

* * *

ويدوم نجم عـلاه درى السنـا
وشهابـه يسطـو على الاعـداء
قد كللت تيجـان طالع سعـده
بكواكب الاجـلال والنعمـاء
فهى السعادة للأنـام وظلهـا
مأوى الوفـا ومحط كـل ولاء
وتراب أرض أشرقـت بسمـوه
لبصائر النجبـاء كحـل جـلاء
وعلى اعتـذارى بالقصـور وأننى
لم أحص عد صفاتك العليـاء
ما زلت اعلن بالمديـح ولم ازل
فى الناس « عائشة » لخير دعـاء

والشمس ما سطعت بنور صباحها
الا به علقت خيوط هبـــــاء

فالله يبقى ملكـــه سامى الـــذرى
ويمـــد طلعته بطـــول بقـــــاء

تاريخ مقدمـــه تعـــزز واعتـــلى
مـــن أن يخـــط بمهمـــل للـــراء

فالسعد قال مؤرخـــاً : جـــاء العلا
وتتوجت « مصر » الهنـــا بسنـــاء

١٣٠٨



مرثية الخديوى السابق « توفيق باشا » ـ من المخطوط ـ :

هل منذر بالقطـــر اعـــلن بالثبور
أم ساق جيش خطـــوبه دهر غدور

أضحى الورى ما فيه من جسم غدا
ذا روح الا وهـــو مختـــل الشعـــور

فـــزع ألم بال « « مصر » ونكبـــة
انذارها عم الفيـــــافى والبحـــــور

نبأ بصدمة شؤمه الأرواح قـــــد
شقت مرائرها وان كانت صخـــور

فقد الخـــديوى الرفيـــع سموه
وتطايرت نقط الشرار فى الدهـــور (١)

(١) الاصل غير واضح .

« توفيق » افق مراحم العطف الذى
تتلوه كالآيات ما برحت ثغـــور

وتفجرت منهـــج النفـــوس بحسرة
حرقت بحر الجمر اكباد الصـــدور

قمر علاه المحـــق ليلـــة بدره
وكسا سماء الصفو بالظلماء ســـور

شمس تعالت فى الضحى فأصابها
غسق الخسوف وصدها دهر غدور

لما توشحت السمـــاء بحزنهـــا
نادت كواكب فطرة السعـــد القبور (١)

بـــدر تلاشى بالمحـــاق وانمـــا
مصبـــاح نيره بآفـــاق يـــدور

حقق ابا العباس عصرك لم يزل
يسمو صنو علاك نور فوق نور

محى العزاء ببشر تهنئة غـــدت
لشجون افئـــدة البريـــة كالطهور

والدهر تاب عن الخطوب ولم يعد
فاقبل بفضلك عذر ملتمس شكـــور

احييت يا « عباس » مصر وآلهـــا
ودنت لطوع ولاك من شوق نحـــور

انعشت بالظـــل السمى رعيـــة
ورددت ارواحا لهـــا كادت تبـــور

---

(١) الاصل غير واضح ، وكلمة « القبور » تحتمل أن تقرأ : « الغيور » .

فاحكم نقى العنصرين لك الــولا
وانعم وسد واعطف ودم طول الدهور

فالعصر ممتــاز العصــور بنبيــد
والدهر من تشريفه (٢) فــرح فخــور

بالفــور مصر تجوهرت أرقامهـــا
وتتوجت ببهائهــا بالنصر نـــــور

١٣٠٩

***

مذهب موشقى لصاحب الفخامة الخديوى عند ايابه من السفر — من المخطوط — :

اقبال سموك بدر ولاح عم السنـــا
هنى المواطن بالأفراح دام الهنـــا

ومصر بالسعد تنادى ذات السعود
نورت ياروح الارواح يا عين المنـــا

دور :

تشريف خديو يناخلا بشرف القدوم
الكل فى عدله مرتاح ونال ما يروم

والمجد فى ركابه قادم ببشر اللقـــا
فى كف اشراقه مصباح يضىء للعموم

---

(٢) فى نسخة مخطوطة أخرى : من سودوده ، وفى اللغة) السودد ، وهو السيادة ورفعة القدر .

دور :

انعم وسد واسعد دوماً وكيد العدا
يأعز أرواحنا غينا وهم لك فـدا
لازال لسان حالنا قايل بأفصح نـدا
احفظ الهى خديوينـا ليوم النـدا

* * *

وقالت تهنىء الخديوى « عباس » بمقدمه — من المخطوط — :

أبدر بأفق السعـد لاح بهـاؤه
أم الصبح يهدينـا بنور ذكـاؤه
وذى نفحات الروض طاب اريجـه
أم الحظ من بشر تجـلى عـلاؤه
فيأعزة البشرى تبـاهى بمقـدم
كسا القطر بالتشريف عزاً صفاؤه
ويادولة الاقبـال دام لـك العـلا
يلوح بأقصى الخافقـين ضيـاؤه
وياقطر ته عجبا ودم واعل وافتخـر
بعصر على الاعصار صـح ولاؤه
بنور من التوفيق والأمن ساطـع
أضاءت له الدنيا وجـل سناؤه
توجه محبور السعـادة ظافـرا
وعاد معاد النيـل عـم وفـاؤه
خديوينـا « العباس » آب ونصره
على هامة الأفـلاك يعـلو لواؤه

وقابل بالاقبال وجه خليفة
يتوج فرق الفرقدين عطاؤه
وعاد لقطر طال منه اشتياقه
الى النعمة العظمى فطاب لقاؤه
سموك يابن النيرين مؤيداً
يفوق على زهر النجوم ارتقاؤه
وفكرك مرآة يرى الدهر حسنه
فيزهى مباهاة ويسمو ضياؤه
وحبك للأرواح ريحان طيبها
وظلك للأشباح روح رخاؤه
وفضلك مشهود وسعيك شاهد
بالسنة الايام يتلى ثناؤه
فلا نفس الا من نفوسك روحها
ولا قلب الا من علاك رجاؤه
باشراقك العالى غدا قطر مصرنا
عروساً زهى حسناً وطاب جلاؤه
تقلد من أسنى الجواهر حلية
يميس دلالا فى السرور رواؤه
لدولتك العظمى بصدر أولى المرا
سفير الغضا داء عقيم دواؤه
فكل صميم ، لسعادة مبغض
بأعتابها العليا تراق دماؤه
فلا زلت للصولات ليثاً مؤيد
وأمرك للآفاق يرقى مضاؤه
ولا زال يجرى بحر فضلك بيننا
وكان لنا عزا وجودك ماؤه

وقالت ، وقد كتب فى لوحات الزينة بمدينة « بنها العسل » عند مرور « الخديوى » عليها :

البشر اجرى « ببنهـا » انهر العسل
والنصر أضحى « بتوفيق » السعود جلى

وافى « الخديوى » فاضحى نور بهجتها
كالبدر فى التم أو كالشمس فى الحمل

والأرض قد البست أبهى مطارفها
وازينت فى بديع الحلى والحلل

ماثم أرض سقاها غيث مقدمه
الا وفازت بزاهى الأنس والجذل

تهلل القطر بشراً من زيارته
وأيقن القوم حسن الفوز بالأمل



وقالت تهنىء « الخديوى » بعودته :

بالخديوى القطر أضحى مشرقاً
وبه « مصر » على الدنيا تسود

قد اضاء القطر لما حله
وازدهت فى الكون تيجان السعود

* * *

وقالت ترثى العلامة المرحوم الشيخ « ابراهيم السقا » :

الدهر ابدل راحتى بعناء
واعتاض صفو تنعمى بشقاء

وبدا الزمان الى العيون بمظهر
يقضى بمزج دموعها بدماء
آلى ليختطفن افئدة الورى
يوم المصاب وبر فى الايلاء
مرآته طمست واصدأ وجهها
من بعد ما سعدت بطول جلاء
ولطالما اكتحلت عيون أولى النهى
من غدره بمصائب وبلاء
ولكم فوق للقلوب نباله
ولكم يشق مرائر النبلاء
حجبت بوارق غيث أنواء الهدى
عن عين كل مؤمل أو رائى
كذبت لوامع كل صبح صادق
مذ غاب شمس العلم فى الضراء
فلتحزن العلماء ولتأسف على
ينبوع فضل المعلم والعلماء
وليفرح الجهل المبيد وأهله
وليجعلوا مسراه ليل هناء
وليسعد المغرور من أعوانهم
فاليوم راق الحى للجهلاء
تبت يدا زمن دهانا صرفه
بفراقه فى ليلة ليلاء
لما تغيب نير الدين الذى
أنواره ينبوع كل ضياء
صدقت أن « الشافعى » قضى ، وما
صدقت قبل تغيب السقاء

بحر التفقه ، كنز ارشـــاد الورى
ربّ الفخـــار وواحـــد البلغـــاء

شجن عـــرا الاســـلام بالظما الذى
حـــل العرى بضـــمائر العلمـــاء

وشعائر الدين القويم بـــدا بهـــا
اثر الهلوع ، فمن لهـــا بعزاء ؟

اروى اماني العـــلوم بغيثـــه
ولكم سقى من روضـــة غنـــاء

ولطالمـــا قـــد أبرأت أفكـــاره
أمراض قلبت بالضـــلالة نـــاء

أضحت حصيداً أرض « أزهرنا » التى
كانت به كالدوحـــة الخـــضراء

تشكو الأوام وما لهـــا من مطفيء
مذ غـــاب سقاء العـــلى بالمـــاء

ما حال آماق العيـــون وقـــد رأت
شيخ المشايخ غاب فى الغبراء ؟

لم لا تغيض غزير مدمعها الذى
يزرى بسـبـح المزنـــة الوطفـــاء ؟

حق على الآماق يـــوم فراقـــه
الا تضـــن بذائب الأحشـــاء

عين العلوم بكت دمـــاً لمـــا رأت
انسانهـــا متهيئـــا لخفـــاء

لو أن كتب العلم تقدر فقـــده
لتبددت مـــن لوعـــة وعنـــاء

وأرى « عطارد » بات يكتب جاهـــداً
آثار فرقتـــه عـــلى الجـــوزاء

دهشت عون أولى النهى مـد أبصرت
شمس العـلوم تغيب فى الدامـاء
كم قلبته يد السقام ولم يقل
اف لمـا يلقى مـن الضراء
ولطالما لاقى الصروف ولم يسل
من معشر الحكماء كيف دوائى ؟
ادى فريضـة علمـه بحقيقـة
حتى قضى متوشحـاً بثنـاء
نادى بشير القرب : طب نفساً فقد
طاب الرحيل الى ديـار بقـاء
سمع النداء دجى فسلم نفسه
عـن طيبها لمبشر بلقـاء
ارواح عشـاق العـلوم تهيأت
لقـدومه ببـرازخ السعـداء
وتعطرت غرف الجنـان وغردت
فيها بلابلهـا بحيـن غنـاء
ورقى الى أعلى منازل حظـه
لمـا استوى بمراتب الشهـداء
هـو فى نعيـم دائم لكننا
لبعـاده فى شـدة البأسـاء
قلبى عليه غدا كجمرات الغضـا
والوعتى مـن حـرة وشـقائى
فلاذرفـن اسى عليـه مـدامعى
ما دمت « عائشـة » بخـدر فنائى

❋ ❋ ❋

وقالت فى دعـوة :

بحمد الله اقبلت التهانى
وتم الحظ واكتمل السعود
وقال العز للراجين : بشرى
بصفو العيش ، شانك ما تريد
وانتم للصفا روح ولب
وطلعتكم يطيب لها الشهود

* * *

وقالت مؤرخة ولادة صاحبة العصمة « عزيزة هانم » كريمة دولتلو « حسن باشا » :

جاء العزيز بشيرا قبل مقدمها
« عزيزة » فى بهاها حيرة العين
واقبلت مع صنو طاب عنصره
أنعم باقبال هذين الشقيقين
لا زال بدر المعالى سامياً بهما
ونير العز مصباح العزيزين
وفى تهانيهما اشدو مؤرخة :
راق الصباح له بشر بنورين

١٢٨٨ هجرية

الشعر العائلى

تتحدث عن نفسها

قالت :

يا من أتى للجسم يبرى سقمه
ويظن « جالينوس » بعض عبيده
أفنيت بالطب الذى تهذى به
أمماً وقربت الردى ببعيده
وزعمت انك انت قد جددته
ولقد أضعت قديمه بجديده

* * *

ولها وقد اصابها رمد سرى اليه فى الجفون :

اذا شكت الورى سقم العيون
فانى أشتكى ألم الجفون
أبيت كواله أضناه وجد
أنادى من جفونى من جفونى

فلا جفن يطاوعنى فأبكى
ولا صبر أزيل به شجونى

***

وقالت :

والله ماهمت حظا باسم داعية
الا واعقبت فيها الهم من اسفى
ولا سعيت بأقوى العزم فى أرب
الا رجعت طريح الارض فى دنف

***

وقالت وقد شفيت من رمد :

سفينة العين قد فازت من الغرق
واشرقت تزدهى من ساحل الحدق
مرت مشيدة ما مسها لغب
شفاف منظرها فى أحسن النسق
ونورها ضاحك تبدو نواجزه
لما تنفس صبح الصحو عن شفق
قد ضم بالشوق محبوباً يعوذه
من الوشاة برب النور والفلق
فياولاة الهوى فى صدقكم شغفى
اذ أننى من ذهول الوجد لم أفق
يكعبة الحسن انساناً أرى فسلوا
عينى التى طالما ضلت من الغسق

وخبرونى انسانى صفـا ودنـــا
لمستهـام رمـــاه البـين بالأرق
نعم ببشر اللقا نهديك انسنا
وقد دنا وصل من تهواه فاستفـــق
اهلا بنور عيون راق لى وصفا
من بعد يأسى وطول الخوف والفرق
فياتحيات برء شهدهــا بفمــى
حلى مرارة تسهيدى مــن القـلق
بـــأى قـــول احييــه وعــزته
عزت منالا فلم تـدرك لمستبــق ؟
لكن ضمير التهانى غير مستتـر
ونور انسى بدا للناس كالفــلق
وذا الرشا مذ نشا فى حســن طلعته
كانت منازلــه شفافــة الحـــدق
انسان عين المفدى انت لجت بهـــا
لا أوحش الله من احسانك الغـــدق
آليت لما سقيت الســـم فى سقمى
واحوجتنى لياليه لكـــل شـــقى
لا اشتكى لوعتى الا لمـــن هـــو لى
فى كل ضيم وضير بالعيون يقى
وقـد منحـت بنـور منك مقتبس
برث يمينى وكـان الصدق من خلقى
ملت ليالى مصابى من جـوى واسى
وحملتنى اثقـــالا عـــلى عنـقى
قادت زمامى لكهف السقم واستندت
ببابــه أشهراً طالت فـــلم اطق

كأنها ضرة قد ضرها رفهني
بالقرب منك فجابت أسوأ الطرق

فهل نوت طهر أحقاد تواربها
بسيل دمع من الآماق مندفق

لما استغثت بفضل الله يسر لي
أكحال صبر اقالتني من القلق

وردك الله نور المقلتين على
صب بغيرك هاد قط لم يثق

كم دق عظمى بأسقام تغادرني
كاثمد لعيون العين منسحق

ثم قلت في محنتي : يارب خذ بيدي
واكشف سقامي وجد بالنوم للأرق

فبالصغيرين اهدى الشكر معترفاً
لخالقي ما صفا البدران بالأفق (١)

* * *

وقالت أيضا :

بالفي مرحب حيا لساني
وأهلا ، قال في صدري جناني (٢)

فعودي يا أويقاتي وهني
لقد عاد الهنا بعد التواني

---

(١) فبالصغيرين ، تعني : القلب واللسان . ومن المأثور : « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » .

(٢) في الأصل المطبوع : هالفي مرحبا .

ويا حلو السلام لعهد « سـلمى »
صفت للعين مرآة العيـان

فمن هنى يهنينى بعينى
فنور العين عاد مع الأمانى

وها انسانها يا آل ودي
لطلعتكم بنور الشوق رانى

يحييكم بشهد الأنس عنى
فهنوا بالسلامة والأمان

لوامع نيرات كان قلبى
لشوق ضيائها ولهاً يعانى

حياتى فى تحياتى لنور
بماء حياته صبحاً سقانى

نعيمى نعمتى عزى عزيزى
وليلى مرشدى سبل التهانى

ببعدك والذى كابدت فيه
وما لاقيت من ضيم دهانى

وغيبتك التى افنت وجودى
والقت فى غيابتها عيانى

سرورى باللقا ونعيم قربى
أعاد بعودك الميلاد ثانى

لقد أرغمت كل طبيب سوء
اضاع بهزله طول الزمان

وقالوا : مات ، قل : موتوا بغيظ
فجل القصد حيا قد اتانى

وجدد بالوصال حياة روحى
اعوذه بآيات المثانى

فدعني يا خـلى والخـل نخـلو
ونكحـل بالثنا جفن الأمـانى (٣)
لمرآة الجمـال ووجـه بـدر
دعـانى « يوسف » الثانى دعانى
وقد أعددت مافى الكـف طـرا
لمن بقميص برئى قـد حبـانى
حبيبى بالذى أعطـاك نـوراً
تقود به كما ترضى عنـانى
وذاك النور من مشكاة فضـل
به لسبيل مقصودى هـدانى
لقلبى ان سلاك صـلى بنـار
بها تكوى حشاشـاتى بنـانى
ولولا الصبر جدت ببذل روحى
لمن حيا بقربك والتـدانى
ولم ابخـل بهـا حبا لعيش
وعيش المرء مهما طـال فانى
وقد مرت على المضنى شهـور
يعانى من فراقـك ما يعـانى
ولكنـى وددت العيش كيمـا
أراك كما ترى غيرى تـرانى
فيامن قد بلوت بعـاد خـل
ويا من قـد شقى شوقاً سـلانى
أبعد الحـب ترضى أم يوارى
فقول الصـدق يهديكـم بيـانى

---

(٣) فى الأصل المطبوع) تحلو ، بدلا من : تخلو ٠

أموت ومقلتي تـــرأى عـــــزيزى
ويغفر زلتى من قـــــد برأنــــى
بسطت بالابتهــــال أكف حمـــــدى
لمن باللطف عن كف وقانى (١)
اذا يئس الطبيب وكـــــل عنى
بقدرتـــه بمــــــا أرجـــو حبــانى
ولست ببالغ مقـــــدار شكـــــرى
لو أن جوارحى سبقت لســـــانى
سأضرع بالشفاء لكـــــل خـــــل
لمن ما دمت « عائشـــــة » شفانى

* * *

وقالت مستغيثة :

اتيت لبابك العـــــالى بـــــذلى
فـــــان لم تعف عن زللى فمن لى ؟
مقـــرا بالجنـــــاية وامتثـــــالى
لأسر النفس فى عقـــــدى وحـــ
ومعترفـــــاً بأوزار ثقـــــال .
أقـــاد لحملهـــا طوعـــاً لجهـــلى
اقـــــر بزلتى من قبـــل كى لا
تقـــر جوارحى بالذنـــب قبـــلى
اتيت ولى ذنـــوب ليس تحصى
أقول لراحمى بالعفـــو كن لـــى

---

(١) الكف : نقصد به فقد البصر .

ولم اعـــدد لذاك الحـــى زاداً
اذ الأظعـــان قـــد قامت بحمـــلى

ولم اصحب خلوصـــاً لارتحـــالى
يقود عنان تسويحى وضـــــلى

وكم طاف الغرور براح عجـــب
على ولم أفق من فرق خبـــلى

وهمت بغفلتى فى عيب غـــيرى
وها انا محفـــل للعيب كلـــى

ضللت عـــن السبيـــل ولم احله
وهل يبدو الرشاد لعين مثلى ؟

سعت نفسى بأن أمشى مكبـــا
على وجهى لطاعتهـــا فويـــلى !

هدانى ناصحى فازددت غيـــا
وقلت لمرشدى بالزجر : ولى (١)

اراك بلمتى يا شيب عظنـــى
وقل : حان الرحيل غـــدا لعـــلى

فأول ما ترى جـــدث مهـــول
تهيل تراه كف أخ وخـــل (٢)

وقد رجعوا كأن لم يعرفـــونى
وهم نسبى وابنـــائى واهـــلى

وتشتغل البنـــون بقســـم مـــال
انا بسؤاله فى عظم شغـــــل

---

(١) فى الأصل المطبوع : « غِبا » بدلا من : « غيا » .
(٢) فى الأصل المطبوع : « حدث » بدلا من « جدث » .

فأنت لوحـــدتى ولكـــل عاص
له رحماك من بعدى وقبـــــلى

***

وقالت وقــد عاد الرمــد :

أسال مسلسل السحب العـــوالى
فروى شعب « مكة » « والعوالى » ؟
ألم الآفــاق قد ملئت عيونـــا
فاغــرق نبعهــا شم الجبـــال ؟
ألم « العباس » فى قـــوم عطـــاش
قد استسقوا بــذل وابتهـــال ؟
عهدت الغيث ينعش كــل روح
ويحيــى النفس بالمـــاء الــزلال
طغى ماء الجفون وما دنت بى
سفين الشوق من جودى الوصـــال
وقــد أصبحت فى بحر عميــق
من الظلمـــاء مجهــود المــلال
ضللت بليل أسقامى طـــريقى
اليــكم سادتى فانعمــوا ضــلالى
قضيت بكم ليـــالى مقمـــرات
فلم قد أظلمت هــذى الليــالى ؟
وكان الدهـــر ملتفتـــا الينـــا
وها هو مغمض الأجفـــان قـــالى
فوا أسفى عــلى انســـان عينى
غدا فى سجن سقم واعتقـــال

حجبت بسجنه عن كل خل
وصرت مخاطباً صور الخيال
أانسان العيون فدتك روحى
يهون لعود نورك كل غالى
أترضى البعد عن عينى أليف
أضر بعزمه ضيق المجال
أذبت حشاشتى نزعاً وروعاً
شغلت بأسوا البلبال بالى
بمن جعل العيون أجل مأوى
لحفظك أيها الباهى الجمال
حياتى بعد بعدك لا أراها
سوى سكرات نزعات ثقال
وكيف اعد لى روحاً ترجى
وشمس الروح مالت للزوال ؟
غدوت بفرقة الفرقان صبا
أسائل فى التلاوة كل تال
ولولا أن حفظ النصف منه
شفى قلبى لذبت من اشتعالى
لعمرى « للحديث » حياة روحى
وراحة مهجتى ونفيس مالى
وكم فى الفقه من درر تحلت
بها فكرى ومن ذرر غوالى
أمس الكتب من شغفى عليها
وابلى حسرة من سوء حالى
وانـدب مهجتى حياً لأنى
حرمت بدائع السحر الحلال

تمس المصحف الأسـمى يمينـى
وقد وضعت على قلبى شمـالى
وانشـده لآيـك طـال شـوقى
وما لى غيرهـا عـز وما لى
كلامك فى الحيـاة وبعـد موتى
وفى يوم التغابن والجـدال :
غذائى ، راحتى ، نـورى ، أنيسى
دليلى ، بهجتى ، املى ، كمـالى
فراقك صدنى عـن كـل قصـد
وقد مر المذاق لكـل حـال
فكيف أروم بعـد اليوم ربحـاً
وأيامى ذهبن برأس مـالى
ولكنى ارى فى الصـبر طبى
ومكحـلة الجـلا حسن امتثالى
فيا انسان عين غـاب عنهـا
وبدلنى بـه طـول المـلال
عسى القـاك مبتهجـاً معـافى
وأصبح منشداً : املى صفـا لى
لتهنـا مقـلتى بسـنا حبيب
بديع الحسن محمـود الوصـال
وانظم احرفى كالـدر عقـداً
به جيد الصحائف عـاد حـالى
فـربى قـادر بـر رحيـم
يجيب بفضـله السامى سـؤالى

* * *

وقالت استغاثة :

أين الطريق لأبــــواب المفتوحـــات ؟

أين السبيل الى نيل العنايات ؟

اين الدليل الذى ارجو الرشاد به

الى سبيل المعالى والهدايـــات (١)

اين السلوك الذى أسرار لمحتـــه

مصباح نور لمشكـــاة المناجـــاة ؟

اين الخلوص الذى آثاره سبقــت

يوم الرحيل الى دار السعادات ؟

كيف الخلاص ، واجداث الشقا وطنى

وقد رمتنى بها أيدى الشقاوات ؟

كيف المسير الى ارض المنى وانـــا

بطاعة النفس فى قيد الضلالات ؟

كيف العدول بقصد السبل عن عوج

أفضى بسعى الى دار الندامـــات ؟

كيف الرحيل بـــلا زاد وراحـلة

تحت سيرى لأرض الاستقامـــات ؟ (٢)

ولى حقائب بالأوزار مثقلـــــة

وعيس كدحى كلت عـــــن مراداتى

فيا أولى الحزم حلوا عقـــد مشكلتى

وكيف ابلغ أقطـــــار السلامات ؟

عتبت نفسى على ما ضاع من عمرى

فى ملهيـــات وغفــــلات وزلات

---

(١) فى الأصل المطبوع : « سبل » بدلا من : « سبيل » .

(٢) فى الأصل المطبوع . « تحت » ، بدلا من : « تحث » .

فخالفت مقصدى جهــلا وما اتعظــت
ولمحة العمر ولت فى الخســـــارات
فلو بكت مقلتى للحشر ما غسلت
ذنوب يوم تقضى فى الجهـــــالات
ولو تبـــدد قـــلبى حسرة واسى
على الذى مـــر من تفريط أوقـــاتى
لم يجد لى غير دق الكف من نـــدم
على عظيم اســـاءاتى وغفـــلاتى
ان طال خوفى فقد أحيا الرجا أمـــلى
فى غافر الذنب خـــلاق السماوات
فاز المخفون واستن الثقـــات الى
دار الســـلام وفردوس الكـــرامات
وكان شغلى خضوعى ، زلتى ، أسفى
ووضع خدى على أرض المــذلات
وطوع امارتى بالســـوء قيـــدنى
عـــن الوصول لغايـــات الكمـــالات
فلم يسعنى بأثقـــال الذنوب سوى
ساحات غفران عـــلام الخفيـــات

***

وقالت :

مرارة الصبر خصت بالحـــلاوات
وجدت فى مرها حلو السلامـــات
صيانتى فى كهوف الصبر أمنـــع لى
من حصن «كسرى» ومن أعماق «أغمات»

كم بات دهرى يرينى نهـــــج تربيتى
فينثنـــــنى بقبـــولى وامتثـــــالاتى
وما احتجابى عن عيب أتيت به
وانما الصون من شأنى وغايــاتى
وكلما شب دهرى فى معـــاندتى
لم يلق منى له الا اطاعـــــــاتى
وكلما آدنى ظلمــــــاً بمثقـــله
عدلت سيرى كما يرضى بمرضـــاتى
كم قابلتنى ليال ريحهـــا سعــر
بطيئـــة السـيـــر ترمى بالشرارات
لاقيتها بجميل الصبر من جلـــدى
وبت أسقى الثرى من غيث عـــبراتى
كم اقعـــــدتنى أيـــــام بصدمتها
وقمت بالعـــزم مشهــور العنايـــات
وكم حليفة سعـــــد اذ تعنفنى
تقول : سعيـــك مذمـــوم النهايـــات
فأخفض الطرف من حزن أكابده
وأهمل الدمع من تلـــك المقـــالات
وكم لصقت بأرض الظلم ناصيتى
فقمت من سجدتى أتلو تحيـــــاتى
وكم شكرت بفضل العدل عاذلتى
ان أحسنت أو أطالت فى اساءاتى
وما منحت بيوم قـــد اتى غلطـــاً
بالأنس الا وقامت فيـــــه غـــاراتى
ومذ أتت عـــذلى تبغى مصادرتى
ظلماً منحتهمو اسنى الكرامـــــــات

وكلما عددوا ذنبـــاً رميت بــه
بسطت للعفو راحـــات اعترافـــاتى
وكلمـــا حـــرروا منشـــور مظلمتى
وأثبتوا فى الورى ظلمـــا جنايـــاتى

اظهرت شكرى لهم بالرغم عن أسفى
وكان ما كان من فرط التهابـــاتى
ولم افه لذوى رد لمعـــــرفتى
أن الحبيـــب حبيـــب فى المسرات

اقوم والضيم تطـــوينى نوائبـــه..
طى السجل ولم اسمعـــه انـــاتى
اخفى الأسى ان حسود جاء يسألنى :
لأين تسعى ؟ وأومى لابتهاجـــاتى
ان ضل سعيى فهادى الصبر يرشدنى
الى طريق رشـــادى واستقـــاماتى
ولـــم ازل اشتكى بثى ومظلمتى
لعـــالم الجهـــر منى والخفيـــات

علت ولاة الصفا اشهى نجائبهـــا
لتقنص الفـــوز من وادى المودات
وبت باليأس فى بطحـــاء متربتى
وكان شغلى لضيمى دق راحات

اقول للصبر : لا عتب عـــلى زمن
أعطى لأبنائه اســـمى العطيـــات
فقال : مهلا ولا تغررك شـــــوكتهم
فالصحو يعقبه ســـود الغمامــــات
فليس كـــــل ملوم دام مكتئبـــاً
وما السعيد سعيـــد للمــــــلاقاة

فدهرهم غرهم جهـلا وما علموا
أن الزمان قريب الالتفاتـــــات

فما توارت بغاة الغم من أسفى
حتى اناخوا بأجبال النكايـــات

تذكر الدهر عـادات له سلفت
وقـد نسوهـا بحانـات الخلاعات

ورد دهرى سهام الحقـد صائبة
اليهم فغدوا فى شر حــــالات

فما استطابوا أمانيهم ولا قنصـوا
حتى استوينا بكهف الاعتكافـات

قال الدهاة : سهام الدهر قد وقعت
من ذلك الجمع فى كشح ولبـات

فقلت : أنعم به من حـاذق فطـن
وانــه لحقيـق بالعــدالات

ظنوا الزمان أبـاح السعد طالعهم
وأنه اختص نجمى بالنحوسـات

والصبر أشهدنى ما كنت أغبطهم
عليه عاد اعتباراً فى العبـارات

فلا يهولنك حرمان بليـت بـه
ولا يغرنك اقبـال غـدا آتـى

كلاهما — والذى انشاك من علق —
يفنى ويعدم فى بعض اللميحـات

أين الملوك الأولى كانت أوامرهم
محدودة كسيوف مشرفيـات ؟

تمحو وتثبت ما رامت وما رفضت
بين الأنـام بأقـوال سميـات

قد احكم الدهر مرماهم فما لبثوا
حتى انطووا فى الثرى طى السجلات
فكم مضى عزمهم فى عــز سطوتهم
قولا وفعلا بتسديــد الرياســات
وكم سرى فى الورى منشور سلطتهم
شرقاً وغرباً بأنــواع السياسات
يؤوب بالعجز أقواهم اذا ألــم
بــه الم ويبــدى شر حسرات
يلوذ ضعفــا بأذيال الطبيب وما
يغنى الطبيب لدى فتــك المنيات
وكم لفقد عزيز منهمو ســكبت
مدامع كن بالنعمى مصونــات
وطالما احرقت حسراتهــم كبــداً
تضعضعت منه أركان الشهامــات
فلا تقــل لى متاع وهو عارية
واليأس عندى راحات استراحــاتى
وقد بسطت أكف الذل ضارعة
لخالق الخلق جبــار الســموات
وبت أدعو عليم السر قائلــة :
يا غافر الذنب جد لى باستجابات
يا كاشف الضر عن « أيوب » مرحمة
حين استغاثك مــن مس المضرات
وصاحب الحوت قد انجيته كرمــاً
لمــا دعــا بابتهــال فى الضراعات
انقذته يا اله العرش من ظلــم
فظلمــة النفس لاقتــه باغنــات

وابيضت العين من «يعقوب» وانسكبت
حزنا على « يوسف » فى فيض عبرات
ومذ شكا البث للرحمن عاد له
نـــور العيـــون قريـنـاً بالمسرات
و « يوسف » السيد الصديق حين دعا
فى ظلمة السجن من بعد الغيابـــات
أوليته الحكم والملك العظيم كمــا
آتيته العلم من أسنى العنايـــات
ومذ علمت باخلاص « الخليل » غــدا
والنار من حولــه فى روض جنـــات
عادت سلاماً وبرداً بعد ما اشتعلت
ولم يفه من يقـــين بالشكايـــات
وقد رفعت يمين الذل داعيــــة
اليـــك يا رب أرجو غفر زلاتى
ربى ، الهى ، معبـــودى ، وملتجئى
اليك أرفــــع بثى وابتهـــالاتى
قد ضرنى طعن حسادى وانت ترى
ظلمى ، وعلمك يغنى عن سؤالاتى
فامنن عـــلى بالطاف لتخـــرجنى
من الضلال الى سبل الهدايـــات
انت الخبير بحالى والبصـــير بـــه
فافتح لهذا الدعا باب الاجابـــات
فكيف اشكو لمخلوق وقــد لجأت
لك الخلائق فى يسر وشـــــدات

فيالها من جراح كلمـــا اتسعت
أعيت طبيبى رغما عـــن مداواتى
أنت الشهيد على قول أفوه بـــه
ما دمت « عائشة » فالحمد غاياتى

* * *

وقالت فى أثناء رمـــد :

فدى للعـــين منى كـــل عـــين
وما فى الكون من ذهب وعـــين
أرى الظلماء قد حجبت عيـــانى
وأجرت من دموعى كـــل عـــين
والقتنى بسجـــن يوســـفى
وحـــالت بين أفراحـــى وبينى
وأقسم ان تحقق لى شفاهـــا
لجدت بما أرى فى الراحـــتين
فقد أصبحـــت فى حـــزن وأن
وقلبى بين اتعـــاب وأيـــن
وما أهدت صبا الأسحـــار نومـــاً
الى عين غدت فى أسر غـــين
يقلب فى دثار السقـــم جســـمى
كأنى فوق جمـــر الحـــرتين
تخالفت الأســـاة بطـــول وعد
يعللنى ويـــأس فيـــه حـــينى
ومن فـــظ يهـــددنى جهـــاراً
بمبضـــعه المصـــوب فى الـــدين

وعهــدى بالميــــاه حيــاة نفسى
فمــالى قد ظمئت بمــاء عينى ؟
فيــــا لله أى سنــا وضـــوء
أصيب بكل عاديــة وشـــــين
فهل هى فى سبيل الله غــــازت
فذاقت باللقا ظلم « الحسين » ؟

***

بنتاه يا كبدى ولوعة مهجتى

وقالت السيدة عائشة التيمورية ترثى ابنتها :

ان ســال من غـرب العيـون بحـور
فالدهــر بـاع والزمــان غــدور
فلــكل عين حق مــدرار الدمــا
ولــكل قلب لوعــة وثبــور
ستر السـنا وتحجبت شـمس الضـحى
وتغيبـت بعـد الشروق بــدور
ومضى الذى اهوى وجرعنى الأسى
وغـدت بقلبى جـذوة وســعير
ياليتــه لمـا نـوى عهـد النـوى
وافى العيــون من الظــلام نـذير
ناهيــك ما فعـلت بمـاء حشاشـتى
نـار لهــا بين الضـلوع زفـير
لـو بث حـزنى فى الورى لـم يلتفت
لمصــاب قيس والمصــاب كـبير
طافت بشـهر الصـوم كاسـات الردى
ســحراً وأكـواب الدمـوع تـدور

فتنــاولت منهــا ابنتى فتغـــيرت
وجنـــات خـــد شانهــا التغيير

فذوت أزاهير الحيـــاة بروضــــها
وانقــــد منهـــــا مائس ونضـــير

لبســت ثيــاب السـقم فى صـغر وقـد
ذاقت شراب المـوت وهـو مريـــــر

جاء الطبيب ضـحى وبشـــر بالشـفا
ان الطبيب بطبـــــه مغــــــرور

وصف التجـــرع وهـو يزعـم أنـه
بالـــبرء من كل الســـقام بشـــير

فتنفســـت للحـــــزن قائلــة لـه
عجـــل ببـرئى حيث أنت خـــبير

وارحـم شـــبابى ان والدتى غـــدت
ثكلى يشـير لها الجوى وتشـــير

وارأف بعـــين جـرمت طيب الـــكرى
تشـــكو السهاد وفى الجفـــون فتور

لما رأت يـأس الطبيب وعــــجزه
قـالت ودمـع المقـــلتين غـــزير

امــاه قــد كـل الطبيب وفــاتنى
مما أؤمـل فى الحيـــــاة نصــير

لـو جــاء عـراف اليمـــامة يبتـغى
برئى لرد الطـرف وهـو حســــير

يا روع روحى حلهـــا نزع الضـــنا
عمـــا قليـــل وزقهـــا ســـتطير

امــاه قــد عز اللقـــــاء وفى غـــد
ســـترين نعشى كالعـــروس يسـير

وسينتهى المسعى الى اللحد الذى
هو منزلى وله الجموع تصير
قولى لرب اللحد رفقا بابنتى
جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلدى بازاء لحدى برهة
فتراك روح راعها المقدور
اماه قد سلفت لنا امنية
يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأحلام مضت وتخلفت
مذ بان يوم البين وهو عسير
عودى الى أربع خلا ومآثر
قد خلفت عنى لها تأثير
صونى جهاز العرس تذكارا فلى
قد كان منه الى الزفاف سرور
جرت مصائب فرقتى لك بعد ذا
لبس السواد ونفذ المسطور
والقبر صار لغصن قدى روضة
ريحانها عند المزار زهور
أماه لا تنسى بحق بنوتى
قبرى لئلا يحزن المقبور
ورجاء عفو أو تلاوة منزل
فسواك من لى بالحنين يزور
فلعلما أحظى برحمة خالق
هو راحم بر بنا وغفور
فأجبتها والدمع يحبس منطقى
والدهر من بعد الجوار يجور

بنتـــاه يا كبـدى ولوعـــة مهجـتى

قــد زال صـــفو شـــأنه التـــكدير

لا توصى تـــكلى قـد اذاب فؤادهـــا

حـــزن عليـــك وحســـرة وزفـــير

قســـــماً بغض نواطـرى وتلهفي

مـذ غـاب انســـــان وفـارق نور

وبقــبلتى ثغـراً تقتضى نحـــبه

فحــرمت طيب شـــذاه وهــو عطــير

والله لا اســـلو التـــلاوة والدعـــا

مـــا غــردت فـوق الغصـــون طــيور

كــلا ولا انسى زفـــير توجعى

والقـــد منـــك لــدى الثرى مدثـور

انى الفت الحــــزن حـتى أننى

لو غـــاب عنى ساءنى التأخـــير

قــد كنت لا أرضى التبـــاعد برهـــة

كيف التصـــبر والبعـــــاد دهـــور

ابكيـــك حتى نلتقى فى جنـــــــة

بريـــاض خــلد زينتهـــــا الحـــور

ان قيـــل عائشـــة اقـول لقـد فنى

عيشى وصــــبرى والالــه خـــبير

ولهى على (توحـــيدة) الحســن التى

قد عــاب بدر جمالهـــــا المســـتور

قــلبى وجفنى واللســــان وخـــالقى

راض وبـــاك شـــاكر وغفـــور

متعت بالرضـوان فى خـلد الرضـــا

مـا ارينت لـك غرفـــة وقصـــــور

وســـمعت قول الحق للقــوم ادخـلوا

دار الســــلام فســـعيكم مشـــــكور

هــذا النــعيم بــه الاحـــــبة تـلتقى

لا عيش الا عيشــــه المبـرور

الرائـــدة

(ملك حفنى ناصف

١٨٨٦ ــ ١٩١٨

فى عصر كان الرجل هو السيد ، وهو المتحكم فى كل شىء ، والمرأة جارية تباع وتشترى ، والعلم والعمل حكر على الرجال ، وفى ظل احتلال انجليزى يحاول أن يؤخر المجتمع ويمنع تقـدمه ٠٠ ظهرت هذه السيدة ٠٠ ملك حفنى ناصف ٠٠ أو باحثة البادية ، كما أطلقت على نفســها ٠٠ تلك الســيدة العظيمة التى لعبت دورا اجتماعيا وسياسيا وثقافيا مرموقا فى بداية هذا القرن ، وكانت حياتها ، على الرغم من قصرها ــ حيث لم تتجاوز اثنين وثلاثين عاما ــ زاخرة بالعلم والانتاج والنشاط الاجتماعى ٠

وحين تذكر ملك حفنى ناصف يذكر أنها عاشت بين حدثين هامين فى تاريخ مصر : الأول هو احتلال الانجليز لمصر سنة ١٨٨٢ ، والثانى هو ثورة ١٩١٩ ٠ فقد ولدت عام ١٨٨٦ ، وتوفيت عــام ١٩١٨ ، وبين التاريخين حفرت اسمها بحروف من نور فى صفحات التــاريخ ؛ ليس بانتاجها الثقافى فحسب ، ولكن بوعيها بمجتمعها ومشكلاته وقضاياه ٠ والحقيقــة أنهــا كانت وليدة بيئة ثقافية تضافرت لتكون هذه الشخصية ، فوالدها هو الأديب والشــاعر ورجل القانون حفنى ناصف ، أحد مشاهير عصره ، وأحد أبرز

أدبائه ، والذى اشتهر أيضا بخفة ظله ومرحه ، هذا بالاضافة لمكتبته الضخمة · ولعل ثقافته وفكره هما اللذان شكلا عقلية وعلم ابنته . فكان هو وهى سابقان لعصرهما ···

فقد ألحقها بمدرسة السنية الابتدائية للبنات ، التى لم يكن مسموحا فى ذلك الوقت بالدراسة بها الا للسنة الرابعة فقط · ولكن حين بلغتها ملك سنة ١٩٠٠ ، كانت نظارة المعارف تجرب مساواة البنات والبنين فى دخول امتحان الابتدائية ، وحين انهت هذه المرحلة كان قسم المعلمات قد بدأت الدراسة به ، ومدته خمس سنوات ، فانتقلت اليه حتى نالت دبلوم المعلمات ، ثم عملت كمدرسة فى المدارس الأميرية وظلت كذلك حتى استقالت عند زواجها من عبد الستار الباسل باشا ، وكانت فى العشرين من عمرها ، وانتقلت معه الى ريف الفيوم ·

وتعد ملك حفنى السيدة الثانية التى تثير قضية التعليم ، بعد عائشة التيمورية ، وبعد أن بدأها عدد من التنويريين امثال رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين ، لكنها كانت أول سيدة تدافع عن المرأة وتطالب بحقوقها · وفى ذلك فانها كانت تميل الى الاعتدال والتطور التدريجى للمجتمع · فهى على الرغم من انها نادت بأهمية تعليم المرأة الا أنها وقفت موقف الاعتراض من قضية السفور ، فقد سخرت من اثارة قضية الحجاب واعتبرتها قضية فرعية ، وان جوهر الاصلاح يبدأ من التعليم والتربية ، فجهل المرأة هو سبب كل مساوىء المجتمع ، وهى لم تناد باصلاح المرأة فقط ، ولكن اصلاح الرجل أيضا ، واهتمت بمشاكل المرأة وانتقدت الاكراه والخداع فى الزواج · وقد هاجمت استبداد الرجل بالمرأة فخاطبته قائلة :

« لا تعرف حقا لشريكتك ، فتجلب عليها العذاب بسيرك المعوج ! لا تواسيها فى حزنها ، ولا تحاول تخفيف مصابها ، وتحملها ما لا بد

لها فيه ، فهى عندك التى أنجبت البنات ، وهى التى لم تلد لك الذكور ، تحقرها طفلة ، وتحرسها شابة ، وتستعبدها امرأة ، وتجرح منها عزتها ، فتحيطها بالرقباء والحشم كلما انتقلت خطوة ، وكأنها غير أمينة على نفسها ، أو كأن العفة ملاكها الرهبة لا الرغبة · تزدرى عواطفها وترغمها على أن تكون لك عبدة ، وتكون أنت السيد ! تعاملها كأنها غريبة عنك ، وتجلب على بيتها الدمار « بالضرة » ، ولا تدرى أى خطر تجلبه بالانسياق وراء شهواتك ! » ·

لقد لخصت ملك حفنى بتلك الكلمات عذابات المرأة المصرية فى تلك الفترة ، حيث كان الرجل متحكما بكل شىء ، وكان تناول هذا الكلام فى ذلك الوقت يعد جرأة ، وكان اعلانه ونشره فى الجرائد تجرؤا ، وهو ما داومت عليه ملك حفنى بتوقيع اسم « باحثة البادية » على النسائيات التى اشتهرت بكتابتها فى الصحف خاصة جريدة « الجريدة » ·

ولا تعد ملك حفنى صاحبة فكر ثورى أو تحررى ، لكنه فكر معتدل ، فهى وان طالبت بتعليم المرأة وحسن معاملتها وتربيتها فانها لم تطالب برفع الحجاب ، بل سخرت ممن يثيرون هذه القضية ـ كما ذكرنا من قبل ـ فقالت :

هل تطلبون من الفتاة سفورها
حسن ولكن أين بينكم التقى
تخشى الفتاة حبائلا منصوبة
غشيتموها فى الكلام برونق
لا تتقى الفتيات كشف وجوهها
لكن فساد الطبع منكم تتقى !

كذلك لم تطالب بعمل المرأة جنبا الى جنب مع الرجل ، بل طالبت بأن يتركز دورها فى بيتها وأطفالها ·· فقالت :

من للوليــــد يعينــــه   فى لبســــــه والمــــآكل
من للرضـــاعة والحضـ   ومـايـلى انه والفـــطام
من للمــريض يحــبطه   أبـدا بـدون تملمـــــل
مــــن للأثاث يصـــونه   من للذخــائر والحــــلى
من يقســــم المذخـــو   ر بين الحـــال والمســتقبل

ولم يكن دفاع ملك حفنى عن المرأة مطلقـا ، بل كانت توجه لها النقد أحيانا ، وتكثر من نصيحتها · فكانت ترى أن المرأة يجب أن تعرف وتتعلم كل شيء ·· كيف تمشى كيف تتكلم وكيف تتصرف فى مال الزوج ، وتعمل على تربية أبنائها ، وأعلنت ذلك فى ٢٣ يوليه سنة ١٩١٠ فى قصيدة « الى الفتاة » نشرت فى صحيفة « الجريدة » ·· وقالت فيها :

مجــد الفتـــاة مقامهـــــا   فى البيـت لا فى المعمــــل
والمـرء يعمـل فى الحقـــــ   ل وعرســــــه فى المـــنزل

وتقول أيضا :

لـكن اذا دعت الضـــــرو   رة للخــــــروج فحيهــــل

وعلى الرغم من هذه الموهبة الشعرية الكبيرة لملك ، وامتلاكها لناصيتها واستخدامها لفنون الشـعر فى كثير من المواقف فان كتاباتها النثرية كانت الأشهر ·

ولـــم تـكن مــلك مشـــاركة فى الحيــاة الثقافيــة بالشــعر وبالنثر فقط بل انها شاركت أيضـا فى أنشـــطة سياســية ! فقد قدمت تقريرا الى المؤتمــر المصرى ســنة ١٩١١ · اقترحت فيه عدة مطالب للمرأة مثل ·· وجوب ذهاب النســاء فى المدن والقرى لحضور الصلاة وســماع الوعظ فى المساجد ، وجعل التعليم

الأولى اجباريا ، والزام المدارس بتعليم الدين الاسلامى ، وان يكون فى كل مدرسة سيدة مسلمة راشدة تراقب الفتيات فى أخلاقهن ! لأن معظهم المدارس فى ذلك الوقت كانت مدرساتها أجنبيات ٠

كما طالبت بالتوسع فى دراسة التمريض للفتيات وانشاء مدرسة للطب لهن ٠ والاكثار من المستشفيات الخيرية ، والسعى فى الحد من تعدد الزوجات لغير داع ماس بقدر الاستطاعة ، وتعليم المراة المصرية كل ما يلزم جنسها من الصناعات الضرورية .

وعلى الرغم مما ذكرنا من أن ملك حفنى ناصف كانت تطرح افكارا معتدلة بل أنها تميل الى اليمينية المحافظة ، فانها اتهمت من البعض بالتحرر والفرنجة ومحاكاة الغربيات ! ووجه لها نقد من المحافظين ومن التنويريين معا فتوقفت عن الكتابة خاصة والحرب العالمية الأولى كانت قد دارت رحاها ، فركزت جهودها فى العمل الاجتماعى وتعليم التمريض والمساهمة فى الهلال الأحمر ٠

وكانت قد شرعت فى عمل كتاب بعنوان : « حقوق النساء » ولكنها لم تنجز منه سوى ثلاث مقالات ، وكانت الأولى عن المقارنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية ، والثانية عن حقوق المرأة المسلمة فى ادارة الأعمال ، والثالثة عن المرأة المسلمة وحقها فى الانتخابات ، ولكنها لم تتم هذا الكتاب لأن مراجعه لم تكن لديها من حيث حقوق المرأة الغربية ، فأرسلت فى احضار المراجع من أوربا ، فتأخر ورودها ، فشرعت فى ترجمة حياة السيدة خديجة شعرا ، ونظمت منها نحو ثمانية أبيات ولكن قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى أصيبت باحثة البادية بالحمى الاسبانية ، فقضت عليها وفارقت الحياة فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٨ ، وقد شيعتها مصر بما تستحق من تكريم ورثاها الشعراء ٠

وكما ذكرنا فى البداية ، فانه على الرغم من حياتها القصيرة ، فانها كانت حافلة بالعمل والعطاء والنضال من أجل المرأة المصرية وكانت مقالاتها التى تنشر تحت عنوان « النسائيات » هى أهم ما قدم فى تلك الفترة ليكون محل أخذ ورد ونقاش وحوار ، وتعد نسائيات ملك حفنى ناصف قطعا أدبية ذات فكر متقدم ، ونحن بدورنا نقدم للقارىء نموذجا منها فيما يلى ..

الحجاب ام السـفور

رد على خطبة القاها حضرة عبد الحميد أفندى حمدى بشأن الحجاب

تتبعت خطبة الاديب عبد الحميد أفندى حمـدى عددا عددا فى الجريدة فشكرت له اهتمامه بترقية المرأة وأثنيت على اجتهـاده وشجاعته الأدبية وقد وجدت خطبته صحيحة المقدمات متينة المبنى الا أن لى رأيا أبديه فيها · وقد يمر بخلد أحد القارئين اننا ننتقد الخطيب حبا فى النقد أو تمسكا بحب القديم وجمودا منا عليه · لكن الحقيقة لا هذا ولا ذاك وكل امرىء حر فى فكره حر فى قبول فكرة غيره او رفضها حسبما يشـــاء بشرط أن لا يضر ذلك الرفض أو القبول بالغير ·

أماما يرجوه الكاتب من تعليم المرأة تعليما صحيحا فانى أوافقه فيه تمام الموافقة ويجب أن نحث غيرنا عليه بما نستطيع وقد أصبح هذا القول بديهياً لا يحتاج لأن أطيل فيه الكلام لا سيما وقد وفاه الخطيب حقه فى خطبته فجزاه الله عنا خير الجزاء · بقيت مسألة الحجاب وهى تلك المسألة العويصة التى قامت من أجلهـا من سنين حرب قلمية عنيفة وضعت أوزارها على غير جـدوى فلم يفز فيها (المحافظون) على القديم ولا (الأحرار) ·

ولست أنتقد اقتراح السفور من الوجهة الدينية لأنى اعلم أن الدين لم يحرجنا فى هذه المسألة كما بين ذلك حضرة الخطيب ولا من الوجهة الاقتصادية فان باقتراحه ان نلبس لباسا يضارع ما ترتديه الراهبات المسيحيات لتوفير كبير لما كنا عسانا نصرفه فى تانيق اللباس الخارجى كما يفعل نساء الفرنجة مثلا . كذلك لست انتقده من الوجهة الأدبية فان ذلك اللباس وبساطته لا ليق بتأزرنا به من تلك الحبر المهلهلة كما سماها الخطيب ولأدل على حشمة صاحبته وان كانت سافرة مما تلبسه الآن مبرقعة وشتان بين هذا البرقع الوهمى والبرقع الصحيح ·

اذن لم يبق للموضوع الا وجهة واحدة وهى الوجهة الاجتماعية واذا انتقدته من تلك الجهة فانى لا أقلد فيه عادة ولا اتبع رأى غيرى بل أصرح بما أشاهده عيانا وبما أعرفه من أحوال شتى جربت فيها النساء المختلفات والتجارب يجب أن تقدم أوامرها على أوامر البحث والتخيل اذ هى تعلم بعد أن تترك أثرا فى النفس لا يزول أمام التخيل فقد لا يطابق الحقيقة وان طابقها فقد لا يعلق كثيراً بالذهن لأنه لا أثر له الا فى المخيلة بعكس التجارب فأثرها يبقى فى الحواس والذاكرة فاذا نصحت طفلا أن لا يلمس النار لئلا تحرقه فان ولعه بالحركة والاستكشاف لا يزال يغريه بلمسها حتى يفعل ولا تنفع نصيحتك له أما اذا لمسها مرة وأحرقت أصابعه فانه يبتعد عنها كلما رآها ولو أمر بلمسها · وعليه فلسنا متبعات رأى من يأمرنا بالحجاب ولا رأى من يقول بخلعه لمجرد أن هذا تعب وكتب . وذاك نقب وخطب الا اذا تبينا الرشد من الغى وعلمنا من التجارب أولى الخطتين بالاتباع · وأمامنا الطبقات المختلفة والأجناس العديدة يجب أن تبحث كلا منها على حدته ونجمع منها كلها حكما واحدا نحكم به على انفسنا اما بالحجاب أو بالسفور أو غير ذلك مما سنوضحه بعد . وطبقات النساء (كالرجال) فى كل أمة ثلاث العامة والخاصة والوسط وأصحها

آدابا فيها كلها على الاطلاق الوسط ولا بد لذلك من سبب . نعم السبب راجع الى التربية فالخاصة أو طبقات الغنيات يرضين لانفسهن العيان فى الملاهى والملاذ ولجدة مفسدة فى الغالب خصوصا اذا اقترنت بالفراغ وهؤلاء عندهن من الخدم من يقوم بشؤون بيوتهن وأمور أولادهن يقد تعودن عيش الكسل والراحة .

والطبقة الدنيا تجد من حاجتها باعثا لها على طرق الطرق المختلفة لتجلب ما تسد به الرمق ويختلط نساؤها برجالها فى المصانع والمزارع وغيرها وهذه الطبقة شر على الآداب فى كل امه حتى فى الافرنج وهم ليسوا مقيدين بحجاب ولا عادة يقال معها انهم لما خالفوها وقعوا فى شر منها كما يجوز تطبيق ذلك علينا

وطبقة الوسط وهذه دائما أحسن الطبقات آدابا وأكثرهن حشمة ووقارا . ولرب معترض يقول مالنا وللطبقات وآدابها وما نسبة ذلك للحجاب وقد أدخلت بن حكمك هذا كل الأمم حتى التى لا حجاب عندها . فأقول متى عرفنا ذلك التقسيم وقارنا بين درجة اختلاط النساء فى كل طبقة برجالها علمنا تماما آن الاكثر اختلاط هى الأشد فساداً

وانك اذا استقصيت حوادث النساء فى مصر وجدت أكثرها فى الطبقة الدنيا منها بما فيها الفلاحات اللاتى وصفهن الخطيب الفاضل بالنزاهة والحشمة وقد رايت القرويات كثيراً وحادثتهن واستخلصت من أحوالهن أن ظاهرهن الجد دائما وذلك لعدم رؤيتهن من يقتدين به فى أسباب الخلاعة وقد سمعت آن كثيرات منهن يهمن برجال ممن يختلطن بهم فلو كانت القرى كالمدن فيها متنزهات بعيدة عن أعين الرقباء أو كانت الفتاة يستغنى أهلها عن شغلها وتبعها قليلا لافلتت ولساوت طبقة المدنيات السفلى (وأعنى بهن بائعات البرتقال ومثيلاتهن) فى الفساد والوقاحة .

فهؤلاء فسادهن من سوء التربية لا محالة ولكن الاختلاط بالرجال زادهن فجورا .

واذا رجعت لغنيات مصر وهي (الذوات) ويتلدهن بعض نساء الوسط فهؤلاء يتفنن في الملابس ويكثرن من الخروج تحككا لأن يسمح لهن برفع الحجاب ولكن على طريقة بعيدة من الادب فانهن لو كن يطلبن ذلك رغبة في الحرية الشريفة مثلا او انهن يشعرن أن الحجاب يمنعهن عن الاستفادة من العلماء أو غير ذلك من الأسباب الجائزة لوجب اعطاؤهن ما يطلبن بغير تكلف البحث والعناء . أما ونساء مصر على هذا الجهل المطبق ورجالها الا القليل على هذا الفساد المتحكم فلا يجوز مطلقا اباحة الاختلاط . على أن الافرنج وهم المتعاملون نساء ورجالا يشكون من فساد مجتمعهم وقلة وفاء أزواجهم واذن تعلم أن الطبيعة البهيمية في الانسان تجتاز عقبات التربية وتخترق سياجها الا الشاذة والشاذة لا حكم لها .

بقيت مسألة واحدة اجملها اجمالا وهى المثل القائل (ان الطفرة محال) فنساء مصر متعودات الحجاب فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرايت ما يجلبنه على أنفسهن من الخزى وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغير الفجائى من أسباب البلاء وتكون النتيجة شرا على الوطن والدين . واذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلا قليلا الى أن يتم الهدم فتبنى على أنقاضه أحسن منه . فاذا فرضنا محاولة هدم البناء دفعة واحدة (مستعملين الطرق والآلات التى نستعملها الآن تصورنا كيف يستحيل ذلك مع بقاء المارة والبنائين سالمين فضلا عن الانقاض كزجاج الشبابيك والخشب وما أشبه ذلك فهذه الباقيات الصالحات فى المرأة هى العفة والحياء والمنزل البالى حجابها الآن والسابلة الوطن والدين والفضائل .

فناشدتك الله أيها الأديب كيف تأمرنا الآن بالسفور اذا مشت احدانا فى طريق لا تزال تنصب عليها عبارات الوقاحة فيرشقها هذا بنظرة فاجرة وذاك ينضح عليها من ماء سفالته حتى يتصبب عرقها حياء فمجموع رجال مثل مجموعنا الحالى لا يصح بحال ما أن يوكل اليه أمر المرأة وتترك عرضة لسبابه وقلة حيائه ومجموع نساء كنسائنا الآن لا يفهمن الا لما يفهمه الرضيع يصبح سفورهـن واختلاطهن بالرجل بدعة لا انتهاء لشرها . ثم أفدنى أيهـا القارىء بالله ماذا تقول امرأة جاهلة أو متعلمة تعلما ناقصا لشـاب تجتمع به ؟ أتباحثه فى العلوم وهى لا تدرك أهميتها أو تعلم منها قشورا لا يعتد بها أم تناضله فى السياسة وهى لا تعلم أين انكلترا من جزائر الأرخبيل ولا يمكنها أن تفسر لفظة دستور أو استعمار مثلا أم ماذا تفعل اللهم انها لا تجد شيئا تقوله له الا ما قد تستحسنه من هيئته وحسن بزته وهناك الضلال الكبير .

والمتعلمات فى مصر الآن يزددن عدداً وفيهن من يصح أن تلقى اليهن قيادة اخواتهن . وسيجىء زمن ينشأ فيه جيل من النساء غير جيل (السحر والزار والرقى) وهؤلاء يثمر فيهن البذر فاذا أتعب الباحث نفسه فى نصح النساء الآن فانه قد يجد من تسمع ولكنه لا يجد من تسمع وتعقل ولا يبعد أن يكون من بين سمعـات خطبة عبد الحميد افندى من قد تقلدت القبعة وتزيت بزى الافرنج وسارت فى الشوارع تفاخر بأنها من ذوات الفكر الحر ومن صاحبات التمدين الحديث .

والخلاصة أن خروجنا بغير حجاب لا يضر فى نفسه اذا كانت أخلاقنا وأخلاق رجالنا على غاية الكمال واظن هذا مستحيلا أو بعيد الحصول فاذا حصل التماذج وكان على هذا الشرط فلا اعتراض لى عليه .

وهناك قوم يشددون فى تقدير الحجاب فيحبسون المرأة مؤبدا ويمنعونها من زيارة جاراتها أو يضيقون عليها بحيث لا تستنشق

الا هواء بيتها الضيق الدائرة فتفسد صحتها وتكسل عن الحـركة ومنهم من يفتخر بأن امرأته لم تبرح بيتها طول عمرها وهؤلاء ايضا متطرفون لأن المرأة لها رجلان يجب أن تتحركا وعينان يجب أن تبصرا فاذا صاحبها أبوها أو أخوها او زوجها مثلا فى نزهة وأراها محاسن الطبيعة ودقائق الموجودات وجدد قواها بالحركة واستنشاق الهواء الجيد وهى بمئزرها محتشمة فلا يخرج ذلك عن معنى الحجاب (وهنا استسمح الخطيب الأديب فى استعمال لفظه حجاب على غير ما مر لأننا لو رددنا كل المجازات الى الحقيقة لصارت اللغة أضيق من سم الخياط) .

على أن هذه المسألة واختلاف الآراء فيها قاضيها العـادل الزمن والمستقبل فكم من مسألة أبى قوم الا اتباعها وآخرون نبذوها نبذ النواة فاختلفوا وجاء الزمن مؤيدا فيها لفريق دون فـريق فصارت له القوة ورجع له الحول فاتحدوا فيها ورأيى أن الوقت لم يأن لرفع الحجاب فعلموا المرأة تعليما حقا وربوها تربية صحيحة وهذبوا النشء وأصلحوا أخلاقكم بحيث يصير مجموع الأمة مهذبا ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة وان هذا الموضوع وأمثاله لما يدعونا الى التفكير والتبصر فاننا بدأنا أن نجارى الافرنج فى كل شىء والمجاراة ليست ضارة فى حد ذاتها ماديا ولكن ضررها اجتماعى محض فضلا عن كل ما بينت فى مقالى هذا فـاننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين فى أمور معاشنا ولباسنا وزى بلادنا مما قد لا يوافق روح الشرق فاننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا بمرور الزمن وهذا هو ناموس الكون اذ يفنى الضعيف فى القوى وانه لمن العـار أن نهمل هذا الأمر يجرى مجراه ٠ فادعوا الكتاب والباحثين للتفكير فيه وفى ايجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدين الحديث ٠

ما ذنبنـــــا

رد على ما كتبه حضرة (الخانقاه) فى الجريدة بشأن تبادل ارسال النشء والمصاهرة بين الترك والمصريين ٠

كتب حضرة الأديب (الخانقاه) يقترح على الأمة المصرية أن تتبادل مع تركيا ارسال النشء من بنين وبنات وقد رد عليه كثيرون مصوبين فكرته ومخطئين لها على أنهم لم يحيطوا بالموضوع من جميع أطرافه وعذرهم فى ذلك انهم رجال وقد لا يعود عليهم بالذات ضرر ما من تنفيذ ذلك المشروع ٠ ولا يهتم بدرس اقتراح كهذا خطير الا من تقع عليه أضراره فيما لو نفذ ونحن معشر النساء المصريات أكثر النساء تعرضا لمثل ذلك الخطر .

أنا لا أعترض على الموضوع فى ذاته ولكنى أعترض عـــلى بعض لوازمه المربوطة به . على أنى أوافق حضرات الكتاب الذين أبانوا ان بيوتنا لا تصلح لأن يقتبس منها التركى أو التركية شيئا يزيده معرفة أو علما ولكن بصرف النظر عن هذه الحقيقة المؤلمة فان الاختلاط الشديد بين الأمتين بهذه النســبة التى يتمناها (الخانقاه) لابد وأن ينتج عنها المصاهرة بين أفرادها وان كانت

النساء التركيات أغلبهن متعلمات بعكس اخواتهن المصريات فيكون للأولى الرواج فى سوق الزواج الآن أما الأخر فعليهن العفاء ولهن الكساد ٠

وان من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى أنها كانت دائما مظلومة مهضومة الحقوق ففى عصر اسماعيل هجم علينـا جيش من الشركسيات انهزمنا أمامه وخرج ظافرا منا بأحسن رجلنا فلم يكن شريف أو نابه بمصر الا وأم ولده جارية شركسية من شراء اسماعيل ٠

ثم ابتدأ رجالنا فيما بعد ذلك الزمن يتزوجون بالأوربيـات وليتهن من ذوات الشرف ولكن كان اكثرهن ان لم نقل كلهن من فريق الراقصات والخادمات واضرابهن ٠ كل ذلك يجرى ونحن ساكتات ننظر ولا نتكلم خفية الريب ٠ ولكن نساء ذلك العهد كن جاهلات لا يفقهن شيئاً وربما كان ذلك خير قصاص منهن على الجهل (على أن هذا لم يكن من جنايتهن على أنفسهن ولكن جناه الوالدون عليهن) ٠ أما وقد صار بمصر الآن من المتعـلمات من يصـلحن للزواج بابناء جلدتهن أفليس من العـار أن تقـدر على أن تجعـل ابنك شريفا من أم ذات حسب فتختار أن يكون ابن جارية شركسية أو راقصة أوربية ؟ ثم أليس من العـار أن تشرئب دائما لما فى يد غيرك وعندك أحسن منه ؟

الا رب معترض يقول ان قد بطل الرق الآن وان من يصاهر الترك يصاهر أكفاء ٠ هذا صحيح ولكن الأم تغذى الطفل بأميالها وطباعها كما تغذيه بلبنها فاذا ما حنت التركية لوطنها (وكل يحن بالطبع لوطنه) نشأ متشبعا بأميالها بحب تركيا ويميل عن مصر وهو معـدود من رجالها ٠

وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم الفطرى للاتحاد هو على ما أرى ناشىء عن تشعب أجناس أمهاتهم فابن الفرنسية يحب فرنسا وابن الزنجية يذكر خصب السودان وابن العربية يفتخر بمحتده وولد المغربية لا يفتأ يذكر بلده وهكذا اضعنا وطنيتنا المصرية من طريق المصاهرة بالأجانب ٠

ثم أجدنى محقة اذا قلت ان الدم يحن لنوعه فاذا تكافأ الرجل والمرأة فى العلم والتربية وكانا مصريين مثلا فان الحب بينهما يكون أصدق وأمتن منه لو كانا مختلفى الجنس والمذهب ٠ فاذا اراد الأديب (الخانقاه) أن يختار لنفسه حالية غير مصرية فليكن ولكل امرىء ما يرى ولكن ليتذكر أخته وابنته وبنات عمه وقريباته فسيكون نصيبهن من غيره نصيب غيرهن منه والسلام ٠

مدارســنا وفتياتنــا

رد على من ذكرت أسماؤهم فى هذه المقالة

لم يكن يدور بخلدى ساعة كتبت موضوع (ما ذنبنا) أن يخطىء فهمه أحد لأنه من السهولة ووضوح الغاية بحيث لا يتعذر تفسيره ولكن ظهر لى من كتابه الكاتب فى جــريدة (لابورص اجبســيان) ومن كتابة التركية « على الهامش » انهما ذهبا فى واد وأنا فى واد ٠

أما جواب الســيدة التركية فانهيكفى لان يقرظ نفسه ولا اقول فيه أكثر من ذلك لأنه دل على مبلغ اخلاقها ودرجة حلمها على أنى أشكر لها حميتها ودفاعها عن نساء جنسها وألتمس لها بعض العذر على حدتها لأن المسيو (أدولف) هاج كامن عواطفها ولكنى لا أرى له هو رايا أن يجرح عواطف اخواننا (أولاد الذوات) ولا أجيز له أن يؤول مقالتى تأويلا لم أرده فقــد ذكر انى قلت « ان الغربيات لا يصلحن لادارة البيوت » وهو يعلم أن هذه العبارة لم ترد البتة فيما كتبت وان ظنى بأن الكاتب لايعرف العربية أو أن الذى ترجم له كلامى لم يحسن له الترجمة يجعلنى أحمل تهكمه وخروجه عن الموضوع على محمل حسن :

أما الفاضل (المتحرج من الزواج) فقد صدق فى كثير مما قاله عمن يدعين أنفسهن بالمتعلمات ولسن من العلم ولا من التهذيب فى شىء وأضر ما يكون هؤلاء اذا تزوجن لأن المتزوجة عليها واجبات شتى وعلى قدر الواجب تكون المسئولية وهؤلاء لا يدرين حقوقهن ازاء الزواج ولا فن تربية الأولاد ولا كيفية معاملة الخدم وو .. الخ مما يجب معرفته وتراهن على جهلهن هذا شامخات بانفهن نحو السماء ويحسبن الاشتغال بلوازم البيت حطة لمقامهن فيقضين وقتهن بين حديث خرافة وخروج فى الشوارع وهن على العموم اكثر النساء اسرافاً وتبذيراً فضلا عن البهرجة وقلة الحياء فلا علما أتقن حتى تتهذب نفوسهن ولا على تربية منزلية محضة درجن حتى يعلمن على الأقل طبخ عشاء بسيط اذا تركتهن الطاهية يوما ما .

وهذه الفئة الجاهلة الداعية فى العلم هى ولا شك فئة خريجات مدارس الراهبات وكثير من المدارس الأهلية الأخرى وقد خبرت مدارس البنات بأنواعها « ولا ينبئك مثل خبير » وحسبك وقوفاً على مبلغ علم هؤلاء أن تسألهن سؤالا بسيطا عن بعض ما يلقينه على مسامعك مثل الببغاء فلا يحرن جوابا . أما التدريس فى تلك المدارس فهو على النظام الذ أخنى عليه الدهر او محفوظ عن ظهر قلب وليس فيه للتعقل أو المحاورة نصيب يذكر ثم أن احداهن لتسمعك تاريخ فرنسا ولا تكان تأخذ نفسها من سرعة الالقاء واذا سالتها عن عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبى أو محمد الفاتح واضرابهما من حماة الاسلام قالت لك لا ادرى .

ومدارس البنات فى مصر كلها خلا مدارس الحكومة الثلاث لا أثر فيها للنظام وليس فيها الا تظاهر بالعلم ورياء وهى فى اعتقادى لا تصلح مطلقا لتربية البنات المصريات لانها فضلا عن قلة بضاعة العلم فيها تجعل تلميذاتها على خلق غير ملائم لنا .

ومما يؤسف له أن القوم عندنا لا يفرقون بين الصالح وغير الصالح فاذا ادخلوا ابنة لهم فى مدرسة للحكومة وأمرتها ناظرة المدرسة أن تلبس جلبابا مغطى الصدر والكمين مثلا أو تخلع حليها وقت الدرس عدوا ذلك اساءة لابنتهم المدللة وقطعوها عن المدرسة كما شاهدت مراراً ٠

نحن المصريين نحب الظهور والفخفخة بغير نظر الى النفس وفضائلها ٠ وهذا نقص فى التربية يجب محاربته وازالته وأكثر الآباء وجميع الأمهات عندنا لا يقدرون من تعلم البنات الا العزف على « البيانو » والرطانة لأنهما ظاهران ٠

وبالجملة أقول أن أحسن مدارس البنات فى مصر هى مدارس الحكومة أخلاقا وعلما على أنها لا تزال تقبل الاصلاح والرقى ٠

ولى كلمة أخرى فى هذا الموضوع تتعلق بالبيت والمدرسة ارجئها لفرصة أخرى ٠

طبيعى اذ تقول ما الفائدة من اقتصادى ؟ أذ أحرم نفسى مما ربما أشتهيه وزوجى ينفق ذلك المتوفر على امرأته الثانية ؟ فخير لى أن أمتع نفسى بمطالبها كمل تفعل ضرتى ٠ أما الأولاد فانهم بدلا من أن يكونوا من امرأة واحدة يولدون من امرأتين (فيتضاعف عددهم ٠ فاذا أخرجنا الأغنياء من حكمنا كانت معيشة الأب المتوسط أو الفقير ضنكاً وعوزاً لأن زماننا هذا غير الزمان الأول ٠ فغلاء المعيشة ونفقة أسرتين وتعليم أولادهما ليس بالأمر السهل) ٠

مفسدة للأخلاق لأن زوج الاضرائر دائما يحتال ليطمع كل واحدة فى حبه وهذا تكفى فيه المداهنة والتطبع ٠ على أن زواج الضرائر فى ذاته طمع وشره ٠

مفسدة للاولاد لأنى رأيت بنفسى أن كل ضرة تطبع كراهيتها لضرتها فى نفوس أولادها . فيشب الطفل وقد اشرب كره اخوته لأبيه وأمهم بلا مسوغ سوى ما زرعته أمه فى عقله من مبادئها . فمهما فعلت امرأة الأب لترضى ابن زوجها ومهما أحسنت معاملته فانه يفتأ يتهمها بكراهتها له وبأن ما تعمله معه من خير ومعروف فانما هو لخوفها من أبيه أو مداراة لما فى قلبها منه ! وانك لترى أبناء الرجل الواحد يغارون ويحسدون بعضهم البعض كما علمتهم امهاتهم وفى كلام العامة وأمثالهم الجارية ما يؤيد صحة هـذا المبدأ .

مفسدة لقلوب النساء لأن الأولى تكرهه بلا شك لاغضابه اياها وجرحه لعواطفها والثانية لا تصافيه مطلقا مادام متعلقـا بغيرها فهو « المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا ابقى » .

ويسرنى أن عادة الجمع بين زوجتين كادت تتقلص الآن من بين الطبقات المتنورة والعالية . لأن التمدين والاستنارة يحرمانها وأن ادعوا ان الشرع يحللها . ولأن العيش أصبح سعيـاً وتناحراً فاذا كان اجدادنا يكفى أحدهم أن يمتلك عشرة افدنة لينـام مستريحا فى بيته ويتزوج اثنتين أو ثلاثة فان رجل اليوم لا يكفيه مائتا فدان مع تعبه واجتهاده للاتفاق على بيت واحد صرف التمدين الحديث محب الظهور .

سـن الـزواج

... بينت فى مقالى الأسبق ما يجب مراعاته فى الخطبة والزواج من حيث اتخاد مشارب الزوجين فى الدين والاخلاق والمعـارف على قدر الامكان ومعـادلة البيئات واليوم أفرد موضوعى هذا لشرط آخر لا يقل عن هذه اهمية وهو السن الملائمة للزواج ·

« الشرق » كما قال لورد كروس فى أحد تقاريره عن مصر « يتم فيه بلوغ كل شيء متقدما » وهذه حقيقة جغرافية لا ريب فيها · اذ بنسبة حرارة البلاد يكون نضج البنات والثمار ونمو الانسان والحيوان · هذا ناموس الطبيعة الثـابت بغير نظر الى تفاوت درجة العلم والعناية وما يتخذ من التدابير لانماء ذلك الشيء أو لتحسين الآخر مما يكون له أثر فى البطء والاسراع · فبلوغ الفتيات فى مصر يكون عادة فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة لجيدات الصحة بعكس فتيات أوربا والبلاد الباردة الأخرى فانهن ربمـا جـزن السادسـة عشرة أو الثامنة عشرة ولم يبلغن . وعليه فلا نقيس سن الزواج عندنا به عندهن لأننا كما نسبقهن فى البلوغ يجب أن نسبقهن أيضا فى الزواج فضلا عن أن فتياتنا أقرب الى السكينة وأبعد عن الطيش من اخواتهن الغربيات · وأنى لا أوافق بعض الأطباء الذى كتب فى الجرائد مرة ينص على أن سن البلوغ يجب

أن يكون هو بعينه سن الزواج · اذ بالله ماذا تفهم فتاة فى الثانية عشرة من معنى الزواج وماذا تعلم من أمور البيت وماذا تعمل لو رزقت بأولاد ؟ انى أكاد أتصورها تموت هى واياهم ان لم يكن فى النفاس ففى التربية . وقد ثبت بالتجربة أن أكثر اللاتى يتزوجن صغيرات جدا يصبن بأمراض الأعصاب (الهستيريا) وهذا هو السر فى وجود (الزار) كثيرا عندنا .

« ان الزواج ليس بالشىء الهين ولا هو بالهزل · تظن الفتيات الصغيرات والراشدات أيضا أن الزواج معناه ضرب الموسيقى ونصب السرادق ليلة العرس ولبس الحرير والماس والمباهاة بالأثاث والأوانى الفضية وغير ذلك من ضروب الفخر الكاذب والطنطنة الفارغة · ليس هذا هو الزواج يا سيدتى الصغيرة بل هو ارضاء الزوج وحسن القيام على ماله وتدبير بيته ومؤاساة أهلى وتربية أولاده ورئاسة خدمة فهل تستطيعين كل ذلك · لا أخالك تستطيعين .

تقص علينا جداتنا وأمهاتنا فى بعض سمرهن أنهن تزوجن ولم تزل عليهن التمائم فكن يهربن فى (الحارة) ويبكين عند الجيران ويأتين من المضحكات ما يبكى فهل نريد أن نرجع القهقرى الى زمن أجدادنا ؟ حرام عليكم أيها الآباء ظلم بناتكم وتكليفهن مالا يطقن ولا يكلف الله نفسا الا وسعها · حرام أيها الآباء الأصغاء الى أمانى النساء الجاهلات وزج بناتكم الصغيرات فى سجون الزوجية الضيقة · حرام والله أن تتزوج البنية اليوم وترجع لبيت أبيها غدا · حرام على الأم أن تقول « أريد أن أفرح ببنتى » فتزوجها طفلة ولا تنتقى لها كفؤا بل تعطيها لأول طالب لها · ولعمرى أن الزواج ليتطلب الرؤية والتأنى والأم ملزمة أكثر من الأب لأنها جربت الزوجية بنفسها وسبرت غور مصاعبها وأتعابها الا أن حب الظهور متأصل فينا لدرجة اننا نرمى بناتنا فى المأزق الحرج

كى يقال عنا عرس فلانه كان فخما وما أبهى العروس وغير ذلك من الترهات ٠

والزوج قد يسر أولا من عروسه الطفلة لكنه لا يلبث أن يستاء وهى مظلومة لا جريرة عليها لأنها بالطبع لا تفهم ولا تستطيع القيام بحاجات منزلها من نظافة وحسن ذوق فى وضع الأشياء فى مواضعها وهى لا تفهم معنى المسئولية لكنها مع الأسف مسئولة عن جميع لوازم البيت من طعام ولباس وغيرهما ٠ وهى تنام مستغرقة من الغروب الى الضحى فاذا بكى وليدها لم تسمعه فيقتله البكاء ان لم تقتله هى بالتقلب عليه فى النوم ٠ والطفل يحتاج لسهر الليل والرضاعة أفتقدر الصغيرة؟ على حمله طول الليل وارضاعه ومعرفة أمراضه وأوجاعه وحسن العناية به ٠ يا قوم هذه احصائيات الصحة ترينا كل يوم بأجلى ما يرى كثرة موت الأطفال فى مصر أو اصابتهم بما يعز شفاؤه نتيجة جهل الأمهات بلا شك والجهل فى الصغر أكثر منه فى الكبر فاذا قرن بما يستلزم الصغر من الضعف وعدم القدرة على تحمل مصاعب التربية كان أدهى ٠

ومن نكد الدنيا على الفتاة قاصرة كانت أو رشيدة أن تتزوج من فتى صغير تابع لابيه وتكتفى من الزوج بأنه ابن فلان الغنى فطالما سمعنا بأن اختلاف الكنات أو سوء سير الفتى أدى الى طرده هو وزوجه من بيت أبيه فماذا يفعل ان لم يكن تعلم علما أو صنعة تساعده على المعيشة ٠ لا جرم ان يذوقا وبالا أو ينتجعا بيت أهلها وتبقى هى وهو وأولادهما عالة عليهم الى أن يشاء الله ٠

ومما يشقى الزوجين أيضا مختصا بالسن أن يتزوج هرم شابت مفارقه بشابة فى مقتبل العمر أو بالعكس فتى بعجوز فان

مشرب الشباب يختلف عن مشرم الهرم فضلا عن أن النسل الناتج من أبوين بعيدى فرجة السن الواحد عن الآخر يأتى فى الغالب ضعيفا أو لا يأتى بناتا · وانك اذا نظرت هرما وشابة أو شابا وعجوزا ممسكا أحدهما بذراع الآخر كما قد ترى الفرنجة فى طريقك أحيانا فانك لأول وهلة تستنكر هذا المنظر وتحكم أن حقا وان كذبا بانها ابنته فى الأول أو أمه فى الثانى وما أمجه النظر فهو ليس طبيعيا · واذا كان الله سبحانه أحكم أمر الملاءمة فى الطبيعة فلم يخلق الجبل الوعر فى السماء الرقيقة الصافية ولم يبرأ النجوم الجميلة المتألفة فى الأرض الخشنة القاتمة فلم نجمع نحن بين الأضداد ونخالف ذوق الطبيعة الصادق ·

الشابة تفكر فى زينتها وحسن هندامها والتأنس بجمال الاجتماع بصديقاتها والهرم يفكر فى علبة السعوط والثريد ودواء السعال فيا

« أيها المنكح الثر يا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان »

كذلك الشاب لا يلذ سمعه المشينات الكثيرة والياآت فى موضع السين وآلراء ولا يحب زيادة مصروفاته فى تركيب الأسنان المستعارة وصبغ الشعر وطلاء الوجه وغيره من لوازم سيداتنا أو (أمنا العجوز) كما كنا نقول فى قصص الطفولة · أحب فتى مرة امرأة أعجبه شكلها فخطبها الى نفسها فقالت له أنت فتى وأنا عجوز لا أصلح لك فلم يقبل قولها وظنها مازحة وألح عليها فى قبوله بعلا فلم تر بدأ من اجابته الى طلبه فلما دخل عليها ليلة العرس جلس يكلمها واذا بها خلعت أسنانها ووضعتها على منضدة أمامها فهلع قلبه الا أنه بقى صامتا ينظر اليها ريثما تتم عملها ثم خلعت احدى عينيها وكانت صناعية من الزجاج ثم جردت رأسها من شعرها المستعار فظهر أصلع مخيفا وبينما هى

تنزع القطن من صدرها هرول الشاب نحو الباب مسرعا فيادته
لماذا تهرب وقد كنت تدعى أنى فتنتك بجمالى فأجابها يا سيدتى
نعم اهرب ويحق لى لأنى رأيت أغلب اعضائك من الدكـان وأخاف
أن تكون حواسك كذلك أيضا » فهل يغبط الرجل على زوجة مثل
هذه واذا لم يغبط فلماذا تكره الشابة على تزواج الهرم · اللهم
انت خالق الخلق ومجدد الأعمار . تزعم الجاهلات أن زواج الهرم
دلال فى حياته وغنى بعد موته فهل ضمنت المرأة الطماعة أن
المنية ستعدو عليه أول · وهل تطيب الحياة الزوجية اذا كان الواحد
يترقب الموت لرفيقه . وهل تصح معاشرة هذه التى تعد موت القرين
ربحـا · ان هذا الا ضلال كبير ·

فعلى ملاءمة سن الزوجين يتوقف شيء كثير من الوفاق والمحبة
والواجب أن لا تتزوج الفتاة الا متى صارت أهلا للزواج كفؤا لتحمل
مصاعبـه ولا يكون ذلك قبل السادسة عشرة · وتزويج الصغار
لعب فيه شقاء للأمة من عدة وجوه . عناء فى الزوجية نتيجته
دائما الشقاق أو الانفصال · كثرة وفيات الأطفال · ضعف النسل ·
اصابة النساء بالأمراض العصبية والأمراض النسائية الأخرى ·

وزواج مختلفى السن أضعاف للنسل وشقاء للزوجين وقلب
لنظام الطبيعة الدقيق ·

فمتى يلتفت لهذا الآباء والأمهات ومتى تنقشع سحابة هذا
الشقاء عن سماء بيوتنا ومتى ننظر للزواج بعين الجد والاهتمام ·
اللهم أرنى ذلك اليوم فهو أمنيـة النفس وسبيل سـعادة الأمة
وترقيها ·

والسيدات يملن دائما لفتح مثل هذا الحديث الفارغ وليس
عندهن أرقى منه طبعـا فتجتهد كل واحدة فى اظهار المساوى التى
تسمع بها أو تخترعها عن زوج صديقتها وتظن ذلك خدمة لها لأنها

توقفها على مبلغ اخلاص زوجها لها فاذا فرض وكانت هذه المساوىء حقيقية فان تلك الصديقة الجاهلة تضر صديقتها من حيث تريد لها النفع وتسبب شقاء أسرة بأكملها واذا كانت اختراعا وافتراء على رجل برىء فما كان أجدر هذه الصديقة بضبط لسانها وهو لا يكلفها أكثر من أطباق فكيها .

وقد شوهد كثيرا ان اختلافات وخصومات جناها أرباب الأسر التفقة المتحابة من أمثال هؤلاء الواشيات فاذا علم الزوج أن امرأة صاحبه أو أمه أو قريبته هى التى غيرت عليه زوجته واكفهر من غير حديثها جو سعادته ووفاقه لا يسعه وهو مصيب الا أن يامر ذلك الصاحب بحجز تلك المنتمية اليه عن الايقاع به وعن الدخول الى منزله فتؤلم هذه الاهانة صاحبه وتوجعه وربما بتت بينهما حبل الوداد ٠

الثقة ما أجلاها بين الزوجين حتى وان كانت على غير أساس لأن الزوجة اذا تحققت انحراف زوجها عن الصراط السوى فلتنبهه أولا باللطف والحاسنة فاذا لم تفلح ملاينتها فماذا تعمل ٠ اما أن تبقى معه ان كانت ترجو عيشه وتؤمل تحسنه واما أن تنفصل عنه وهذه احدى الكبر . فاذا فضلت معاشرته بسبب حبها له أو لارتباطها بأولاد أو لانقطاعها من الأهل والاخوة فأولى لها وقد تحتم عيشها معه أن تفرض انه مخلص لها وانه لا يتغيب الا لاشغال نافعة لمستقبلها ومستقبل أولادها وأنا على يقين أن هذا الفرض دتيسر وسهل جدا لمن تبغيه وجالب لطمأنينة وهدو بال لا يفرقان كثيرا عن مثلهما الصحيحين ٠

مبــادىء النســاء

بغض أقارب الزوج أو الاثرة

مما يطرب له النساء أن يكون أزواجهن لا أهل لهم • فترى الخاطبة أول ما تذكر حسنة للشاب الراغب فى الزواج سيان صدقت أو كذبت انه لا أهل له وتبالغ بقولها « انـه مقـطوع من شجرة » • معاذ الله أيجب أن تفنى أسرة بأكملها ليتزوج منها فرد • والانسان مدنى بالطبع فالاجتماع بالغير لا مندوحة عنه والاحتياج للمخالطة ضربة لازب . والمراة تميل للاستئناس كما يميل الرجـل وتعتز بالأهل كما يعتز هو وتدرك معنى القرابة والصلة • اذن فمادا يجعل المرأة تحترم هذا المبدأ فتاة وتتجاهله زوجة أو لماذا هى تحب اقارب نفسها وتبغض اقارب الزوج وتحمله أيضـاً عـلى مجاراتها • ان هى الا الاثرة أو التنازع على السلطة • الزوجة تريد ان تكون حاكمة بأمرها مطلقة التصرف فى شيئين عزيزين عليها : قلب الرجل والبيت . فاذا كانت وحدها لا يعيش معها من أهـل زوجها أحد ظنت أنها نالتهما اما اذا عاشرتهـا حمـاة أو أخت لزوجها أو ابنة له من غيرها فهناك تنازع البقاء والبغض الذى

لا نهاية له . كل تريد أن تستأثر بالسلطة على المملكتين وتجتهد في الفوز بقلب الرجل أولا فاذا ما وفقت له نالت الأخرى بغير كبير عناء . ولا تخلو احدى المتنازعتين من خطأ وصواب اذ لا يمكن ان تكون الواحدة على خطأ محض والأخرى على صواب صراح . ولو علمتا لرضيت كل منهما بقسمها من حب الرجل فالحب البنوى غير الحب الزوجى . واذا ابتغت امرأة أن تغير على الاثنين كانت مخطئة وتعدت ما وراء حدها .

اذا أرادت الزوجة أن لا يحب زوجها أمه ولا يحترمها ولا يتكفل بلوازمها وهى محتاجة اليه فقد أثمت . وكذلك أمه اذا حسدت زوجة ابنها على ابتسامة القاها عليها زوجها أو تغشمرت وأرادت أن تجعلها كالصنم لا رأى لها بينهما فهى أيضا قد تناهت فى الظلم والقسوة .

نساء اليوم غير نساء الأمس وأذواقهن تختلف باختلاف الزمن ولكن اذا تحتم أن تعيش فتاة الجيل الجديد مع حماتها ذات الفكر القديم فما العمل ؟ المخاصمة والمعاندة لا تجديان نفعا فضلا عن انهما من صفات الطبقة الدنيا . اما النساء المهذبات فلا يبعد ان تختلفن فى الرأى ولكنهن يصرفن الخلاف حالا ولم تسمع واحدة من الأخرى ما يغيرها عليها .

التساهل أول ما تجب مراعاته فى الأسرة واللطف أجمل صفات المرأة . ترى الزوجة وضع هذا الشىء على اليمين وترى حماتها وضعه على الشمال فلتتساهل الزوجة فانها أصغر سنا ولتبين آراءها فيما تختار بلطف وتواضع واللين كفيل بتسوية الخلاف . أما اذا تشبثت وأظهرت كبرياء المتمدنات وأصغرت حنكة حماتها وتجاربها بجانب تمدينا الحديث فربما وصل الأمر الى أوخم العواقب . وأصعب قضية يحكم فيها الرجل هى التى بين أمه

وزوجه لانه اذا ارضى أحد الخصمين أغضب الآخر وأمامه أم واحدة
اما النساء فغير زوجته كثيرات فتدور الدائرة فى الغالب على
الزوجة ولو كان رأيها صوابا .

الزوجة التى اول ما تدخل البيت تفرق بين أعضائه المتحابين
المرتبطين بصلة الأمومة والأخوة شيطان رجيم · يجب عليها أن
تتذكر أنها لم تأت الا من قريب أما هؤلاء الذين معه فمنهم من ربته
وتعبت فيه الى أن صيرته رجلا ومنهم من يفضله على نفسه
ويفديه بما يعز واحدث واحد فيهم أقدم منها حبا له وارتباطا
به · والغريب أن كل امرأة من هؤلاء العجائز كانت تكره حماتها
وتريد أن تحبها امرأة ابنها ولكن الجزاء الحق من جنس العمل ·

واذا سألت الاولاد وجدت أغلبهم يحبون أبنـاء أخوالهم
أشد مما يحبون اولاد عمهم وهذا ناشىء ولا شك عن حب أمهم
لاقاربها وبغضها لأقارب زوجها على أنهم بعيدون عنها ولا ينازعونها
السلطة التى تخاف عليها ولكن كره واحدة سرى فى جميع من
ينتمون اليها فالزوجة تكرههم بحق أو بغير حق · فضلا عن ان
اهل الزوج يحبون الرقابة على امرأة قريبهم وقد ذكرنا انها عدوة
الرقابة والتقييد ومبادئها استقلالية مطلقة . على انى لا أفهم كيف
تزعم المرأة انها تحب زوجها ثم هى تبغض أقاربه · ان هذا تناقض
غريب · فاذا كان ادعاؤها هذا حقيقة وجب أن تحبهم وتحتمل من
اجله كل صعب مهما كلفها ذلك الاحتمال ·

تنازع الرئاسة على البيت أحد سببى البغض والسبب الآخر
تنازع الرئاسة أيضا ولكن على قلب الرجل . ألا فلتطب نفسا كل
امرأة غيور فان حب الزوجة المكتسب الظاهر غير حب الأهـل
الغريزى الدفين · كل له صفة خاصة به تجعله لا يقل أهمية عن

الآخر وهما مختلفان لا تدل كثرة أحدهما على قلة الآخر فهما منفصلان تمام الانفصال .

فالزوجات المتمدينات يجب ان يخفضن قليلا من غلوائهن ولا يبخلن على الحاكمة القديمة فى البيت بشىء من السلطة لأن من تعود الحكم يصعب عليه أن ينزع منه وامهات الأزواج أولى لهن أن لا يتشبثن كثيرا بآرائهن العتيقة فكل زمن يقتضى اصلاحا مغايرا لما قبله والصلاة والصيام خير لهم من القاء مسئولية البيت وتربية الأولاد على عواتقهن لانهما مربحان فى الدنيا مكسبان اجــرا فى الآخرة والســلام .

مبــادىء النســاء

المبــارة والاسراف

يمتاز الجيل السابق على اخيه الحالى بقلة اللزوميات ورخص اسباب المعيشة كذلك له ميزة أخرى لا أعرف ألاحظها الجمهور أم أم يلاحظها وهى لزوم كل طبقة من الناس حدها من جهــة الغنى والفقر نلم يكن الفقير ليستنكف من خصاصته ولم يكن المتوســط يقلد الأوسع رزقا والأعظم جاها كما نفعل نحن الآن ولعــل السبب الأصلى فى ذلك هو نقص الحــرية من أخــلاقهم وتأثير شــدة الضغط عليهم ٠

نفقــات الأسرة اليوم كثيرة فى ذاتهــا لتعــدد الحــاجات وغلائها كثيرة جداً لأننا نتأنق فى الكماليات الزائدة ونحكى الغير فيها ممن هم أوسع ثروة وأفخم مظهرا ولا مبرر لنا فى ذلك الا الحرية الشخصية وحب التقليد ٠ أما الحــرية فنعمة من الله ورحمة واما التقليد الى هذه الدرجة درجة التلف فليس من العقــل فى شىء اللهم الا اذا ابتغينا به تأييد مذهب دارون فى النشوء والارتقاء ولا أخالنا نبغى التسجيل على أنفسنا بأننا وحدنا من سلالة القرود ٠

اذا استثنينا الطبقة السفلى من النساء فاننا نكاد نرى الباقى من الوسط والمثريات شبيهات فى الملبس والزينة تضارع الواحدة الأخرى فى عدد الخدم وكمية الأثاث ونوعه فهل يمكن أن نكون كلنا فى درجة متساوية من الغنى · هذا يستحيل · واذا لم نكن متساويات فى ماليتنا فمن أين نسد هذا العجز فى النفقة عن الايراد . جواب صغير مفهوم . من الرجل ابا وزوجا .

اذا تزوجت الواحدة منا كلفت أباها ما لا طـاقة له بـه كى لا ينقص جهازها عن فلانة جارتها أو قريبتها فاذا قدر فنعم القادر لا انتقاد عليه ولكن اذا عجز فمن خرق الرأى أن يستدين ليكسب فخرا كاذبا أطول مدته يومان · واذا تزوجت لم تشأ أن ترى صاحبتها تشترى عشرة أثواب وهى لا تشترى الا أربعـة مثلا وكيف تجد عند جارتها خمس خادمات فيهن الأوربيـات وليس فى بيتها الا واحدة مصرية وهى تكفيه · فهى دائما تزن نفسـها بميزان الغير لا تفتأ تقلده مهما فعل فاذا لم يكن لها ميراث رفيـع خاص بها يصرف فى مآربها فان هذا يخملـه الزوج المسـكين ولا راحم لـه . يصرف دخـله كلـه وفى الغـالب لا يكـون له الا جعالته الشهرية دخلا ويحمد الله اذا لم يستدن على حساب الشهر التالى فاذا فصل من الوظيفة أو لحقـه ما يستلزم النفقة كالهرم أو المرض لم يجد شيئا يعتمد عليه الا رحمة رب العالمين ·

علة المباراة الحقيقية هى الحسد يأكل القلب ويـكثر الهم فلا تطيق صاحبته أن ترى أجمل منها هيئة أو أغنى مظهر وتهتم فى أن تكون هى المشار اليها بالبنان فى المجالس ويسكرهـا الطرب اذا ذكر غناها واقتدارها على اقتناء العربات الجميلة والخـدم الكثير وبعضهن تبيع حليها أو شيئا من أملاكها لتشترى سيارة (أوتوموبيلا) أو لتسافر الى أوربا ·

زهرة الحزن والشقاء

(مى زيادة)

١٨٨٩ ـ ١٩٤١

هل لأحد ان يصدق أن مى زيادة التى تحدثت الدنيا عن أخبارها ، ومجدها وأدبها وندواتها وصالوناتها الشهيرة ومحبيها ، ومعجبيها ، وشبابها ، ورومانسيتها ، كل ذلك لم يكن الا جانبا مضيئا فى أسطورة مأسارية وحزينة شأنها فى ذلك شان كل الأساطير ، بل أن الجانب الثانى ، وهو جانب الحزن والشقاء والوحدة ، كان مع الأسف الجانب الغالب ٠

لم تكن مى زيادة مصرية الأصل أو الميلاد ولكنها كانت مصرية المقام والابداع والشهرة ، ثم الموت والثرى الذى احتواها ٠ لهذا وضعت مى كواحدة من أديبات مصر الراحلات اللاتى أسهمن بابداعهن ونضالهن فى الحياة الثقافية والاجتماعية المصرية ٠

ومى زيادة ، أو مارى الياس زخوره زيادة هى ابنة لأسرة لبنانية ولدت فى مدينة الناصرة الفلسطينية ١١ فبراير ١٨٨٩ ثم انتقلت مع والديها الى لبنان وتعلمت فى مدرسة للراهبات ، وأخذ صيتها فى الذيوع كأديبة بازغ نجمها ٠

وابان الحرب العالمية الأولى انتقل والداها الى القاهرة وانتقلت الى والدها الياس زيادة فى الوقت نفسه

ملكية جريدة المحروسة بعد أن كانت ملكا لادريس راغب تسنون فرصة لمى أن تنشر آراءها وابداعاتها من خلال هذه الجريدة ، وهو ما جعلها تتجه الى دراسة آداب اللغة العربية والتاريخ كما كتبت فى صحف أخرى مثل الهلال والمقتطف والزهور .

لقد كان انتقال مى زيادة الى القاهرة بمثابة ميلاد جديد لها . فغيرت اسمها من مارى الياس زيادة واختارت اسما عربيا هو مى زيادة ، ونشرت أول كتاب لها « أزاهير حلم » وكان باللغة الفرنسية وقد أصدرته بامضاء مستعار فقد كان عيبا ان يذكر اسم المرأة فما بال أن توقع به فى الصحف لذلك استخدمت عدة أسماء مستعارة أخرى مثل « ايزيس كوبيا » سنة ١٩١١ وشجية ، وكنار والسندبادة البحرية الأولى ومودمازيل صهباء ، وخالد رافت ، والآنسة مى وهو الاسم الذى اشتهرت به بقية حياتها وقد فسر البعض استخدامها لاسماء مستعارة تهيبها من الحياة العامة فى البداية .

توالى الابداع الأدبى لمى زيادة لتقدم فى سنة ١٩١٢ أول مؤلفاتها « رجوع الموجة » ثم « الحب فى العذاب » . وفى السنوات التالية تكتب « ابتسامات ودموع » و « كلمات واشارات » و « غاية الحياة » ، و « باحثة البادية » و « ظلمات وأشعة » وغيرها من المؤلفات التى انتهت بكتاب لم ينشر بعنوان « ليالى العصفورية » . هذا بالاضافة الى باب ثابت كانت تحرره فى جريدة المحروسة تحت عنوان « يوميات فتاة » وهكذا نرى أن مى زيادة ملأت الحياة الثقافية فى عصرها بالانتاج الأدبى الغزير والمقالات والمشاركة بالخطب فى مناسبات عديدة .

لكن على الرغم من كل ذلك انحصرت شهرة مى زيادة فى صالونها الأدبى الذى يعد الى اليوم أشهر

صالون ادبى شهدته مصر بعد صالون العقاد ، وقد يرجع ذلك الى ثقل الأسماء التى كانت تتردد عليه مثل د٠ طه حسين ، ومحمود عباس العقاد ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، ومصطفى صادق الرافعى ، واحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ، وداود بركات وشبلى شميل ، وامير الشعراء أحمد شوقى وغيرهم ، وكل اسم بذاته كان يكفى لأن يحقق لها الشهرة اذا ما شارك فى الصالون فما بال كل هؤلاء العمالقة فى صالون واحد ؟ وقد ظل هذا الصالون يعقد يوم الثلاثاء من كل اسبوع فى منزل كانت تسكنه فى شارع عدلى يوجد مكانه الآن محطة بنزين ، وفى سنة ٢١ انتقلت الى بيت آخر ، وكانت مى رغم كل هذه الكواكب هى النجمة التى يتطلع اليها الجميع ٠

واذا أردنا تخيل صورة لمى فقد وصفها كامل الشناوى قائلا لم تكن قصيرة ولم تكن طويلة كان قوامها نحيلا يريد أن يمتلىء سمينا يريد أن ينحل ٠

وقد كتب عنها الأديب نقولا يوسف بعد عشرين عاما من وفاتها يصفها قائلا :

« كانت مى كما عرفناها فى رونق الشباب والمجد ، آنسة انيقة فى الملبس ساحرة الأنوثة خفيفة الروح غضة بضة شرقية السمات سوداء العينين والشعر ترسل شعرها الفاحم الناعم على ظهرها ، ثم قصته على أسلوب عصرى ٠ يشع من عينيها ذكاء نادر وحزن مكبوت » ٠

ويضيف نقولا يوسف قائلا : « وأما ابتسامتها فتنفذ الى القلوب ، وحديثها المقرون بصوت حار رخيم كانت ترسله فى أدب رلياقة ومجاملة فيظن محدثها أنه هو وحده من استأثر بقلبها ! »

ولعل هذا الوصف الرقيق لشخصية مـى ينسر لنا بالتالى تلك الرومانسية الحالمة التى ظهرت فى كتاباتها ، ثم هذه النظرة الفلسفية اللانهائية التى تجعلها تغوص فى بحور الكلمات والمعانى ، وتلك الحساسية المفرطة التى تطل علينا بين سطورها .

ان كتابات مى وشخصيتها لا فاصل بينهمـا ، فكل منهمـا امتزجت بالأخرى وانصهرتا فلم يكن هناك أى تناقض بين مـى الانسانة ومـى الكاتبة .

ولعل تلك الرومانسية المفرطة كانت وراء مأساتها فهـى نفسها تقول .. « ما اتعس القلوب الشديدة التأثر .. يمـر النسيم العليل على الازهار النضرة فتتشقق بوطئة جلابيبها .. وتنثر وريقاتها .. كذلك تكفى ملامسـة الآلم النفس المنفردة ليثير منها الاشجان ويستقطر من محاجرها العبرات » .

ولكن على الرغم من هذه الرومانسية وتلك الرقة ، فان مى زيادة كانت احدى المناضلات من أجل حرية المـرأة وتعليمهـا ومساواتها بالرجل فى عصر كان تعليم المرأة فيه يعد معيبة ! كما انها كانت تدخل فى مناقشات فكرية وقضايا أدبيـة تناطح فيهـا كبار مفكرى عصرها . ولعل هذا ما جعلها أعجوبة عصرها ! اذ كيف يتأتى لفتاة رقيقة فى فى عصر الحريم أن تكون مفكرة وكاتبة وفليسوفة ؟

لهذا قال عنها د. طـه حسين .. « أن الأدب العربى قد انتفع كثيراً بحياة مى » ! وقال سلامة موسى : « فى مى كل شىء كبير جداً من عمق الاحساس وبساطته ، فهى تفهم بنبوغها عقليـة الرجال كما تفهم بطبيعتها عقلية النسـاء » .

ولعل هذا النبوغ الذى تحدث عنه سلامة موسى كان سر كل هؤلاء الذين أحبوا مـــى والتفوا حولها بل وجاهروا بحبهم لها ، وكان منهم الشاعر اسماعيل صبرى والعقاد ولطفى السيد ومصطفى عبد الرازق وولى الدين يكن ومصطفى صادق الرافعى

فعن مى قال اسماعيل صبرى :

روحى على بعض دور الحى حائمـــة
تطامىء الطير تـسواق الى المـــــاء
ان لم امتـــع بمـــى ناظرى غــــدا
انكرت صبحك يا يوم الثلاثـــــاء

وكتب فيها ولى الدين يكن يقول :

كل شىء يامـــى عنـــدك غــــال
غير انى وحدى لديــك رخيـــص
تمســـين ناسية .. وامسى ذاكـــرا
عجبا .. اشاعرة .. تهاجر شاعـــرا

ومن المؤكد أن كثيرين غيرهم احبوا مـــى ، الا انه مــــن المؤكد أيضا أن حبا واحدا قد تغلغل فى وجدانها وتملكها ، وقيدها باغلاله حتى كانت نهايتها ، هذا الحب هو حبها للشاعر جبران خليل جبران . وجبران كان يطلق عليه عميد ادبـــاء المهجـــر واكثرهم تأثيرا · فقد ولد فى لبنان ثم هاجر الى أمريكا وانتخب سنة ٢٠ عميدا للرابطة العلمية لأدباء المهجر وهو من أرق شعراء العرب فى العصر الحديث ·

اما علاقته بمى فهى علاقة تشبه رومانســية مى · فهى لم تتعد الحبر والورق اللذين يحملان مشــاعر حارة وآمال وآلام

كل منها تجاه الآخر . وكان من الطبيعى فى ذلك الزمان أن البريد يكون هو وسيلة الاتصال الوحيدة ، وأن يكون هو وسيلتها للتعبير ، ففى سنة ١٩١٣ ، حين أصدر كتابه « الأجنحة المتكسرة ، كتبت اليه « مى » خطابا ناقدة فيه هذا العمل تقول « اننا لا نتفق فى موضوع الزواج يا جبران ، أنا أحترم أفكارك وأجل مبادئك لأننى أعرفك صادقا فى تعزيزها مخلصا فى الدفاع عنها وكلها ترمى الى مقاصد شريفة » .

فأنت تقول : « لم لا تستطع المرأة الاجتماع بحبيبها على غير علم زوجها ؟ » وأنا أقول — أى مى — لا يمكنها لأنها باجتماعها هذا السرى مهما كان طاهرا فانها تخون زوجها وتخون الاسم الذى قبلته بملء ارادتها » .

وتكتب له مى أيضا فى نفس الخطاب عند الزواج وتقول « تعد المرأة بالأمانة ، والأمانة المعنوية تضاهى الأمانة الجسدية » .

هذه النظرة القدسية للزواج كما تراها مى هى بالطبع نظرة أية فتاة شرقية ، ولكن تربيتها فى مدرسة للراهبات جعلها تختلف كثيرا عن أى فتاة أخرى ، ففى الوقت الذى تطالب فيه بالتحرر والمساواة فهى تتمسك بالقيم والمبادىء الشريفة لأى سيدة شرقية ، وقد اختلفت بذلك عن جبران الذى يقول فى احد أعماله : ان الزواج عبودية الانسان لقوة الاستمرار ، فان شئت أن تتحرر طلق امرأتك وعش مثاليا .

على أن هذا الحوار على الورق لم يلبث أن تحول الى وله ، فقد كتبت له من تقول :

عزيزى جبران

« لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من أنت .. وأين أنت ؟ وكثيرا ما أنسى أن هناك شخصا .. أن هناك رجلا أخاطبه ! فأكلمك

غالبا كما اكلم نفسى ! واحيانا كأنك رفيقة فى المدرسة ! انما كان يطفر على تلك الحالة المعنوية احترام خاص ، لا يوجد عـادة بين فتاة وفتاة ! أهى المسافة وعدم التعـارف الشخصى والبحـار المنبسطة بيننا هى التى كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثـوب الخيال ؟ قد يكون ! غير أن مكانتك فى اعتبارى وتقديرى كانت مصدر هذه الثقة التى ظهرت منذ نشأتها كأنها فطرية بديهية » .

وكتب جبران لمى يقول :

« انا بحاجة موجعة الى من يأخذ عنى ويخفف عنى .. انا بحاجة الى وسادة معنوية .. الى يد تتناولنى مما ازدحم فى نفسى الى ريح شديدة تسقط ثمارى وأوراقى » .

وكتب لها أيضا :

« اتعلمين يا مـى اننى فى كل صباح ومسـاء أرى ذاتى فى منزل فى ضواحى القاهرة وأراك جالسـة أمامى ؟ » .

وكتبت مـى لـه قائلـة :

« كيف أجسر على الافضاء بهذا اليك ؟ لو كنت الآن حاضرا بالجسد لهربت انا خجلا من هذا الكلام » ! .

وكتبت تقول لـه :

« جبران أرجو أن تساعدنى وتحمينى وتبعد الأذى عنى ، ليس بالروح فقط بل بالجسد أيضا . أنت القريب الذى كنت لى - وعلى الرغم منك - أبا .. وأخا .. ورفيقا وصديقا ، وكنت أنا لك أما وأختا ورفيقا .. وصديقا .. أنا وأنت سجينتان من سجناء الحياة .

وكتبت تقول لـــه :

ما أحلى اللقاء بعد الفراق يا جبران ما أحلاه على القرطاس خلال الألفاظ المتقطعة ! ·

وتقـــول :

تعال يا جبران ! تعال وزرنا فى القاهرة ! فلماذا لا تأتى وأنت فى هذه البلاد التى تناديك ؟ تعال فأشعة القمر تنير الرمال حول أبى الهول وتمرح فى موج النيل .

ولكن جبران لم يأت أبدا ولم يستجب لندائها ، لكنه استجاب لنهايته المحتومة !

لقـد كان عـاما ٣٠ و ٣١ همـا بدايـة النهـاية لهـذه الزهرة الحزينــة ـ مى زيـادة · فقـد توفى والدهـا فى سـنة ١٩٣٠ . وتبعته والدتها « نزهة معمر » وأصبحت مى وحيـدة يتيمة · ثم ازدادت وحشتها ووحدتها ١٩٣١ بفقد جبران خليل جبران الحبيب الذى لم تره ولم تقابله !

فكتبت لابن عمها دكتور جوزيف رسالة تقول فيها « هنـاك امر يمزق أحشائى ويميتنى فى كل يوم وفى كل دقيقة ، لقد تراكمت على المصائب فى السنوات الأخيرة وانقضت على وحدتى الرهيبة التى هى معنوية أكثر منها جسدية ، فجعلتنى أتساءل : كيف يمكن لعقلى أن يقاوم عذابا كهذا ؟ ينبغى خلق تعبير جـديد لتفســير ما أحس به ! » ·

انه الاكتئاب هو الذى أصابهـا وجعلها وحيدة منعـزلة ، حتى حين ســافرت فرنســا عادت لتـجد شـوقى وحـافظ قد توفيا ! وقد سافرت الى ايطاليا فى محاولة للتمسك بالحياة ، ولكنها

عادت وحالتها كثر سوءا . فهي لا تستقبل احدا ولا تكلم احد ولا حتى تفض رسائل اصدقائها ومحبيها . بل تعيدها مغلقة لتتمكن منها الوحدة والوحشة والاكتئاب !

ياتي من عائلتهـــا في لبنــان من يســتدرجها ويصحبهــا الى هناك تحت حجة رعايتها ، ولكن هذه الرعاية لم تكن الا دفنها حيه . واتهامها بالجنون . وايداعها مستشفى العصفورية ، وهي المستشفى الوحيد ــ في لبنان في ذلك الوقت للأمراض النفسية والعقلية !

وحرصت مي فلم ينجح اي احد من معــارفها او أصدقائها مصريين او لبنانيين في رؤيتها وكان احتجاجها الوحيد لاثبات صحة عقلها أن تحاول الانتحار خنقا لكنهــا فشــلت . ولم ينقــذ مي من جدران هذا السجن غير حملة صحفية في لبنان ومصر تحتج على بقائهــا في هــذا المستشفى وتطلب رد الاعتبــــار لهــا بعد فشل الكثيرين في لقائها . وتنجح الحملة ، وتخرج مي لتتحدى من رادوها وتلقى محاضرة في الجامعة الأمريكية في بيروت لتثبت انها مازالت مي زيادة صاحبة الفكر وكان عنوان المحاضرة « رسالة الأديب الى الحياة العربية » وكان استقبالها حافلا ونجاح المحاضرة باهرا .

وتعود مي الى القاهرة . لكنها لم تعــد « مي » الأولى بل مي الممزقة مشروخة النفس وحيدة ومحطمة .. فتعود لعزلتها . ويزيد من وحدتها ظروف الحــرب العالميــة الثانيــة فيعــاودها الاكتئــاب الــذي بلغ ذروتــه في ١٩ أكتوبر ســنة ١٩٤١ وتمتنع عن الطعام تمــاما ، وتفــارق الحياة في ٢٠ اكتوبر في مصحة بالمعادي وتدفن في ثرى القاهرة كما أوصت ، ولا يشيع جثمانها غير ثلاثة من أصدقائها هم مجد الدين حفني ناصف وسلامة موسى وأنطوان الجميل رئيس تحرير الأهرام ، وترحل عن الدنيــا مخلفــة

ورائها الكثير من التساؤلات والقصص والحكايات حول الآنسة التى كانت أعجوبة زمانها وازمنة غيرها ، وتترك أيضا ١٢ كتابا ودراسة . ومئات من الرسائل لرموز عصر رلى ، ولن يجود الزمان بمثله !

هذه كانت مى زيادة . وهذه كانت آخر كلماتها :

« أتمنى أن يأتى بعد موتى من ينصفنى ويستخرج من كتاباتى الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الاخلاص والصدق والحمية والتحمس لكل شىء حسن وصالح وجميل » .

لذلك آمل أن أكون قد ساهمت فى انصافها بهذا العرض ، وأن يستخلص القارىء من كتاباتها التى سنعرض جزءا منها ، وهو من كتاب « ظلمات وأشعة » ، كل ما هو جميل .

بين عامين

بين شطى الماضى والمستقبل يجرى نهر الحياة ثولا بعقيدة الفخم ، ليصب فى بحر الابدية حيث لا جديد ولا قديم ، وخيالات البشر تتهادى بين جماجم الموت وأغراس الحياة مخفية طى صاوعها كثيرا من الآمال وكثيرا من الكلوم ٠

فالى بحر الابدية ، أيها العام الراحل !

وأنت أيها العام الجديد ، الينا !

***

وطئت الأرض طفلا جميلا ، فنبهت فى قلوب الشيوخ الحنان وكنت صلة حب بين أرواح الخلصان ٠

امتزجت نسيماتك بدقائق الأثير فأصبح مغردا لامعا ، وامتشقت حسام الصبح ضاربا أعناق جيوش الظلام فسالت منها الدماء فى المشرق وملأت كتائب النور الأرض والسماء عامين ٠

وداست أعقابك على هام الأيام فأفنت قديمها وغدا اليأس أملا والنواح تهاملا ٠

هي الانسانية طفلة في هرمها كلما ذاقت عذابا رجت حظا ، ولئن مزقت أحشـــاءها الضغائن والأحقاد فموجات الحب العظيم ما برحت غامرة فؤادهـا ٠

فاسمع هتـافها متخللا اصوات الصـباح : رحماك ، أيها العام ، رحماك !

لقد كتبت اسمك يد الزمان على باب الوجود ، فســـاعدنا لننقش أسماءنا على باب السعادة !

كنا بالأمس نامس الأوتار فتسـيل عليها الدموع مرخيـة قواها ، فما تسمعنا سوى شكوى المذلة وأنين العبودية ٠ أما اليوم فنريد أن ننعش أرواح العيدان لنوقع أسمى المبادىء على أعذب الألحان ٠

رحماك أيها العام الجديد ، الانسانية تتألم فارفق بها !

***

رحماك ، أيها الطفل الحبيب !

تعال نعطيك القبلات السنوية الثـلاث : فعلى جبهتك قبلة الرجاء ، وعلى ابتسامتك قبلة الوداد ؛ وعلى يديك قبلة الالتماس والتوسل ٠

جبهتك مستودع الأفكار ، وابتسامتك عبير الأزهار ، ويداك رمز القوة المنتقلة أبدية من أدهار الى أدهار ٠

هذه أمانينا نلقي بهـا عند قدميك فلا تدسها فتلاشينا بل ضمها اليـك فتحيينا ٠

(١٩١٣)

نشيد نهر الصــفا

عين زحلتنا قرية لطيفة يعرفها الذين اعتادوا الاصطياف في جبال لبنان ، والطف من القرية نفسها غابات الصنوبر التي تحيط بها ، وأجمل من هذه وتلك منظـر نهر الصـفا المتدفق عند قدم الجبل ، وعلى بعد أمتار قليلة منه يركض نهر القاعـة ٠

كل من النهرين يسرد حكايتـه الأبدية على الأشجار المصغية اليهما بحللها السندسية ٠ ويظل النهران في اندفاع وشكوى ، وروح الوادي تئن في أثرهما الى أن تلثم مياههما مياه البحر العظيم ٠

هنا سالت صور الكون الهيولية وذابت ذرات الأثير ٠

هنـا اجتمعت بلابل ارفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات القلب الكسير ٠

هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية ، وتحولت الورود الى أشعة سحرية ٠

هنا اغتسل قوس قزح ، فترك فى الماء من ألوانه ألحان فضية ·

ومن دماء الأحلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمدية ·

هنا بعث الأفق بأسراره الى الأرض مع خيوط من الأثير ذهبية ·

هنا نامت الأشباح بين أجفان بنات المياه ، فامتزج النور بالظلام وتلاشت اليقظة بالمنام ·

هنا ناحت حمائم الشعر وغنت أطيار الأنغام ·

هنا لثمات النسيم شوق وهيام ·

ومداعبة الموجة للموجة تبادل نظرة وابتسام ،

وجمود الشاطىء حقد على فتور الليالى ومعاكسات الأيام ·

هنا ارتعاش الأوراق على الغصون تحية همت من مقل الكواكب وسلام ·

وتمايل الأفنان ودلالها نجوى ملك الوحى والالهام ·

هنا ليلة بأنوار وفجر ظلام وألغاز ملامس وألوان وأنغام ·

حينما يمر الفجر على قمم الجبال يرى صورته فى هذه المرآة البلورية ـ يرى رمز الشبيبة مع ما يتبعها من الآمال النضرة

كالازهار ، والأميال المتنقلة كالاطيار · ثم يأتي الغروب ساكبا في أعماقها مرارة أحزانه مع ما يرافقهـــا من النظرات المتحولة ، والابتســامات المتغيبة ، والجباه الكئيبــة ، والشفاه المتحركة بالصلوات ، الساكنة بالتأملات ·

هنا عيدان الأشجان تبكي ، تبكي بقلب جريح · وفي كل لحظـة يخيــل انها تسلم نفسها الأخير بشهيق فيه من اللوعـة والكتمان والتجلد بقدر ما فيه من المجد والعظمة ، من البســالة وعزة النفس الأبيــة ·

لكن المياه لا تموت ولا تحيا ، بل تعيد ذكرى الماضي وتهمس بنبؤتها في المســتقبل ، وتكرر أصوات الأفراح وتردد آهــات الأتراح ·

هنا لغز من ألغاز الحياة وليلة من ليالي الزمان · وأنا لغز أمام هذا اللغز ، وليلة ازاء هذه الليلة · أهيم وحيدة على الشاطيء الحزين ، أنظر ولا أرى ، أسمع ولا أفهم ، أبحث ولا أجد ، أستعلم ولا أعلم ···· فؤدي يخفق مع فؤاد النهر الخفي ، ونفسي قيثارة الأحلام والألحان · لكنني لغز حي تائه في ظـل الغصـون ، ينظر مســتفسرا الى لغز آخر فلا يجد فيه الا صـورته ، فيود تمزيقها وسحقها وان أحبها !

* * *

عند احتضــار النهار ذهبت الى رأس النبــع وجلست على صخرة قائمة في وسط المياه المتسلسلة من صدر الصخرة الكبيرة جلست وأرواح الخيال تتنشق الأريج العطرة المعانق لشعور بنات المياه · وآلهة الأهوية الأربعة يتلاعبون بدقائق الشفق سابحين على أمواج الظلام · وحول أشباحهم تلتف أكاليل البنفسج وقلائد

الياسمين ، وفي ثغورهم يلمع فتيت النجوم ، بينا أبكار الشعر تسر لاخواتها خفايا اليأس والرجا تحت أشجار الصنوبر ، وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد « باخوس » خمرا تسكر به الآلهة .
ومن سكر الآلهة يولد الشعراء والأنبياء .

...

على هذه الصخرة حيث أنا أحلم ثملة بما شربته مشاعري من رحيق الخيال العلوي ، كان يجلس الأمير بشير الشهابي الكبير .. كثيرون بعده وقبلي جلسوا هنا وفؤاد كل منهم منقبض تهيبا وخشوعا امام أنفاس الطبيعة وأصوات الخلود . ما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأن الأفكار تتشابه في المصدر وفي النتيجة رغم تشعبها وتفرعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس البشرية هي هي في كل آن ومكان .

جميعنا طرح السؤال الذي ألقيه الآن على المياه المتراكضة :
هو سر الأسرار الغامضة الذي يرجعه صدى الهياكل المشادة في قدس أقداس البشرية : من أين والى أين ؟ من أين والى أين ؟؟

من أين تأتين أيتها المياه والى أين تذهبين ؟
... من أين أتينا والى أين نذهب ؟ ...

المياه تتدفق أثر المياه مهللة مكبرة ، وقد رفعت أصواتها في الغناء والنحيب ، ودمدمت العناصر فيها أسرار الفيض الالهي ، ورفرفت على جوانبها أجنحة الخلود ...

من أين والى أين ... ؟

ثقل دماغي بأفكار لا أدركها ، وضاق مني الصدر لهموم لا أعرف ماهيتها ، فنزعت عن ساعدي ساعة وضعت في اسورة

ذهبية ونظرت اليها قائلة : ـ « أيتها الساعة ! أنت رمز الوقت الجارى فى نهر الزمان فيسير قاصدا بحر الأبدية . ها أنا أغطسك فى هذه المياه ... عسى أن تحفظى فى حياتك المعدنية أثرا لرموز معنوية » . ثم جمعت بعض الحصى الملونة الجميلة الراكدة فى أعماق النهر ، قائلة : « أيتها الجواهر ! سأحملك معى الى وادى النيل لتذكرينى بالعواطف الكثيرة التى تلاطمت فى فؤادى أمام نهر الصفا .. أنت ذكر الأبدية التى حييت فيها لحظة » .

واذ رفعت عينى الى الأفق رأيت مقلة الزهرة ترقب يد ملك الظلام الراسمة على رداء الليل صور الهيئات السماوية .

فغادرت رأس النبع مرددة : أنهر الصفا ! من أين والى أين ؟

***

أنهر الصفا ! جئتك تعبة الروح والجسد معا .

قرأت خلاصة الأحوال الحاضرة فدوى فى مخيلتى هدير المدافع ، وتمثلت لناظرى صور الحرب المخيفة . ثم قصدت الاجتماعات فملأ أذنى ضجيجها التافه ، وضجرت نفسى من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة . عجبت لبلاهة الانسان وركاكة أمياله وفتور همته . اذ ذاك سمعت اسمك الموسيقى فاحببته لأن فيه جمالا وعذوبة وسلاما .

لقد أحرقت قدمى الرمال الحارة ، ومزقت يدى أشواك الحياة ، فجئت أستخلص من أعشابك بلسما لجروحى . تعلق بأهدابى غبار المادة محاولا اخفاء الجمال المعنوى عن عينى ، فأتيت أغسل أعدابى بمياهك المقدسة .

جئت لأرطب يدى وعينى برضابك العذب .

الساعة المفقودة

.. جعلها أرباب التجارة حلية نسائية وأتقن الجوهرى وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشرى ·

· صورة مصغرة للكون ، كذلك كانت ساعتي : مساحتها رمز للفضاء ، دورتها مرسح اللا نهاية ، حدودها حدود الامكان ، علاماتها مقاطع الوقت الذى رتبه الانسان ، ساعاتها مقياس الأعمال ، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمال ، ثوانيها دقات القلب ··· من الثوانى يتألف الزمان ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجا ·

فيا لهول ثوانى الزمان ، ويا لهول نبضات قلب الانسان !

بين ثانية وثانية يلتقى العدوان في أحشاء الثرى : الماء والنار ، فتميد الأرض بمن عليها وتتفطر أساساتها فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية ، وتزفر الطبيعة زفرتها القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبة بيتها · تفتح صدرها مرحبة فيتدرحرجون الى الهاوية التى ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبرا ·

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان فى ساحات الوغى فتدوى رعود المدافع فى الفضاء ، وتختطف بروق السيوف غالى الأرواح ٠ ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندك عروش وتنتصب عروش ، تدمر ممالك ويعمر سواهـا ، تخرب مدائن ويشـاد غيرها ، تتجندل أفراد وتفنى مجاميع فترتدى الأقوام سواد الألوان وفى نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان ٠

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس ، تبتسم شفة وتدمع عين ، يخون صديق ويخلص عدو ، بين الثانية والثانية !

وبين نبضة ونبضـة هنـاك سر الأسرار ٠ دماء منبعثة الى القلب ودماء منبعثة منه ، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية ٠ بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أسس العمر ، وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان ٠ اشتعال الفكر وخمود العاطفة . ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ ، لذعات الغرام والحسرات العظام ،قنوط ورجاء ، سـعادة وشقاء ، هتـاف الروح المسلمة ولهاث الروح المودعة ٠

* * *

يا ابنة أبيك ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء ، ويخوننا يوم الصفاء ، ويهجرنا حين اللقاء : فأنت غادرة خائنة هاجرة كالزمان . يا ابنة الزمان !

كم من سـاع طيبـات وقعت مرورهن على دوران عقربيك وفكرى يناجيك بأحاديث هداه وضلاله ! أبتسم لك عند السرور فأتخيلك صامتة تبتسمين ، وأتنهد حيالك يوم الأسى فأحسبك تتنهدين وتحزنين ، وكأن عقربيـك ذراعان يمتدان نحو العـلاء مستغيثين متوسلين ٠

لما أفنت قلبى وحدة القلب ضعطت بك على ساعدي قائلة « أنت الصديقة التى لا تخون » · ولما مزقت سمعى أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية، خاطبتك قائلة « أنت لا تؤذين لانك لا تتكلمين » · ولما أذابنى الجهل بدعواه والغرور بسخافته ، نظرت اليك قائلة ! أنت عاملة لذلك تصمتين » ·

وكنت تعزيتى ·

وكنت زمانى ، يا ابنة الزمان !

وعلى هذا ما كان أطول أعراضك عنى وأقل اهتمامك بى ! فى النهار كنت تطوقين ساعدى فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب انا على هذا العنف بلمسة التلطيف · وفى المساء كنت تستريحين بجوار وسادتى فأوقع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامى وآمالى ، وفى المساء كنت أول عين أشاهدها وأول روح أستجوبها ·

كل ذلك وأنت لا تنتبهين ·

وها قد هجرتنى ، فقدتك وفقدتنى فسيرى بحراسة الله وانسينى !

ولكن انتخبى اليد التى ستطوقينها !

فاذا وقعت فى يد شرير وقصد استعمالك ليؤذى أخا له ، فانقلبى أفعى لساعة ولا تبرحى مفرغة فيه سمك حتى تصرعيه قتيلا ·

··· لكن لا ! لا ، ليس الأشرار الا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم لو كنت تعلمين · وهم أخلق بالرحمة من الأخيار

الصالحين ٠ فلا تتحولى حية ولا تؤذى شريرا . بل غادرى تلك اليد المسكينة واسقطى فى طريق أب فقير صالح لتكونى نصيب فتاة لم تلبس فى حياتها حلية ٠ زينى يدا شوهت خشونة الخدمة جمالها ونامى على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبب ! نامى هناك واسعدى ، ولو ساعة ، قلبا بائسا يحسب السعادة فى الغنى !

نامى هناك وانسينى ، ولكن !

ان كان لديك ذاكرة تذكر ، يا ساعتى الصغيرة المحبوبة ، أذكرى لحظة ماشهدته معى من المسرات واللهفات أذكرى واحفظى ما تعرفين ٠

ولكن ألست ابنة الزمان الذى ننسب اليه فى ضعفنا كل شىء ، وهو فى قوته لا يبالى بشىء ؟ ترين بأى حافظة تذكرين ، وبأى ذهن تتأملين ؟ انما علاماتك مداد قد تحجر ، وعقربك أصبع يشير الى علامة يجهل منها المعنى ، وأنت آلة ليس الا ــ وان كنت آلة الآلات المثلى ٠

أنت ابنة الزمان الناسى ٠
وأنت مثله لا تذكرين !

نحو مرقص الحياة

في ليل مسترخي السدول سرت على شط بحر الأيام مع السائرين · سرت نحو مرقص الحياة في ليلة غار نجمها وادلهم ديجورها ، على شط بحر الأيام سرت مع السائرين ·

بين ما طمسته عصور وخلفته عصور وشادته عصور ، على شط بحر الأيام سرت أتلمس سبيلا قريب المنفذ نظيفا أنيقا ، لئلا تلطخ الأوحال نعلي الاغريقي الأبيض وتمزق السموم وريقات زهرة رأسي ، زهرة الياسمين التي زنت بها رأسي ·

أنوار المرقص هناك عيون تناديني ، وفي كل من قدمي جناحان يحثانني على الرقص قبل الوصول · يالطول الطريق المتشعبة في الدجى ، يا لطول الطريق ويا لهول الطريق ! ترى أليس من هاد يهديني بين جماهير السائرين ؟



جاءني خيال سائلا وفي صوته لهجة المتأدب ــ الى أين تقصدين ؟

قلت ـ أرأيت القصر العظيم الذى تتهامس فى صدره أسرار الألحان ، ونوافذه ألحاظ أنوار تناديني ، أرأيت القصر العظيم ؟ انما اليه أقصد لأنه مرقص الحياة ·

قال ـ وما عملي الا قيادة الناس الى المرقص ، قيادة من شاء من السائرين ·

قلت مبتهجة ـ أصحيح ما أنت قائل ؟ ومن أنت اذن لتفعل ما أنت فاعل ؟

قال يقدم نفسه ـ أنا الغريب · أنا الغرباء · أنا التاجر والطبيب والمهندس والمحامي والنائب والحاكم · أنا العامل والخادم ، والبانى والهادم . وأنا المتهم والقاضى · أتعاطى جميع الحرف ، وأعمل للناس وهم لى يعملون · اخدمهم فى بابى ليكون كل منهم لى فى بابه خادما · أقدم لهم ما لا يحصلون عليه بدونى ، وأعقد فيما بينهم بروابط لولاها ما تبودلت فائدة ولا اشترك فى منفعة · أنا الغريب الذى تجعله المصلحة قريبا لكل غريب ·

قلت ـ عرفتك يا سيدى · هذا سوارى أعطيكه ، فقدنى نحو مرقص الحياة ·

فى مركبة الغريب سرت مسافة طويلة · قطعنا جبالا وأودية لم أر منها الصعاب ولم تتعثر قدمي فيها بالصخور · واذ وصلنا سلسلة الاطواد المتساندات فى حدود الأفق ودعنى الغريب لأن مركبته لا تستطيع المسير ، ودعنى الغريب ومضى ·

دار المرقص اقتربت منها قليلا ولكن بيني وبينها سلسلة الاطواد المتساندات · رأيتنى وحدى · فلذعنى البرد ، وهددتنى

دياجير الآفاق ، وشاكتني أشياء لم ألمسها بيدي · واذا بخيال يقترب متعمدا مماشاتي · فوقفت واجفة وسألت ــ من أنت الذي تعترضني في طريقي ؟

أجاب وفي صوته شر واستهزاء مهين ــ من أنا ؟ أنا لدياجير المهددة ، وأنا الأشياء الشائكة في الظلام · أنا النميمة والاغتياب والوقاحة · والشراسة والامتهان · أنا الشفة التي تبتسم هازئة لأن وراءها انيابا تنهش نهشا · أنا اليد التي تضرب لتثار بلا ثار ، أنا القلب الذي يكظم الحقد والضغينة بسبب وبلا سبب · أنا الكيد والغيرة والخبث والحسد . وأنا الذم القبيح المختبئ وراء شهد التمليق وتكلف السكوت · أنا العدو · أنا الاعداء ·

قلت مرتعشة ــ لعلك تعني سواي بهذا الكلام · أنا لا أكره أحدا ، ولا أحقد على أحد ، ولا عداء لي · واذا صدر مني أذى فاما عن سهو وأما عن سوء تفاهم ، وأنا أول من يتألم له بعد حدوثه ·

أجاب وقد تضخمت معاني البغض في صوته ــ بل اياك اعني ، أنا عدوك أنت ولا أستطيع أن أكون لك الا ذلك · عبثا تتحاشين طريقي ، وعبثا تتبعين سبل الحذر والتحفظ · سوف أوذيك بأصغر الأسلحة ، وأوفرها اقتدارا واحدها مضاء ، وأبعدها عن منطقة عن منطقة العقوبة : اللسان ·

وبينما كلماته تنقض علي كالصواعق ، توارى عني ففطنت لنفسي · فطنت لنفسي فوجدتني اقطع نفقا ضاق منه الجو وثقل فيه ضغط الهواء ، حتى خلته قبرا ملأته عقارب توجعني ، وحيات تلسعني وألسنة لهيب تكويني · سرت هائمة والعبرات متحجرات في أقاصي قلبي · ولما أن عثرت علي منفذ اخرجني من النفق الرهيب وجدت تحمسي يأسا والأجنحة في قدمي اغلالا · خلفت سلسلة

الاطواد المتساندات ولم يبق بينى وبين المرقص لا متبسطات السهول. عندئذ بكيت ثم مسحت دموعى المتسابقات لأفسح مجالا لدموع جديدات . ثم قلت : ترى لأى شىء يوجد فى الوجود شىء ؟

❋ ❋ ❋

بلطف النسيم امتدت اليد الى . يد ترسل اناملها نورا ، وتبعث من حركاتها حرارة تدفىء روحى . ولما أن اجفلت قال صاحب اليد ـ هات يدك .

فنظرت الى الخيال قائلة ـ كفانى ما لقيت من الخيالات فى طريقى . انى لا أطلب مساعدة أحد وقد عدلت عن الذهاب الى المرقص ، فدعنى وحيدة فى كآبتى دعنى فى سآمتى ويأسى وحيدة .

قال ـ لا أستطيع أن ؤدعك هنا ، ولا أنت تستطيعين الا قبول مساعدتى .

قلت ـ كيف ذلك ؟ ومن أنت ؟

قال وكأن ابتسامات الملائكة قد تجمعت فى صوته الخلاصة وحلاوة ـ أنا الصديق . نا ذاك الذى يشعر ويدرك ويفهم ويعلم . أنا ذاك الذى يعلم . نا التعزية وموضع الثقة والأمان . انا الصديق .

قلت ـ لا ثقة لى بأحد . وانا لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك .

قال ـ أرادتك وعكسها عندى سيان . هذه السهول لا يعرف خفاياها غيرى . طريقك فيها وليس لك من دليل غيرى . وعندى لك رسالة وقد جئت مرغما لأبلغها اليك .

قلت ـ ممن هذه الرسالة وما هو مضمونها ؟

قال ـ لا أدرى . لقد دفعتها الى يد الخفاء ، وحجمها فى نفسى يدلنى على أنها ليست لى . ثم زاد وفى صوته الحاح وكآبة : خذيها هى لك ! وستعلمين سرها ساعة تأخذينها وتناولينني رسالة أخرى لى عندك . كذلك قال الصوت المجهول الذى بعث بى الى هذا المكان . خذى ما لك وأعطينى ما لى !

★ ★ ★

الى بحر الايام حولت نظرى طالبة ارشاد . الا أن صــوت الأمواج متشــابة لمن لا يســأل ولكن فى أنة الأمواج لكل سائل جوابا . فارتفع الحبــاب قليلا قليــلا ونمق لى الامثــولة بحروف فضية : « يقسم المرء الناس الى غريب وعدو وصديق . فذاك يبتغى الدرهم متاجرا متأدبا ، والآخر لا يظهر الا معاندا معذبا منتقما وهذا يتكلم باسما ودودا فينطلق صوته وبسمته الى سويداوات القلوب . ويستقر صوته وبسمته فى سويداوات القلوب . وما كان كل من هؤلاء الا مؤدبا مرشدا الى سبل الحياة ، وما كان كل الا استاذا يدرس عليه ما لا يعلم من سواه ، لأنه يحمل فى يده رسالة خفية قد أؤتمن عليها من آلهة الغيب والأسرار » .

★ ★ ★

على شط بحر الأيام سرت مع السائرين . ومن منهل الغبطة المتدفق فى سكبت تعزية ومن الشمس المنيرة فى جنــانى وزعت أنوارا على الذين معى من السائرين . وزعت من شمس جنانى أنوارا ومن منهل غبطتى تعزية على المحزونين من السائرين .

الذكرى الجـديدة

أصبحت ليوم وبين يدى ذكرى جديدة حارة تتضور وتتأوه وتتلوى كالنفس المترددة بين البقـــاء والانتحار · وأخذتنى منها شفقة فحملتها برأفة الى معبد الادكار القائم فى أعماق روحى ·

عبرت العتبة متأنية والتهيب يلاشى وقع خطواتى ، وجثوت بين تذكارات متبحرات فى شفق التأمل العميق حيث لكل ميت مضى اسم ولـــكل حدث انقضى رسم · فتقلصت التذكارات من ذواتهن الهيولية وحنين على هامسات وقلن « نحن فيك وأنت فينا » ·

فرددت همسهن وقلت « أنا فيكن وأنتن فى » ·

ونهضت بالذكرى الجديدة أعين لها مستقر فاستوت على متوسط المذبح ـ وأخذت أنسق أمامها طاقات الازهار ، وانثر على جوانبها فرائد العطر والندى . وأوقد حولها الشموع والمصابيح وأذكى نار المجامر بالمر واللبان ، ثم وقفت أرقبها بانشراح اذ رأيت الهدوء يباغت اضطرابها وتوجعها ·

وفى النهاية مشيت متراجعة الى المدخل · وبعد نظرة الوداع غادرت معبد الادكار وبى ارتياح من أدى واجبا عزيزا وفخر من أتى أمرا عظيما ·

والآن ستتسارع الشـــهور حتى تنتظم أعواما ، وتتسـاند الأعوام حتى تترتب عقودا ، ويتقاذفنى موج العمر فلا أعى يوما الا وأثر ذكراى الخفى يبدو فى جميع أعمالى ·

فاذا تكلمت واتخذ صوتى قرارا بعيدا كان متكلما فيه صوت ذكراى ·

واذا أحرجنى موقف فأحجمت ، فهممت فأقدمت ، فتجاوزته الى غيره كان الفضل لأمثولة ألقتها على ذكراى ·

واذا سرت أحيـانا بخطـوات يخلن لتريثهن مفكرات بأرض يطوينها ــ كان ذلك التباطؤ هوى من أهواء ذكراى ·

واذا استفزنى التحمس لمظلوم · واستبسلت فى الدفاع عن ذى حق فما ذلك الا مكافحة لطغيان استدر الدموع والدماء من قلب ذكـــراى ·

واذا شعرت يوما بزمهرير البحار المتجلدة يجاور فى كيانى تأجج الرمضاء المستعرة ، وتلاطم بين جوانحى هبوب الصرصر بلوافح السموم فما ذلك سوى ثورة جديدة تقوم بها عناصر ذكراى ·

واذا شممت خيرات العـــالم فقرا وازدحام العالم قفرا فلأن لا ائتناس ولا غنى فى غير عالم تبدعه ذكراى ·

واذ رآني جليسي وناظراي يخترقانه الى أبعاد شاسعات فلأنى ألمح بين طبقات السحب خيالا من ذوى القربى لذكراى .

واذا نما حبى بغتة واحتوى الموجودات بقوة كأن الروح الكلية اتخذته لحظة رسول عطفها على الخلائق فما ذلك الا اختمار فطير ذكـــراى .

وعندما أعود الى منشا الكائنات ومرجعها وأرقد بين جلال المدافن فى قبرى الضـــيق حيث تنقلب صورتى البشرية ترابا ، وهباء ، وينحل ما ارتبط من اسمى الصغير فلا تمثل الميم منه والياء سوى حرفين من حروف الأبجدية فحسب ، يومذاك سيكون التماسك والحياة نصيب ذكراى .

وبعدئذ استمر الذرارى الجديدات وتحل محلهـــا الذرارى اللاحقات . فتجلس فتاة فى صباح خريف شجى كهذا الصباح على مقربة من نافذتها وراء الاستار المخرمة وترسل نظرها الى الأفق الذابل يتفتنها سحر الطبيعة ساكبا أنوار الفجر فى نقى السحاب . وتسأل نفسها « أين السعادة ؟ » فتتملكها رغبة فجائية فى ركوب تلك السحابة ذات الشكل الطودى واثقة من أن السعادة كلها فى اعتلاء متن النور والهواء .

فتاة المستقبل سترجع بعد حين وتضحك من رغبتها قائلة « ان هذا لجنون ! » .

أما أنا ابنة الحاضر فاعلم منذ الســـاعة أن تلك الرغبة فى النفس الصغيرة المجهولة سوف يثيرها عمل الذكرى التى أدخلتها معبد الادكار ووضـــعتها على المذبح حارة تتضور وتتأوه وتتلوى كالنفس الحائرة بين البقاء والانتحار .

أديبــة الفقهــاء وفقيهة الادباء

عائشــة عبد الرحمن
(بنت الشـــاطىء)
(١٩١٣ - ١٩٩٨)

عائشة عبد الرحمن ، أو بنت الشاطىء كما اختارت ان تسمى نفسها ، أو « أديبة الفقهاء · وفقيهة الأدباء » ، كما أطلق عليها تلاميذها ومريديها ، هذه الجذوة المشتعلة من العلم والفقه والفكر والأدب ، هذه الأستاذة الجليلة فريدة عصرها وعصور أخرى سابقة ولاحقة ، هى صــاحبة أكبر انتــاج فكرى ليس بين الكاتبات فقط بل أنهـــا تتفوق على كثير من المفكرين من الرجــال ، وان كان العلم والمعرفة لا يفرقان بين رجل وامرأة ، الا انهما يحتاجان للجد والمثــابرة ، والقدرة على اعمال العقل ، وهو ما تفوقت فيه بنت الشاطىء ، ليس فى كم الانتاج فقط ـ والذى بلغ أكثر من أربعين مؤلفا ـ ولكن فى بلاغتها فى استخدام اللغة ، والنهل من بحورها ، والتبحر فى الدراسات الاسلامية والشريعة والفقه ·

وعائشة عبد الرحمن تمثل طريقا طويلا من الكفاح والجد على طريق العلم بدأ منذ طفولتها الأولى ٠٠ فهي من مواليد السادس من نوفمبر سنة ١٩١٣ في دمياط ، نشأت في بيئة دينية أزهرية ، وهي حفيدة الشيخ ابراهيم الدمهوجي أحد مشايخ الأزهر ، ووالدها الشيخ محمد على عبد الرحمن أحد شيوخ المعهد الديني بدمياط ، وكانت عائشة الابنة الثانية في الأسرة ، وتمنى والدها أن يرزق بصبي يلقنه علوم الدين ، لكنه حين أنجب فتاة للمرة الثانية قرر أن يهبها للعلم فعمل على تحفيظها القرآن الكريم منذ كانت في الخامسة من عمرها ، ثم تلقت العلوم الاسـلامية والعربية بمناهج الأزهر الشريف على يد والدها وزملائه في المعهد الديني ٠

وفي ذلك تقول : « والدي ينتزعني من ملعب حداثتي ، ويلزمني من قبل أن تحمل عني تمائم الصبا ، صحبته في مجلسه بالبيت ، أو في مكتبه الجامع (جامع البحر) وكان يسميه الخلوه ، ولعلي التقطت في تلك المرحلة المنسية بعض الآيات والسور القصار ، من طول ما سمعته يتلو القرآن الكريم ٠ والتقطت معها كلمات مما كان يتحدث به زملاؤه وتلاميذه من العلم والاسلام » ٠

هذه هي التربة الصالحة التي نشأت فيها العالمة الجليلة منذ كانت في الخامسة محاطة بالعلم والعلماء منذ نعومة أظفارها ٠ وحتى يمكن للقارىء أن يدرك مدى تأثير هذه البيئة عليها نجد تلك الفتاة الصغيرة وهي في العاشرة لا تحلم في منامها بملابس جديدة أو لعب أو متنزهات كما تحلم أي قرينة لها ٠ وانما تشاهد الحلم التالي الذي يؤثر في كل حياتها ، فتقول بنت الشاطىء :

« رأيتني في المنام جالسة في مقعدي بحجرة الدراسة بمدرسة اللوزي الأميرية للبنات بدمياط ، واذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكاني ، يعطيني لفافة خضراء ثم يحلق

عاليا في السماء ! ولما فتحت اللفافة وجدت فيها مصحفا شريفا لم تكن عيني قد وقعت من قبل على مثله فخامة وبهاء » .

وتقول : « كنت بحكم نشأتي وبيئتي أنفعل بالأحلام وأتأثر بالرؤى ، فلما صحوت أدركت عن يقين أن حياتي كلها مرتبطة بهذا المصحف هدية السماء لي في رؤياي » .

وهكذا أصبح المصحف في حياة بنت الشاطيء منهلا للعلم والمعرفة ومجالا للعمل والفكر ، وحياة أمضتها تبحث في علومه . وقد ساعدها على ذلك علم والدها الذي وضع لها نظاما لتنبغ في العلوم . لكن الأب الأزهري رفض أن تذهب ابنته الى المدرسة ، ولم ينقذها غير جدها الذي ساعدها أن تدرس في البيت ثم تتقدم الى الامتحان لنيل الشهادات .

وتحصل بنت الشاطيء على شهادة كفاءة المعلمات سنة ١٩٢٩ من المنصورة ، وتعين معلمه بنفس المدرسة ، ثم تعمل موظفة بكلية البنات بالجيزة ، وتبدأ في مراسلة الجرائد ، وتلتحق بالعمل في جريدة « النهضة النسائية » ويسند اليها رئاسة التحرير والادارة في أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، وكان عليها هنا أن تنشر مقالات موقعه باسمها ، وهو ما لم يكن مقبولا في ذلك الوقت أن تنشر المرأة اسمها على الملأ ، هذا بالاضافة الى عدم معرفة والدها بأمر اشتغالها بالصحافة ، واختارت اسم « بنت الشاطيء » لتوقع به مقالاتها ، لارتباطها بشاطيء النيل في دمياط ، فكان الاسم الذي ظل ملازما لها طوال حياتها .

ثم تلتحق بالجامعة ، وتنصرف الى تأليف الكتب ، التي كان أولها « قضايا الفلاح المصري » وصدر سنة ١٩٣٥ ، وهي لا تكتفي بذلك بل تدخل في معارك فكرية كبيرة مع عمالقة الفكر في ذلك الزمان .

ففى عام ٣٦ أصـــدر العقـــاد كتابه « المرأة فى القرآن » وكما هو معروف عن العقاد موقفه الحاد والمتحفز للمرأة ، وهو ما انعكس على كتاباته وكان منها هذا الكتاب فضمنه بعض القضايا التى أثارت السيدات المثقفات وهن قلة فى ذلك الوقت ، وكانت الوحيدة التى تصدت للدفاع عن بنات جنسها ، هى بنت الشاطىء . وكان هذا انموذجا لواحدة من المعارك الأدبية التى شهدتها الساحة الثقافية . ويندر الآن تكرارها .

فقد كتب العقاد فى كتابه يقول : « الرجل يتزين ليعزز ارادته ، وتتزين المرأة لتعزز ارادة غيرها فى طلبها ! .» ويقول : « النظافة ليست من خصائص الأنوثة لاتصالها بالزينة وحب المظهر فى أعين الجنس الآخر ، ولو لم تكن النظافة قيمة خلقية مفروضة على المرأة باشراف الرجل على حياتها العامة وحياتها الخاصة لكان استقلالها بنفسيا وشيكا ان يضعها موضع الاهمال والاستثقال ! ثم يقول العقاد أيضا : من ضلال الفهم أن يخطر على البال ان الحياء صفة أنثوية وان من ضلال الفهم أن يخطر على البـــال ان الحيـــاء صفة أنثوية وان النساء أشد استحياء من الرجال ، فالواقع ــ كما لاحظ شوبنهور ــ ان المرأة لا تعرف الحياء بمعزل عن تلك الغريزة العامة ، وان الرجال يستحون حيث لا تستحى النساء ! » .

ويمضى فيقول : « المرأة تتقلب وتراوغ وترائى وتكذب وتحرف وتميل مع الهوى وتنسى فى لحظة واحدة عشرة السنين الطوال ! » .

كانت هذه كلها أراء وكلمات قاسية كتبها العقاد ، ولم يكن من السهل أن يتصـــدى للعقاد أحد ما لم يكن متمكنا من أدواته وحجته ، وكان المتصدى فى هذه المرة عائشة عبد الرحمن التى كتبت عدة مقالات فى الأهرام تحت عنوان « اللهم انى صائمة ! » ــ لأنها نشرت فى رمضان ــ وقالت فيها : « أنا لا يعنينى شىء فى

راى الأستاذ العقاد ، بل سلمت بما قاله فى استئثار الرجل بالتفوق والبراعة فى الفنون التى يظن أنهـا أنثوية كأسـتاذية الرقص وأشباهها ، كل الذى يثيرنى هو اتهامه للمرأة بالقذارة ، وانهـا لولا اشراف الرجل عليها لما فكرت فى النظافة ، وانه ينفى عنها صفة الحياء والحنان ! « كما أعيب على الأستاذ العقاد قوله ان رأيه فى المرأة هو رأى الطبيعة ورأى الخالق ! ولا يصح ان ينسب الرأى للخالق عز وجل » ٠

كانت هذه هى المعركة الأدبية والفكرية الأولى فى حياة بنت الشاطىء ، لكنها لم تكن الأخيرة ، فقد خاضت على سبيل المثال المعركة التى تناصر فيها الثقافة العربية ضد ما سمى بقصيدة النثر فى الشعر العربى ٠ وواجهت هجوم المستشرقين على الاسلام كما نبهت لخطورة البهائية والماسونيـة من خـلال كتابها « قراءة فى وثائق البهائية » كما خاضت معركة كان طرفها الثانى د٠ مصطفى محمود حول التفسير المعاصر للقرآن ٠

وأكملت بنت الشـاطىء مسيرتهـا العلمية بحصـولها على الليسانس فى الآداب قسم اللغة العربية سنة ١٩٣٩ ثم حصلت على الماجستير سنة ١٩٤١ ٠ أما مناقشتها فى رسالة الدكتوراه فكانت حدثا علميا ، حيث ناقشها فحول العلم والفكر والجامعة وهم : طـه حسين وأحمد أمين و د٠ عبد الحميد العبادى وشفيق غربال ٠ وكانت تحقيقا لرسالة أبى العلاء المعرى ، واستمرت المناقشة ست ساعات وحصلت على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بتبادل رسالتها بين الجامعات ٠

وكما كان للأب دور بارز فى حياة عائشة عبد الرحمن وفى ثقلها علميا ودينيا ، كان للرجل الثانى فى حياتهـا دور لم يقل أهمية ، وكان هذا الرجل هو الأستاذ والزوج الشيخ أمين الخولى ٠

ويعد الشيخ أمين الخولى امتدادا للصحوة الفكرية والدينية التى بدأهــا الأفغانى ومحمد عبده ، فقد مزج بين المعرفة العميقة للتراث والاتجاه للتجديد ، وكان صاحب مدرسة كبيرة فى دراسات الفقه والدراسات الاسلامية ، كما يرتبط اسمه بنقله بلاغة اللغة من البلاغة المدرسية الى بلاغة الصنعة · وكانت بنت الشاطىء أنبغ تلاميذه ، فكان لقاء العقل مدخلا لعاطفة من نوع خاص لم تخفها يوما حتى بعد وفاته ، وحين نضع فى اعتبارنا نشأتها الدينية المحافظة وكونها أستاذة · ندرك انهــا لم تكن تستطع أن تعبر عن حبهــا لأستاذها بأكثر مما عبرت من خلال سيرتها الذاتية « على الجسر » ، فهى تحكى عن لقائها الأول معه فى السادس من نوفمبر سنة ١٩٣٦ ـ وهو يوم ميلادها ـ قائلة : « كم كنت أتمنى ـ فى ذلك اللقاء الأول ـ لو توقف الزمن ليظل الأستاذ يتكلم وأنا أصغى وأتعلم ! من ذلك اللقاء الأول ارتبطت به نفسيا وعقليــا وكأنى قطعت العمر كله أبحث عنه فى متاهة الدنيا وخضم المجهول وبمجرد أن لقيته لم أشغل بالى بظروف قد تحول دون قربى منه ، فما كان يعنينى قط سوى أنى لقيته ، وما عدا ذلك ليس بذى بال ·· وقد انصرفت من ذلك الدرس الأول فى اليوم السادس من نوفمبر عام ١٩٣٦ وأنا أحس انى ولدت من جديد » ·

وقد أهدت عائشة عبد الرحمن كل كتبهــا اليه ، ولم تكن سيرتها الذاتية التى ضمنتها كتابها « على الجسر » الا قصتها معه ، وحياتها كلها تدور فى فلكه حتى بعد مماته ، فهى تقول : « وتجلت فينا ولنا وبنا آية الله الكبرى الذى خلقنا من نفس واحدة ، فكنا الواحد الذى لا يتعدد ، والفرد الذى لا يتجزأ ، وكانت قصـــتنا أسطورة الزمان ، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلها ، وهيهات ان تتكرر الى آخر الدهر ! » ·

وبعد عام من رحيله كتبت قصيدتها : « بعد عام » تقول فيها :

لم تغب رؤيـــاك عنى فى الدجـى
وحـديثى كلـه عنـــك ولـــك
وأناجيـــك فيرتد الصدى من بعيد
كيـــف أبقى بعد ايغـــال النـــوى
وحيـــاتى سرهـــا فيـــك وبـك
هـل مضى العـــام ومازلت هنـــا
انقـل الخطو على الجسر اليـــك
أبانفاســـــك أحيـــا أم تـــرى
مات بعضى وبـــكى بعضى عليـــك ؟

كان موت الشيخ أمين الخولى سنة ١٩٦٦ حدثا عصيبا وهائلا فى حياة بنت الشاطىء ٠ فحين نستعرض تاريخ حياتها تجد انها لم تستقر فى مصر لفترات طويلة بعد وفاته مباشرة كما لو كانت ــ وهى المفكرة الكبيرة ــ لا تستطيع العيش بدونه أو أن تحيا وحيدة دون رفيق عمرها وأستاذها وحياتها التى صنعها وكونها ، فهى تقول : « هذه القيم قد تعلمتها من أمين الخولى الذى صنعنى » ٠

وهكذا عاشت بنت الشاطىء سنوات طوال متنقلة بين أرجاء الوطن العربى ، وجامعاته ، فبعد أن كانت أستاذ كرسى ورئيس قسم اللغة العربية والدراسات الاسلامية بجامعة عين شمس منذ ١٩٦٣ حتى ١٩٦٧ ، عملت أيضـــا كأستاذ بجامعتى أم درمان والخرطوم ، وأستاذ للدراسات العليا بجامعة القرويين ، وأستاذ للتفسير بكلية الشريعة بفاس ، كما عملت بجامعات الجزائر والعراق والامارات والسعودية ٠ وكرمت سيرتها مصر والعديد من الدول العربية ، فكانت أول سيدة تعين عضوا فى مجمع البحوث الاسلامية ، وحصلت على وسام الاستحقاق للمفكرين الاسلاميين سنة ١٩٧٣ ،

ووســام الكفاءة الفكرية من الملك الحسن عاهل المغرب ، وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٧٨ ، وجائزة الكويت للتقدم العلمى سنة ١٩٨٨ عن كتابها « قراءة فى وثائق البهائية » وجائزة الملك فيصل للآداب والدراسات الاسلامية سنة ١٩٩٢ ، وظلت واحدة من أكبر مفكرى العصر ، فكانت نابغة المحققين ، ونجحت فى تحقيق ما لم يستطع تحقيقه كتاب ومفكرون كثيرون .

وعلى الرغم مما تعرضت له بنت الشاطىء من كوارث متلاحقة لا يتحملها بشر ، الا انها ظلت شامخة منتجة حتى آخر أيامها . فقد فقدت كل من تحب فى حياتها : الزوج ، والابنة الدكتورة أمينة الخولى ، التى ماتت بعد مرض عضال وكانت أصغر باحثة تحصل على الدكتوراه فى الرياضة البحتة ، ثم فقدت الابن الدكتور أكمل الخـولى الذى مـات فى حـادث مأسـاوى ، وكانت فى كل فجيعة من هذه الفواجع مثالا للمرأة المؤمنة بقضاء ربها تلقاه بنفس راضية . وظلت تجاهد فى سبيل العلم حتى وافتها المنية فى أول ديسمبر عام ٩٨ لتخلف لنا أكثر من أربعين مؤلفا من أمهات الكتب فى التفسير والتحقيق والدراسات الاسلامية ، بالاضافة لمئات من المقالات التى انتظمت فى نشرها فى جريدة الأهرام حتى آخر أيامها .

ونحن نقدم للقارىء مقتبسا من كتابها . « لغتنا والحياة » الذى كان فى الأصل مجموعة من المحاضرات التى ألقيت على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٦٩ .

اللغة العربية وعلوم العصر

ما زال جيلنا منذ وعى ، يسمع دعاوى عن عجز العربية عن أداء العلوم الحديثة ، حتى كدنا ننسى ماضيها العلمى فى عصر الحضارة الاسلامية وفجر العصر الحديث .

ومنذ عزلت عن الميدان العلمى تدريسا وتأليفاً ، صارت دعوى عجزها من المسلمات البديهية التى لا تحتمل الجدل ، ولم تفلح جهود نصف قرن فى رد اعتبارها العلمى اليها . حتى عربت « موسكو » علوم العصر ، فهل كنا نحرث فى البحر ؟ !

فى صيف عامنا هذا ، تلقيت رسالة من مطبوعات موسكو العربية حسبتها أول الأمر مما ينشره « المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى » من ذخائر تراث لنا ، لا يرى فيه رواد الفضاء أكفان موتى وأحافير أثرية من عصور غبرت ، ولا يسمح بأن يجعل من اهتمامه بها موضوع جدل أو مناقشة ، ممن قد يتصورون أن جهد المجمع العلمى يجب أن يوفر كله للسباق الظافر الى بحوث الفضاء .

ثم لما نظرت فى كتب هذه الرســـالة من مطبوعات موسكو العربية ، وجدتها جميعا من صميم علوم العصر التى وضعت لتكون مرجعا للدارسين فى الجامعات والمراكز العالية للتدريب الفنى ٠

وأوشكت أن أطرح هذه الكتب جانباً ، أو أتخفف من عبثها على خزانة كتبى ، فألتمس لها من يهتم بموادها التى لا شأن لى بها ولا اتصال ٠ غير أنى ما لبثت أن ذكرت ما أشتغل به من قضايا حياتنا اللغوية ، فأقبلت على هذه المعربات الواردة من موسكو ، احاول أن أستبين الى أى مدى طوع العلماء السوفييت لغتنا العربية ، لأحدث ما وصلوا اليه فى المجال العلمى والصناعى ٠

بعد أن تحدثت فى مادتها العلمية الى عدد من علماء الاختصاص ، فى مقدمتهم عالمنا الحكيم الطبيب « الدكتور محمد كامل حسين » والدكتور « أسامة أمين الخولى » وكيل هندسة القاهرة ، وابنتى « أمينة أمين الخولى » المعيدة بكلية العــلوم ، والمتخصصـــة فى الرياضيات الكونية ونظرية النسبية ٠

وكانت مفاجأة لى ٠ أن أقرأ لغتى فى هذه العلوم العصرية ، سليمة واضحة ، دقيقة طيعة ميسرة ، لا تتوقف ولا تتعثر ٠

وأن أمضى فى قراءة المواد العلمية التى انعزلت عنها طويلا ، مأخوذة بلهفة من يكتشف فجأة أن أسرارا من لغته غابت عنه ٠

بعد كل ما ضج به أفقنا العربى المعاصر ، من دعاوى طنانة رنانة ، تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر ، وتبسط عذر جامعاتنا فى الاضرار على تدريسها بلغة أجنبية ٠ وتنذرنا بأن نظل حيث نحن ، متخلفين عن العصر علميا وصناعيا ، ان نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة ، لا مجال لها فى عصر العلم ؟

فمبلغ علمي ، أن جيلا ما زال منذ وعي ، يسمع هذه الدعوى تدوى كالطبول . فأما الذين جهلوا منا تاريخ الأمة فأيقنوا أنها حق لا ريب فيه ، وأما الذين اتصلوا بماضي الأمة ودرسوا تراثها العلمي ، فقد وقعوا في حيرة من أمر هذه العربية : من أين أصابها العقم وهي التي استطاعت منذ عشرة قرون وأكثر ، أن تستوعب كل التراث الفلسفي والعلمي للأمم القديمة ، وأن تنقل الى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التي عرفها التاريخ ؟

وكيف يعييها اليوم أن تنقل علوما كان للعلماء العرب ، في عصر الحضارة الاسلامية ، مجد الريادة فيها وتحريرها من المنهج التأملي الفلسفي الذي كان يسيطر على العقلية اليونانية في عصر قيادتها للفكر الانساني ، فيردها الى غيبيات مما وراء الطبيعة ، مترفعا أو عاجزا عن التجربة العملية بمنهجها الاستقرائي الدقيق وأجهزتها العملية ؟

ومن وراء ثلاثة عشر قرنا مضيت أسـاير التاريخ العلمي لأمتي ، وأنا في أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو .

من القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي ، بدأ اتصـال العربية بالتراث العلمي القديم ، في حركة ترجمة لكتب في النجوم ، والفلك ، والطب والكيمياء ، برعاية أمير من البيت الأموي ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » الملقب بعالم بني أمية .

على أن الترجمة لم تلبث أن أخذت في العصر العباسي الأول وضعا رسميا ، تدخل به في سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخي من الخزانة العامة ، وقد استوعبت الحركة في عصر الرشيد

وولده المأمون ، ذخائر التراث الفكرى والعلمى فى الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة ، لليونان والفرس والهند ومصر .

ثم ما لبثت العقلية الاسلامية أن هضمت ذلك التراث وتمثلته فأعطته روحا جديدة ، على نحو ما فعلت مدرسة الاسكندرية بالفكر اليونانى حين هاجر اليها .

وتلقى معجم العربية رصيدا ضخما من المصطلحات العلمية المعربة ، الى جانب الألفاظ العربية التى أمكن تطويعها للمصطلح العلمى .. ولا يذكر التاريخ أن حركة احياء التراث العلمى قد انتظرت طويلا ريثما يستقر رأى المختصين على امكان نقل العلوم الى العربية ، أو صدور فتوى من رجال الدين فى جواز تعريبها .

وفى طمأنينة واثقة من تأييد العقيدة الاسلامية للعلم وتمجيدها للعقل ، انطلق علماء الدولة الاسلامية ينظرون فى الظواهر الكونية بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة المريرة بين العلم والدين . فلم يمض قرن على تعريب التراث القديم حتى قدم هؤلاء العلماء جديدا أصيلا من العلوم الطبيعية والرياضية ودخلوا التاريخ العلمى روادا لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم .

ومن القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، بدأت المكتبة العربية تتلقى أوليات الكتب العلمية التى ألفها أولئك الرواد ، فاستطاعت لغتنا أن تؤدى كل مصطلحات العلوم الرياضية والطبيعة ، كما تلقت المراصد الفلكية والمعامل التجريبية ، الأجهزة العلمية التى اخترعها علماؤنا الذين تم على أيديهم نقل العلوم الطبيعية والفلكية الى مجال البحث العلمى التجريبى ، وكانت فى التراث البابلى

مختلطة بالسحر . وفى المدارس اليونانية داخلة فى نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية والفلسفة التأملية ..

وكل هذا مما لا يجهله دارسو التاريخ العربى والحضارة الاسلامية . وقد كان جديرا بأن يصل الى المنتمين منا الى الثقافة الغربية ، عن طريق المؤرخين الغربيين للحضارة والعلم . وهم قد شهدوا بأن المرحلة الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على أيدى علمائنا فى العصر القيادى للحضارة الاسلامية ، واعترفوا بأن حركة الاحياء (الرينسانس) التى بدأت بها النهضة الحديثة فى أوربا ، انما قامت أساسا على ما انتقل الى الغرب الأوربى من تراثنا العلمى والحضارى على المعابر التاريخية الكبرى فى العصر الوسيط : الأندلس وصقلية والدرنديل ..

كما شهدوا بأن علوم الطب والرياضيات والفلك والكيمياء ، سارت فى الغرب الحديث على الدروب التى عبدها رواد هذه العلوم من أعلام الدولة الاسلامية ، وقد ثبت تاريخيا أن أكثر مؤلفاتهم العلمية والفلسفية كانت تدرس فى جامعات أوربية الى القرن السابع عشر ، فى أصولها العربية أو مترجماتها اللاتينية التى تتابعت من القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقرر تاريخ العلم أن رسائل « جابر بن حيان ــ ت ١٩٨ هـ » التى ألفها فى الكيمياء باللغة العربية فى القرن الثانى الهجرى ، عرفتها أوربا فى نصوصها العربية وفى ترجمات لاتينية ثم ألمانية (هوليارد Holmyard: ١٧٦٨ م) ثم ترجمها الى الانجليزية ريتشارد راسل R. Russel فى طبعة لندن ١٩٢٨ .

وكتاب الحساب والجبر والمقابلة ، الذى ألفه « أبو عبد الله محمد بن موسى ، الخوارزمى ـ ت ٢٣٦ هـ » فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، نقله « جيرار الكريمونى » الى اللاتينيـــة فى القــرن السادس عشر الميلادى ، ثم نشر « روزن F. Rosen » نصه العربى مع ترجمة انجليزية فى طبعة لندن ١٨٥٠ .

ونشر « ناجل : A-Nagell » ترجمة الأبواب الخاصـــة منه بالحساب كما وضع « جاندتز S. gandz » كتـــابا عن مصـــادر جبر الخوارزمى .

وكتاب (الحاوى لصناعة الطب) الذى ألفه طبيبنا « أبو بكر الرازى ت ٣١١ هـ » من علماء القرن الثانى وأوائل الثالث الهجرى ، تحمل أقدم نســخة عربية منـــه فى أوربا ، تاريخ سنة ١٢٨٢ بمخطوطات المكتبة الوطنية فى باريس (الناسيونال) وترجمه الى اللاتينية « جيرار الكريمونى » عام ١٤٨٦ ونص رينو فى ترجمته الفرنسية لكتاب ادوار براون (الطب العربى) على أن كتب الرازى التى ترجمت الى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءا .

والجزء الخاص منه بالتشريح ، والمعروف بالمنصـــورى ـ أهداه الى المنصور بن اسحاق والى خرســـان ـ نشرت ترجمته فى طبعة ميلانو ١٤٨١ م ثم نشره « كونينج P. Koning » ـ مع أجزاء من (كتاب الكناش الملكى) لعلى ابن عباس والقانون لابن سينا ـ فى طبعة ليـــدن سنة ١٩٠٣ ، ترجمه « برونر W. Brunner الى الألمانية فى طبعة برلين ١٩٠٠ .

ورسالته فى الجدرى والحصبة ، ترجمها « فالا E. Vall » الى اللاتينية فى طبعة البندقيـــة عام ١٤٩٨ م ، و « جاك جوبيـــل :

J. Goupyl » الى اليونانية فى عام ١٥٤٨ م ، وترجمه الى الفرنسية « جاك بوليه J. Poule » فى طبعة باريس ١٨٦٦ . ولوكلير ولينوار Leclere, Lenoir فى طبعة باريس سنة ١٨٦٦ . ونشر « جرينهل W. Greenhill » نصه العربى مع ترجمة انجليزية فى طبعة لندن ١٨٤٨ ، كما نشر النص العربى مع ترجمة فرنسية عام ١٨٩٦ ، وترجمه « كارل أوبيتز E. Opitz » الى الألمانية فى طبعة ليبزج ١٩١١ .

وكتاب « على بن العباس ـ ت ٣٨٤ » كامل الصناعة الطبية ، المعروف بالكناش الملكى . ألفه بالعربية فى القرن الرابع الهجرى . وترجم الى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة ١٤٩٢ ثم فى طبعة ليدن سنة ١٥٢٣ .

وبصريات « الحسن بن الهيثم ـ ت ٤٢٢ هـ » التى ألفها بالعربية فى كتاب من سبعة أجزاء بعنوان (المناظر) عرف مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم فى ترجمات لاتينية بالعصور الوسطى . ونشر « ريزنر Risner » ترجمة لاتينية كاملة للمناظر بأجزائه السبعة ، عام ١٥٧٣ . كما نشر كارل شوى K. Schoy بالألمانية عام ١٩٢٠ ، رسالة ابن الهيثم فى استخراج القطب .

وكتاب (الأدوية البسيطة) للطبيب الأندلسى « ابن الوافد » نشرت ترجماته اللاتينية نحو خمسين مرة .

وكتاب (التصريف) للطبيب الأندلسى « أبى القاسم الزهراوى ـ ٤١١ هـ » ترجم الى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة ١٤٩٧ ثم فى طبعتى ستراسبورج سنة ١٥٣٢ ، وبال سنة ١٥٤١ م . والجزء الخاص منه بالجراحة ، كان أساسا للتعليم

الجراحى بأوربا لبضعة قرون . وقد نشر نصه العربى مع ترجمة لاتينية فى طبعة أكسفورد سنة ١٧٧٨ م ٠

وقانون « الشيخ الرئيس ابن سـينا ، ابى على الحسين ــ ت ٤٢٨ هـ » فى الطب ، المؤلف بالعربيـة فى أوائـل القـرن الخامس الهجرى ، من خمسـة أجزاء ، ترجمـه الى اللاتينيـة « جيرار الكريمونى » ونشر فى طبعات ميلانو ١٤٧٣ ، وبادوا ١٤٧٦ ، والبندقية ١٤٨٢ ، ثم أعيد طبعه حتى بلغت طبعاته عشرين مرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونشر نصه العربى فى روما سنة ١٥٩٣ م ٠

وكتاب « السريف الادريسى ــ ت ٤٥٧ هـ » : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الذى الفه بالعربية فى صقلية ، فى القرن الخامس الهجرى ، كان المرجع الجغرافى الأول فى عصر النهضة ، ونشرت أجزاء منه فى ليدن سنة ١٨٦٦ م ، وفى روما مع ترجمة ايطاليـة سنة ١٨٨٣ ، وفى مدريد سنة ١٠٩١ وترجمه دى جويه ودوتز : M. D. Joeje, R. Doz الى الألمانية فى طبعة أوبسـالا سـنة ١٨٩٤ م ٠

ومفردات « ابن البيطار ــ ت ٦٤٦ هـ » فى الأدوية التى ألفها بالعربية فى كتابه (الجامع فى الأدوية المفردة) فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عرفت فى نصها العربى بأوربا فى عصر النهضة ، وترجمت الى اللاتينية قبل أن ينقلها « فون زونتهايمر » الى الألمانية فى طبعة شتوتجارت (١٨٤٠ : ١٨٤٢ م) و « لوكلير » الى الفرنسية فى طبعة باريس (١٨٧٧ : ١٨٨٣ م) ٠

ثم لا امضى فى سرد ما احيا الغرب من ذخائر تراثنا العلمى (١) الذى صد عنها المتفرنجين من مثقفينا ، كونهـــا من حفريات ماض غبر ، ومخلفات موتى أفناهم البلى ٠

فى الوقت الذى يشهد فيه مؤرخو الحضارة الغربيون ، من أمثال « سارتون وول ديوارنت ، وألدوميلى ، ونللينو ، وأمارى ، وآدم ميتز ، ولوبون ، ودى بور وأوليرى ، وبراون وكراتشكوفسكى. وتوينبى ، وسيجريد هونكه ٠٠٠ » أن هذه الذخائر فى أصـولها العربية وترجماتها اللاتينية ، هى التى أضاءت للغرب مسراه من ظلمات العصور الوسطى الى عصر النهضة والعلم الحديث ٠

وأدع تاريخ العصر الوسيط ، فأرى لغتنا العربية قد سايرت التقدم العلمى فاستطاعت فى فجر العصر الحديث عندنا ، أن تأخذ دورها فى مدارس العلوم العسكرية والهندسية والطب والزراعة ، فى أوائل القرن الماضى ٠ وحين اقتضت ظروف المرحلة الاستعانة بأساتذة من علماء فرنسا ــ مثل كلوت بك الطبيب ، والدكتـــور فيجرى عالم النبات ــ كان المترجمون يعربون مؤلفاتهم ، ويحضرون معهم فى قاعات الدرس لترجمة دروسهم الى اللغة العربية التى ظلت لغة التعليم الرسمية الى بداية عصر الاحتلال ٠ ولم يفكر أعضـــاء البعثات العلمية الأولى ، الذين اوفدوا الى فرنسا لدراسة العلوم

---

(١) من أقرب المراجع لهذا الموضوع ٠ كتاب (العلم عند العرب) لألدوميلى ترجمة د٠ عبد الحليم النجار ، د٠ محمد يوسف موسى ط دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢ ٠ وتجد فى الفصل الأول من كتاب الدكتور توفيق الطويل (العرب والعلم فى عصر الاسلام الذهبى) ــ النهضة العربية ١٩٦٨ ، دراسة وافيـة لهذا الموضوع مع فهرس لمصادر البحث ومراجعـه ٠

وكتاب كراتشكوفسكى : (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) فى ترجمته العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية ٠

الحديثة في أن يعودوا فيلقوا دروسهم على طلاب المعاهد العليـــا بلغة أجنبية ، بل قدموا الى مكتبتنا العلمية رصـــيدا ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم .

ألف الجراح الشهير « محمـــد على البقلى » كتبا عربية في الجراحـــة ، و « محمـــد الشافعى » في الأمراض الباطنيـــة ، و « محمد ندى » في النبـات والحيوان والجيولوجيـــة والطبيعة ، والصيدلى « على رياض » في الصيدلة والسموم ، و « محمد الدرى » في الجراحة وفي الأمراض الوبائية ، و « سالم ســالم » في الطب البـاطنى . و « محمـود الفـلكى » في التقـاويم والمقاييس الفلك ، و « محمد بيومى » في الحســـاب والجبر والمثلثات والهندســـة الوصفية ..

وشارك علماء اللغة في هذه النهضـــة العلمية . فكان منهم خبراء متخصصون في تحرير الكتب العلمية وتصحيحها ، منهـــم « محمد عمر التونسى » مؤلف (معجم الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية) و « ابراهيـــم الدســـوقى « الخبير بمصطلحات العلوم الرياضية . و « رفاعة رافع الطهطاوى ، وأحمد فارس الشدياق . والمعلم بطرس البستانى » في ألفاظ الحضارة والفنون (١) .

وكان تراث هذا الجيـــل من العلمـــاء المصريين ، بين أيدى المستشرقين العلماء الذين وفدوا على الشام في النصف الثانى من

---

(١) من مرجع هذا الموضوع :
(تقويم النيل) و (التعليم في مصر) لأمين سامى : ط القاهرة .
(تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر) لأحمد تيمور ١٩٤٠ .
(المصطلحات العلمية في اللغة العربية) للأستاذ مصطفى الشهابى : معهد الدراسات العربية ١٦٥٥ .
(تاريخ التعليم في مصر) للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ـ القاهرة ١٩٤٥ .

القرن الماضي ، وشاركوا في هذه النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها باللغة العربية ·

وقد اشتهر منهم « الدكتور كرنيليوس فانديك » الذى درس فى بيروت بالعربيه ، الكيمياء والجويات وعلم الأمراض · وعرفت مؤلفاته العربية : الباثولوجية فى مبادىء الطب البشرى ، والنقش فى الحجر ، فى تسع مجلدات صغيرة ، كل مجلدة منها موجز فى علم من العلوم الحديثة ، كالكيمياء والطبيعة والنبات والجيولوجية والفلك والجغرافيـــة الطبيعية · وله كتب عربيـة أخـــرى فى الرياضيات ، وأصول الجبر ، والأصـول الهندسية ، وأصول علم الهيئة ، ومحاسن القبة الزرقاء فى الفلك ·

و « الدكتور جورج بوست » قام بتدريس الجراحـة والمواد الطبية والنبات باللغة العربية · ومن مؤلفاته فيهـــا : المصـباح الوضاح فى صناعة الجراح ، والأقرباذين والمواد الطبية ، ومبادىء التشريح والصحة والفسيولوجية ، وكتاب من جزأين فى مبادىء علم النبات · وقد ألف معجما قيما باللغة الانجيلزية فى (نبات سورية وفلسطين والقطر المصرى وبواديها) ذيله بفهرس للأسماء العربية ، فصحى أو عامية ، لمصطلحات المعجـــم ، عددها نحـــو ألف وخمسمائة اسم ·

و « الدكتور يوحنا ورتبات » علم الطب فى كليـــة بيروت ، باللغة العربية ، وألف بها كتب التشريح ، والفسيولوجية ، وحفظ الصحة · ورسائل عديدة فى مسائل طبية (١) ·

---

(١) الأستاذ مصطفى الشهابى ·· المصطلحات العلمية فى اللغة العربيـة ص ٤٢ ط المعهد ·

الى هنا تنتهى خلاصة المعروف من تاريخنا العلمى ، قبل أن نتسلل الى افقنا دعوى عقم العربية وعجزها .

أما ما بعد ذلك ، فيشبه أن يكون قصة محيرة يشق على الدارس منا أن يميز خيوطها المتشابكة فى نسيج معقد أشد التعقيد !

من أين بدأت هذه الدعوى ؟

وكيف سارت ؟ والى أين انتهت ؟

من العسير أن نستوعب القصة فى اقطار الوطن العربى ؛ وقد أكتفى فى هذا المجال المحدود ، بتتبع فصولها فى مصر التى كانت مركزا للغزو الفكرى بالمشرق ، بحكم دورها القيادى فى فجر اليقظة العربية ، وان تكن القصة قد تكررت بصورة أو بأخرى فى سائر أقطار الوطن العربى .

مع بدء نكبتنا بالاحتلال ، عزلت اللغة العربية عزلا تاما عن تدريس العلوم الحديثة التى فرض المستعمر دراستها بلغته . وساير هذا الانقلاب ترسيخ لفكرة عجز العربية عن تدريس أى علم حديث . وانما حسبها أن تبقى فى الكتاتيب والمعاهد الدينيـــة والمدارس الأولية المحجوبة تماما عن الثقافة العلمية الحديثة .

ثم ما لبثت الفكرة أن جاوزت مجالها المحدود ، فى القول بعجز العربية عن العلم الحديث ، الى دعوى تعلن أن تخلفنا العلمى والقومى والحضارى فى عصور الانحطاط ، انما يرجع الى تشبثنا بلغة بدوية من أحافير عصر الناقة ، لا تصـــلح لغير حداء الابل والوقوف على الأطلال ، ومحكوم علينا أن نظل نعيش بعقلية الريفيين والبدو فى مجتمع الزراعة والرعى ، اذا لم نهجر هذه اللغة العتيقة الى لغة عصرية حية .

وقد اختلطت الدعوى فى بعض مراحلها الأولى بالدعوة الى اللغة العامية . فالدكتور « سبيتا » كان يرى لنا أن نهجر الفصحى السائرة الى الموت ، الى اللغة العامية على أن نكتبها بحروف لاتينية ٠

لكن الحملة على الفصحى سارت بعده فى طريقين : احدهما يدعو الى العامية وقد مضى القول فيه ، والآخر يدعو الى لغة أجنبية حية بديلا للعربية المحتضرة ، وهو ما يتصل بمشكلة لغتنا والعلوم الحديثة ٠

مع بوادر الثورة العرابية ، روج عدد من المثقفين العرب فكرة استبدال لغة أجنبية بلغتنا العربية ، واذ كان قادة الأمة قد وجدوا فى العامية وسيلة الى التعبئة الثـــورية للوعى الشعبى ، فانهـم لم يجدوا فى الدعوة الى لغة أجنبية سوى مسخ لشخصية الأمة وقضاء عليها ٠

وبدأ « عبد الله النــديم » من العــدد الأول من (التنكيت والتبكيت) حملته على دعاة اللغة الأجنبية ، بحوار ســاخر بين ابن البلد وبين « عربى تفرنج » ثم كتب فى العدد الثــانى مقالا عنوانه « اضاعة اللغة تسلم للذات » سأل فيه الناطق بالضــاد . بم يستعيض عن لغته وما لها من مثيل ؟ أعن جهل بتاريخ لغتنا وأسرارها وتراثها وحيويتها ؟ أم عن افتتان بحسن فى لغة أجنبية حديثة ليس فى لغتنا ؟ ثم استطرد يقول : « ان اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الانسان والبهيم ٠٠ فهى أنت ان كنت لاتدرى من أنت ، وهى وطنك ان لم تعرف ما الوطن ٠ أما كونها أنت فلأنك بها تعرف أهلك ، وأنت اذا فقدتهم صرت وحيدا غريبــا فى الوجود لا يقول لك قائل من أنت ٠ وأما كونها وطنك فانه انما يعمر ويسمى وطنا بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن ٠

« أسمعك تقول : اذا فقدت لغتي اعتضت عنها بأخـــرى . اعتضت ولكن بما أضاع منك الوطنيـــة والمعتقدات الدينيـــة .. فتبيت وأنت وطني حر ، وتصبح وأنت في يد أجنبي يصرفك كيف يشاء .. لأن اضاعة اللغة تسليم للذات » .

وهنا تقدم « الأستاذ أمين شميل » فدخل ميدان المعركة بكل وزنه الثقافي ومكانته الأدبية ، فلم يكتف بأن نستعير لغـــة أجنبية لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها ، بل نادى بأن نتخلى عن العربية ، فصحى أو عامية ، الى لغة أجنبية تحيينا علميا وثقافيـــا واقتصاديا . وأكد عقم كل محاولة تبذل لاحياء لغتنا العربية المقضي عليها حتما بالموت !

وكانت وجهة نظره :

ـ أن اللغـــة أداة للتعبير . والمرء لا يقيد بلغـــة خاصـــة اذا ما استطاع أن يصل الى الهدف وهو التعبير عن نفسه . واذا كانت اللغة العربيـــة ليست أداة صالحة للتعبير لضعفها وضعف أهلها ، فلا لوم عليه اذا تركها الى غيرها من اللغات الأجنبية لأن الانسان مفطور على طلب التقدم .

ـ أن اللغة العربية سائرة حتما الى الموت كما ماتت لغات من قبلها كانت لها خصائص ومميزات مثل اللغة العربية . ومع ذلك لم تستطع أن تتغلب على الموت . فبأي شيء نستبقي العربية ونغري بالتمسك بها : بحسن كلام أم بلطـــافة لفظ أم بكثرة مواد لغوية وفصاحة عبارة ؟ أليس ذلك كله كان كثيرا في لغات ماتت كاليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، دون أن يقيها من الموت شيء ؟

ـ أن احياء اللغة العربية بعد موتها أمر معجز عسير غير مأمون العواقب فضلا على كونه غير مجد ، من الناحيتين المادية والعلمية

على السواء . وأنى لنا أن نكون خيرا من أصحاب تلك اللغات الميتة ، ولسنا سوى بشر من صفاتهم العجز ، وخلفنا مهـام هذه الحيـاة تشغلنا بطلب الرزق ؟

« وهل الاشتغال بإحياء ما قضت الحياة بموته يؤتينا خبزا ؟ اذهب الى دوائر أحكامنا ومراكز تجارنا ، وانظر بكم يؤجر الكاتب الضادى والكاتب الدالى ، ثم ألف لك كتابا واجعله كله ضـادا ، واصرف فيه عمرك واعرضـه على قومك ، فترى ما لبضاعتك من رواج .

« أما اللذة العقلية التى أحصلها من درس لغتى لأفهم كتب علمائها الجليلة وأملأ صدرى من فرائد أقوالهم البديعة ، فانك تعلم أولا أن كل لذات علوم الدنيا لا تملأ بطن جائع ، ولا لذة عقليـة لمن لا يحسن غذاء جسده . وقد نسيت ثانيا ، أن مؤلفاتنـا التى نفتخر بها ــ يعنى ذخائر تراثنا ــ قد نهبت لفظا ومعنى الى مراكز الأمم النامية ــ يعنى : الراقية المتقدمة ــ فزادوا عليها امورا كثيرة ، فهى حية فى تلك الأمم ميتة عندك ، لأسباب منها : عدم صحة النسخ فكتبنا كلها أغلاط . ومنها عدم وجود من يفهمها الآن وقد مات من كان يعرف معانيها ، ومنها أن كثيرا قد نسخ بما أظهرته التجارب وقام غيره مقامه . ومنها الزيادات الجوهرية التى حدثت بعـدهم ويجب معرفتها مما لا وجود له فى الكتب ، ومنها عدم وجودها كلها اذ لم يبق منها الا الطفيف .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

وهذا الهزال الباقى اذا كنت سعيدا وعثرت عليه ، تلتزم بدفع ثمنه مالا جزيلا ، ومن أين لك المـال يا أخى وأنت تتجر ببضائع أكلها لعث وبدلتها الموضة ؟

ـ أن من أراد كسبا ماديا وعلميا فليختر لغة غير العربيـة « أية لغة أجنبية ان كتبت بها راجت كتابتك ، وان طلبت تحصيل علم فيها وجدت كتبا لا تحصى فى غاية الضبط والكمال وامتلأت بها خزانتك . منهـا كتب أجـدادك قد تصفحها أضـدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها . ويسروها لك بثمن أرخص من الفجل . فاذا اشتبه عليك معناها وجدت ألوفا يكشفون لك غوامضها ويحلون لك عقدها . نعم ان فى لغة الطفولية لذة ووطنية ، الا أن الوطنية الحقة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة فى المعانى لا فى الألفاظ أعنى فى صيانة حقوق الأفراد واحكام العدل والتسوية والالتفات الى الأمة ولغتها وعدم اعطاء خبز بنيها لغيرهم ، فاذا فعلت هيئتنا ذلك هان علينا كل شىء ، والا فأنت تضرب فى حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب زيد عمرا ، واشتعل الرأس شيبا » .

وقد نشر النديم مقال أمين شميل بعنوان « كلمة غيور على لغتـه » فـى العـدد الخامس مـن » التبكيت والتنكيت : ١٠/٧/١٨٨١) .

ثم بدأ الرد عليه ، فرأى أن يفرغ أولا من بيان حقيقة أن اضاعة اللغة تسليم للذات ، واستغرق الشرح مقالا مطولا فى العدد الثالث عشر من التنكيت (١١/١٨٨١) حيث أوضح أن من يتخلون عن لغتهم يفقدون الجنسية رأسا ويتجنسون باللغـة الطارئة ، « فاذا كانت أمة مستقلة وغيرت لغتها بغيرها ، ضعف فيها الاستقلال بقدر ما يضعف من لغتها ، فاذا تم التغيير فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان » .

لكن أحداث الثورة العرابية لفته فى دوامتها ، حتى اذا عاد الى الظهور بعد أن اختفى تسع سنين ، كان الاحتلال الانجليزى قد تسلط على مرافق البلاد الحيوية ، وعزل اللغة العربية عن المجال التعليمى والعلمى ، وفرض اللغة الانجليزية لغة التعليم .

واذ كانت السلطة حين رخصت للنديم في اصـدار صحيفة « الأستاذ » قد حرمت عليه الاشتغال بالسياسة ، جعل منها النديم مجالا للدفاع عن لغة الأمة ولسان قوميتها ، وحشد طاقته للجهاد في معركة الغزو اللغوى الذى كان ذريعة لترسيخ الاستعباد السياسى والقضاء على الأمة ·

وبدأ نضاله من حيث انتهى به القول في اضاعة اللغة تسليم للذات · عام ١٨٨١ م ، فاسـتأنف رده على المقـال الذى كتبه أمين شميل قبل نحو أحد عشر عاما · يحم يدعه على ترك اللغة العربية وليست لغة الانجيل كتاب دينه ، ولكن ماذا عن القرآن ؟

ورد على المقارنة بين فقر الكاتب الضادى وهوانه لدى الحكام وأصحاب العمل ، مع غنى الكاتب الدالى وقيمته ، « بأن الأمة ليست كلها في دوائر الحكومة ولا متجرة مع أوربا · وانما ألجأ بعض الأمة الى تعلم اللغات الأجنبية سوء تصرف بعض الحكام ، فبدل أن يتكلف الأوربى المنتقل الى بلادنا اتجارا واستيطانا تعلم لغتنا ، ليعاملنا أو يخاطبنا بها ، علموا هم بعض الأمة ليخدم الأوربى ويساعده على نفوذه باتساع نطاق لغته فينا · فحق لهذا الفاضل ـ الأستاذ شميل ـ أن يبكت الذين أحيوا لغة الأجانب باماتة لغة البلاد · ولكن لو فرض وتعلمنا اللغات الأجنبية وتكلمنا بها عند الحاجة اليها ، لوجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها » ·

وحديث « شميل » عن ذخـائر تراثنا التى رأى أن يلتمسها من شاء منا لدى الأجانب التى نهبوها وفهموها وشرحوها ويسروها للقراء ، رد عليـه النـديم بأن في كلامه اقرارا بأن الانجليزى أو الفرنساوى ، لم يفهمها الا بعد أن تعلم لغتنـا وأتقن معـرفة قواعدها ، والا استحال عليه أن ينطق بالكلمات العربية من مخارجها فضلا عن فهم معناها ، « فاذا كان الأجنبى يتعلم لغتنا لينقل ما فيها

الى لغته . أفلا نتعلمها للمحافظة على ما عندنا ؟ واذا كان الأجنبى يقدر على فهم معانى لغتنا وهى أجنبية عنه ، أفلا نقدر على فهم مؤلفات علمائنا ونحن من عشيرتهم ؟ وأما تعليله بالأغلاط ـ فى كتب تراثنا ـ فاظنه من باب التنكيت فان الذين تمدح بهم من الافرنج ما أخذوا تلك العلوم الا من هذه الكتب ، فيلزم أن تكون علومهم فاسدة لأنها مأخوذة عن أغاليط لا صواب فيها ! فان قيل انهم صححوها وهى بغير لغتهم . قلنا : أفلا يقدر أصحاب اللغة على تصحيح كتبهم وهم أدرى بها من غيرهم ؟ وأما قوله : قد مات من كان يفهم معانيها ، فانه منقوض بنفس القائل ، فانه أحد من يتكلمون باللغة العربية وله اقتدار على فهم معانى تلك المؤلفات والأخذ منها والنقل عنها ، كما فعل فى مؤلفاته العربية (١) مع كونه غير مشتغل بجميع العلوم العربية ، فالعلماء القائمون بتعلم تلك العلوم ودراستها يعرفونها حق المعرفة ، ولهم على كل كتاب شروح وحواش ، تشهد بذلك الكتب التى الفت من القرن الأول الاسلامى الى الآن . على أن العلوم التى أهملت فى الشرق كالطب والهندسة والجغرافية وغيرها واستعملت فى الغرب ، قد ترجمها الشرقيون الى لغتهم وقرأوها فى مدارسهم . فهذه المدارس المصرية قرنت فيها العلوم القديمة والمترجمة ، ولم يفتها شىء مما كتب فى أوربا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية الى اللغة الفرنساوية أو الانجليزية الا فى هذه السنة ، وهى نشأة مؤقتة لا تمكث الا بقدر ما يطالب المصريون بحياة لغتهم التى يصرفون أموالهم على المدارس التى هى فيها ، ولا يعارضهم فى ذلك معارض ، فان الأجنبى لم ينفق على المدارس درهما ولا دينارا حتى يحتم علينا لغته التى لا حاجة لنا بها فى التدريس » .

---

(١) الف الاستاذ أمين شميل فى القانون والسياسة والأدب . ومن مؤلفاته : (الوافى) فى تاريخ المسالة الشرقية ، والمبتكر فى الأدب (٥ مقامات + ٢٥ قصيدة) ونظام الحكومة الانجليزية ، والدرة الجليلة فى المباحث القضائية .

وهذا الحوار بين النديم وشميل ، يكفي هنا لأعطاء فكرة عن أبعاد المعركة وأسلحة الفريقين فيها ، لكي نتابع قضية العربيـــة والعلوم الحديثة فنرى انه بقدر ما رفض الضمير القومي التخلي عن لغة الأمة ، عجز عن التصدي لفرض العربية على المجال العلمي ، وقد عزلت تماما عن هذا المجال ، حتى اعترف الوطنيون أنفسهم بقصورها عن أداء العلوم الحديثة ما لم تبذل جهود مخلصة لعلاج هذا القصور ٠

ويمكن القول ان الشعور بمحنة العربية ، بدأ منذ اغلقت المعاهد العلمية ومدرسة الألسن في عصر ســعيد ، ففي عــام ١٨٦٠ دعا « أحمد فارس الشدياق » في (مجلة الجوائب) الى ان تتآزر جهود المشايخ والعلمـــاء ، لتعريب المصطلحات في العلوم والفنون التي لم يكن لسلفهم معرفة بها ٠ وحمل الدعوة من بعده « عبد الله فكري » في (الآثار الفكرية) عام ١٨٧٦ ، ثم تولاها النديم في (الأستاذ) من عام ١٨٩٢ لافتا الى واجب القائمين بالأمر فينا « في أن يحوئوا بين اللغة وموتها باحداث جمعية من مشايخ الأزهر وافاضل العلماء العارفين باللغات الأجنبية ، ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيمياوية والهندسية ومفردات الكلام ، أسماء عربية تدرس بها تلك العلوم »٠

ووجدت الدعوة استجابة عملية ، ففي أوائل عام ١٨٩٣ اجتمع في دار السيد محمد توفيق البكري عدد من علماء العصر وكتابه ، لدراسة مشروع المجمع ، وهم المشايخ : الشنقيطي ، ومحمد عبده ، وحمزة فتح الله ، وحسن الطويل ، والسادة : حفني ناصف ، ومحمد بيرم ، ومحمد المويلحي ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمد كمال٠

ووضعوا لائحة للمجمع ، وانتخبوا السيد البكري لرياسته ، ومحمد بيرم لأعمال السكرتارية ٠ وعقدوا سبع جلسات ناقشـــوا فيها عددا من المصطلحات العلمية ، وكان تاريخ آخر الجلسات يوم ١٨٩٣/٢/١٧ ٠

وفى العام نفسه ، ظهرت (مجله المهندس) فقدمت تجربه عمليه لكتابة البحوث العلمية باللغة الصفحى ، تحديا (لمجلة الازهر) ودحضا لدعوى من قالوا بعجز العربية عن أداء العلوم الحديثة . وقد تولى « المهندس أحمد كامل » تحرير القسم الهندسي والرياضي ، و « الدكتور مهدى » تحرير القسم الطبى ، و « حسن بك حسنى » تحرير القسم الفلسفى .

وشهدت مرحلة اليقظة ، حركة تطور فى أساليب العربية ونهوض باللغة استوعبها « الأستاذ محمد خلف الله » فى كتاب (معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها - ج ١ القاهرة ١٩٦١) .

ثم شهد النصف الأول من هذا القرن ، عددا من علمائنا ، عكفوا فى اخلاص باذل على وضع معاجم للعلوم ، من أشهرها معجم الدكتور محمد شرف ، بالانجليزية والعربية ، فى العلوم الطبية والكيمياء والطبيعية والمواليد والنبات . ومعجم الحيوان والمعجم الفلكى للدكتور أمين المعلوف ، بالانجليزية والعربية أيضا . ومعجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى ، بالعربية والفرنسية ، ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابى ، بالعربية والفرنسية . ونشرت مجلات المرحلة - كمجلة المجمع العلمى بدمشق ، ومجلة لغة العرب ببغداد ، ومجلة المقتطف بمصر - بحوثا علمية واتسعت لكثير من المصطلحات العربية أو المعربة . واشتغل عدد من أعلام العصر بتحقيقات لغوية للألفاظ العلمية ، منهم الأستاذ : أحمد تيمور وأحمد زكى فى بحوثهما فى ألفاظ الحضارة وأسماء البلدان ، والسيد عبد الحميد البكرى فى تحقيقه لألفاظ الفلك . ونشر الدكتور مأمون الحموى بحثا فى المصطلحات الدبلوماسية (دمشق ١٩٤٩) والدكتور عدنان الخطيب فى لغة القانون

(دمشق ١٩٥٢) والدكتور بشر فارس فى مصطلحات فن التصوير (مصر ١٩٤٥) ٠

وشارك العلماء المستشرقون فى هذه الحركة ، منهم الأستاذ جريفل فى (الحيوانات البحرية والنهرية فى سورية ولبنان) والدكتور ماير هوف فى تحقيق أسماء نباتات طبية ، وشرح أسماء العقار لابن ميمون الأندلسى ٠ والدكتور رينو والأستاذ كولين ، فى شرحهما لمخطوط عربى مجهول المؤلف ، عنوانه (تحفة الأحباب فى ماهية النبات والأعشاب) ٠

وتألفت لجان فى مصر ، وسورية والعراق ، لوضع مصورات جغرافية بأسماء عربية صحيحة ، وتعريب المصطلحات العسكرية ٠ وتألفت المجامع الرسمية لتدعيم هذه الحركة ورعايتها : فتأسس المجمع العلمى بدمشق عام ١٩١٩ ، والمجمع اللغوى بالقاهرة عام ١٩٣٢ ، ثم المجمع العلمى ببغداد عام ١٩٤٧ (١) ٠

ولكن هذه الجهود المبذولة على طول نصف قرن ، لم تستطع أن تعيد اللغة العربية الى مجالها الحيوى فى الدراسة العلمية ، بل لم تستطع كذلك أن تحسم الجدل القديم حول صلاحيتها لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها ٠ وقد خلا ميدان المعركة من الأجانب بعد أن خرج منه ويلكوكس وويلمور ، ودخله الأستاذ سلامة موسى ، فردد القول بمسئولية اللغة العربية عن تخلفنا العلمى الى جانب مسئولياتها عن تخلفنا الحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، وعن الجريمة والجنون ٠

---

(١) لمزيد تفصيل عن جهود العلماء والمجامع فى هذا المجال ، اقرأ كتاب الأستاذ مصطفى الشهابى (المصطلحات العلمية فى اللغة العربية) ط المعهد ١٩٥٥ ٠

وكان الأستاذ واعيا لكل ما يشــكو المصلحون الوطنيون من رواسب عصور التخلف والانحطاط ، في المجتمع وفي اللغة ، حريصا على تتبع ما يقترحون من علاج لمشكلات حياتنا اللغوية • وقد أخذ من هذا كله ، ما يؤيد به حملته على هذه اللغة المسئولة عن كل أمراضـــنا !

واشتدت حملته على « الأحافير اللغوية » وسخريته بالزهو المضحك لمن يعتقد أن لغتنا تستطيع أن تجتر نفسها • وهذا الاعتقاد من أكبر الأسباب للفاقة الثقافية التى نعانيها فى وقتنا : « لأن هذه اللغــة لا ترضى مثقفا فى العصر الحاضر ، اذ هى لا تخـدم الأمة ولا ترقيها ، لأنها تعجز عن نقل مائة من العــلوم التى تصـــوغ المســتقبل » (١) •

واضطرب بين الدعوة الى العامية ، وبين دعوته الى لغة علمية ، ليست لغة القرآن وتقاليد العرب البالية ، مع الالحاح فى النصح لنا باستعمال الحروف اللاتينية •

وقد مضى القول فى العامية ، ونعرض هنا للغة العلمية ، من حيث اتصالها بموضوع هذه المحاضرة ، فنراه يتصور أننا سوف نتطور من العقلية الزراعية البدوية ، اذا اشتغلنا بتأليف الكتب فى أقطاب الصناعة فى عصرنا ، بدلا من التأليف فى أعلام تاريخنا •

ويلقى هذا السؤال :

« نحن نحاول أن نرقى بأمتنا ، ولكن ما معنى الرقى ؟ » •

---

(١) البلاغة العصرية ـ ص ٢٣ ط العصرية بالفجالة •

ثم يجيب : « هذا الرقى يعنى أننا نعيش العلمية حيث تستند الحقائق الى البينات لا الى العقائد ··· فيجب لهذا السبب أن تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية وكتابتنا لاتينية » ·

أما اللغة العلمية ، فتعنى عنده « أن كتب المطالعة فى المدرسة والبيت يجب أن تتناول موضوعات البيولوجية والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلا من مقطوعات أدبية من كتب العرب قبل ألف أو خمسمائة سنة » ـ ٩٦

كما تعنى أن نكف عن الأساليب الأدبية ، لنكتب بلغة الأرقام واللغة العصرية ·

وهذه نماذج من مشتقاته من هذه اللغة العلمية :

من الطب : اللغة هى الجهاز العصبى للمجتمع ·

ـ خوف الغارات قد نفذ الى جميع مسام المجتمع ·

ـ يمشى فى تثاقل روماتزمى ·

ـ الوقف كالخثرة فى الدورة الاقتصادية المصرية ·

ـ يعانى تخمة ذهنية ·

من الكيميـــاء : كان مذهب التطـــور من أعظم الخمـــائر الاجتمـــاعية ·

ومن الطبيعة : الاستقلال هو بؤرة الاشتغال الوطنى ·

ـ من الحركات المغنطيسية التى تجذب الشبان ···

ـ الطاقة الموطرية فى الكلمات ·

ومن الميكانيكا : يرى المصباخ الأحمر أينما سار .

ـ الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور .

ومن الموسيقى : الحياة تفقد ايقاعها فى المرض .

ومن السيكولوجية : تجرثمت الفكرة عندى .

ولست أدرى ما قيمة هذه العبارات الركيكة التى ساقها فى باب « اللغة العصرية ـ ص ٧٥ » ونحن السلفيين سدنة لغة القرآن، تجرى أقلامنا بأساليب بيانية من مثل قولنا : نبض المجتمع ، وحس العربية ، وغشية الدوار ، وأخذة المفاجأة ، واتزان الرأى ، وسراب الوهم ، والمناخ الفكرى للعصر ، وفلك القصور وقطب الجماعة ، ومحور الموضوع ، واعصار التتار ، وتيارات الغزو ، وكثافة الحس ، وشلل الحركة ، وعقم الوجدان ...

دون أن تشفع لنا هذه « اللغة العلمية » لدى من ينكرون علينا سلفيتنا اللغوية ، بل ما نزال فى رأيهم نعيش بعقلية بدوية زراعية، ولم تفلح هذه الأساليب فى نقلنا الى مناخ العصر !

وليسوا بحيث يدرون أن لغة القرآن التى زعموا أنها تنأى بنا عن روح عصرنا ، حافلة بروائع من آيات البيان الأعلى ، تستخدم ما يسمونه اللغة العلمية ، على نحو يتضاءل دونه كل ما حشدوا ويحشدون من عباراتهم العصرية الهابطة . كمثل آيات :

« رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت » .

محمد : ٢٠

« أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » ٠

محمد : ٢٣

« أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » ٠

ابراهيم : ١٨

« أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » ٠

النور : ٤٠

« يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » ٠

النور : ٤٣

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » ٠

النور : ٣٩

« ٠٠٠ يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ٠

يوسف : ٤٣

« أولئك الذين اشتروا الضـــلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ٠ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ٠ صم بكم

عمى فهم لا يرجعون • أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين • يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ٠٠ » •

البقرة : ١٨

فأين من هذه الآيات المحكمات • تجرثم الفكرة وقاطرة التاريخ والخثرة فى الدورة الاقتصادية ، والطاقة الموطرية فى الكلمات ؟ ما أرى الأستاذ سلامة موسى ، قدم حلا لأزمة العربية واللغة العلمية ، وهو لم يلبث أن ترك هذه العبارات العصرية ليدعو الى « الخط اللاتينى » الذى انتهت اليه آماله فى رقى الأمة وتطورها واصلاح المجتمع ، وحامت حوله أحـــلامه فى عالم سعيد أو « يوتوبيـــا الضـــائعة » •

وقد انتظر بدعـــوته حتى ظهر الأستاذ عبد العزيز فهمى باقتراحه فى العـــدول عن الحروف العربية الى الحروف اللاتينية قصدا الى التيسير فى ضبط الكتابة وتحديد حركات الحروف بما يغنى عن ضبطها بالشكل • فتلقف الكاتب المصلح « الأستاذ ســلامة موسى » هذا الاقتراح وقال :

« هذا السخط الذى يتولانا كلما فكرنا فى حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقى الثقافى ، تزيد حدته كلما فكرنا وأدى بنا التفكير الى اليقين بأن اصلاحها مستطاع • والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار أعم • ولذلك قلما نجد الشـــجاعة للدعوة الى الاصلاح الجرىء الا فى رجال نابهين لا يبالون الجهلة والحمقى ، مثل قاسم أمين أو أحمد أمين فى الدعوة الى الغاء الاعراب ، ولو مثل

عبد العزيز فهمى حين يدأو الى الخط اللاتينى ، والواقع أن اقتراح الخط اللاتينى هو وثبة المستقبل لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر الى مقام تركيا (؟!) التى أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها وفتح لها أبواب مستقبلها ٠

« وهذا الاقتراح يحتاج أولا الى الغاء الاعراب ٠ وميزاته :

أولا : الاقتراب من التوحيـــد البشرى لأنه وسيلة القراءة والكتابة عند المتمدنين الذين يملكون الصناعة ، أى العلم والقوة والمستقبل ٠ وهذا الخط تأخذ به الأمم التى ترغب فى التجد كما فعلت تركيا ٠ ومن المرجح أن يعم هذا الخط العالم كله قريبا ٠

وثانيا : حين نصطنع الخط اللاتينى ، يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان المشـئومتان شرق وغرب ، فلا نتعير من أن نعيش العيشة العصرية ٠ ولابد أن يجر هذا الخط فى أثره كثيرا من ضروب الاصلاح الأخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية أيضا ، الخ ٠

وثالثا ورابعا وخامسا ٠٠٠

وسادسا : أننا عندما نكتب بالخط اللاتينى نجد أن تعلم اللغات الأوربية قد سهل أيضا ، فتنفتح لنا آفاق هى الآن مغلقة ٠

وبالجملة نستطيع أن نقول ان الخط اللاتينى هو وثبة فى النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التى تنتفع ببقاء الخط العربى والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟ » (١) ٠

---

(١) سلامة موسى : البلاغة العصرية واللغة العربية ، ص ١٠٩ ٠

فهل الأمر حقيقة بمثل هذه البساطة ؟

وهل استطاعت تركيا ــ القدوة والمثال ــ أن تبلغ بحروفها اللاتينية من التقدم الصناعى والرقى العلمى ما لم تبلغه اليابان أو الصين الشعبية ، بلغاتها الشرقية الآسيوية العتيقة ؟

أو هل استطاعت غانا ، والانجليزية لغتها الرسمية والثقافية ، أن تملك من العلم والقوة والمستقبل مالا تملكه مصر أو المغرب مثــلا ؟

أو هل خرج السـودان الجنوبى ، ولغته الانجليزية ، من الشعوب المتخلفة الى الدول المتمدنة ، وتحرر من الكلمتين المشئومتين: شرق وغرب ، فاستطاع أن يعيش المعيشة العصرية وضمن تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين والتفكير العلمى والنفسية العلمية ، وانفتحت أمامه آفاق موصدة فى وجه السودان الشمالى بحكم لغته العربية التى يجبن عن التخلى عنها ، رجال تعوزهم الجرأة والنباهة كيلا يبالوا الجهلة والحمقى ؟

ولكن هذه الدعاوى العريضة التى لا تثبت لنظر أو منطق أو واقع ، وجدت من يؤمنون بها من مثقفينا السائرين غربا ، « لأن هذه اللغة العربية لا ترضى مثقفا فى العصر الحاضر اذ هى لا تخدم الأمة ولا ترقيها ، لأنها تعجز عن نقل نحو مائة علم من العلوم التى تصوغ المستقبل وتكيفه » كما أكد سلامة موسى فى كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) ٠

بل أخشى أن أقول انها ساعدت على ترسيخ الفكرة العامة عن عجز لغتنا عن مسايرة التقدم العلمى ونقل علوم العصر ٠٠

ومن هنا كان الخطر ..

فالأمة حين تحس هجوما على عناصر ذاتها ومقومات أصالتها ووجودها من أجنبي غريب عنها مهما يكن زيه أو قناعه ، تتحفز لاتقاء الخطر في مواجهة عدو سافر ، فتأخذ كلامه بمنتهى الحرص والحذر ، وقد يصل موقفها منه الى حد الرفض والتحدى .

أما حين تنتقل السهام الى أيدى نفر من أبنائها ، فان الخطر يأتى من حيث لا تتوقع . ودون أن تتأهب لاتقائه بشىء من التوجس والحذر والارتياب .

وما يكتبه الأجانب عن عقم العربية ، قلما يصل الى مجال التأثير العام ، بحكم عزلة الجماهير ونفورها من الأجنبى ، وانما يصل اليهم عن طريق المثقفين الذين ينتمون فكريا الى الغرب . وهم عادة ينفذون الى المجال الثقافى بدعوات اصلاحية تقدمية ، ثم لا يلبثون أن يكتشفوا فى تشخيصهم لأمراض المجتمع ، أن لغتنا العربية هى علة العلل وأصل الداء ، والقيد الباهظ الذى يشل خطانا نحو التقدم ، والسد الأصم الذى يحجز بيننا وبين آفاق العصر !

ويمضى وقت غير قصير قبل أن يتصدى الوعى القومى لمواجهة الخطر ، لكن بعد أى يحدث الضجيج أثره فى المناخ الفكرى للأمة ، بحيث تحتاج الى جهد شاق يستغرق أمدا لكى تسترد اتزان خطاها وصفاء أفقها .

وفى قضية « العربية والعلوم الحديثة » كانت دعوى عجز هذه اللغة وعقمها من « سبيتا وويلكوكس وويلمور » وغيرهم من الأجانب الغرباء ، بحيث تذهب مع الريح ، لو لم تجذب اليها عددا

من كتابنا ذوى الثقافة العصرية ، ممن كتبوا فى التقدمية والتطور والاشــتراكية ٠

وعن طريقهم ، أخذت مجراها فى حياتنا القومية ٠ وكان ربط تخلفنا العلمى والثقافى والاجتماعى والحضــــارى ببداوة العرب وجمودها ، هو الذى مكن للدعوى من مناطق التأثير ، فصدق بها من صدق عن جهل أو غفلة وتحير المثقفون العرب الأصلاء من أمر لغتهم التى عرفوا تاريخها العلمى ٠

وكان رأى الكثرة من علمائنا ، أن العلوم الحديثة تقدمت أشواطا بعيدة المدى عن العهد بها أيام آبائنا الأقربين ، فضلا عن جيل اليقظة فى القرن الماضى الذى عرب علوم زمنه ٠

وعلى امتداد نصف قرن أو أكثر ، شــهدت حيــاتنا اللغوية ما أشرنا اليه من جهود فردية سخية لوضع المصطلحات العلمية فى اللغة العربية ، الى جانب ما قامت به الهيئات العلمية من جهود فى هذا الميدان ٠

وتمضى عشرات السنين ٠٠

وما تزال لجان المصطلحات العلمية ، حتى يومنا هذا ، تتابع عقد جلســــاتها ومؤتمراتها ، وتثبت فى تقاريرها أو مجلاتها ، ما يستقر عليه الرأى من مصطلحات علمية ٠ وما يزال مركز تنسيق التعريب فى الرباط ، يوالى ارسال رسائله الى علماء الوطن العربى يستفتيهم فى مشكلات تعريب العلوم ٠

وما يزال عدد من علمائنا وعلماء الاستشراق ، يتابعون نشر كتب علمية من ذخائر تراثنا . قد يكفى أن أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

« مختارات من رسائل جابر بن حيان ، ت ١٩٨ هـ » ٠
تحقيق د٠ بول كراوس ــ ط الخانجى بالقاهرة ١٩٣٥ ٠
« المختصر فى حســـاب الجبر والمقـــابلة للخـــوار زمى ٠
ت ٢٣٦ هـ » ٠

د٠ على مشرفة . ود٠ محمد مرسى أحمد ــ القاهرة ١٩٣٧ ٠

« صورة الأرض للخوار زمى » (١) ظهرت منه طبعة كاملة بعنـــاية متزك ، وبحوث عنه بقـــلم نللينو (١٨٩٥) ومتزك وهونجمان (١٩٢٩) ويقول كراتشكوفسكى : « يجب الاعتراف ، تبعا لنللينو ، وبارنولد ، بأنه لا يوجد شعب أوربى واحد ، يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن أن يقارن بهذا الكتاب الذى ألفه الخوار زمى، أكبر رياضيى عصره ، وواحد من أكبر رياضيى جميع العصور على الاطلاق ، اذا أخذنا فى حسابنا اختلاف الظروف » ٠

« الذخيرة فى علم الطب ، لثابت بن قرة ٠ ت ٢٨٨ هـ » ٠
تحقيق الدكتور جورجى صبحى ــ ط الجامعة المصرية ١٩٢٨ ٠
« الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية ــ ت ٤٢٢ هـ »
الأستاذ مصطفى نظيف ــ الجامعة المصرية ١٩٤٢ ٠

---

(١) الكتاب ذكره ابو الفدا باسم « رسم الربع المعمور » ودرســه المؤرخ البولندى ليلويل Lejewuel وخرج بدعوى أعلنها ، هى أن الكتاب ترجمة لرسالة وضعها باليونانية مؤلف اغريقى عاش فى بلاد الاسلام وافاد من المصادر الاسلامية ٠ لكن دعواه انهارت من اساسها بعثور « سبيتا على أصل المخطوط العربى بالقاهرة سنة ١٨٧٨ ، وقد لفت اليه العلماء بمقالتين نشرهما فى عامى ١٨٧٩ ، ١٨٨٢ ، ثم انتقل المخطوط بعد وفاته سنة ١٨٨٣ الى ستراسبورج ٠ انظر كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ص ٩٨ من الطبعــة الأولى للترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ٠

« المناظر ، للحسن بن الهيثم » كرنكو ، ط حيدر أباد ١٩٢٨ .

« استخراج الأوتار فى الدائرة بخواص الخط المنحنى فيها ، للبيرونى – ت ٤٤٠ هـ » أحمد سعيد الدمرداش . الدار المصرية للنشر بالقاهرة .

« الآثار الباقية ، لأبى الريحان البيرونى » معهد الاستشراق ، طشقند .

« كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر ، للبيرونى » كرنكو ، حيدر أباد سنة ١٩٣٧ .

« القانون المسعودى ، فى الهيئة والنجوم ، للبيرونى » د. بول كراوس .

« القانون فى الطب ، للرئيس ابن سينا ت ٤٢٨ هـ » ١٣ جزءا ط بولاق ١٨٧٧ ، طشقند ١٩٥٦ .

« الشفاء ، فى المنطق والطبيعيات والالهيات ، لابن سينا » . المجمع اللغوى بالقاهرة ١٩٥١ ، ١٩٦٥ .

« شكل القطاع ، لنصير الدين الطوسى – ت ٦٧٣ هـ » الآستانة ، سنة ١٣٠٩ هـ .

« المعتمد فى الأدوية ، لابن البيطار ، ت ٦٤٦ هـ » .

الأستاذ مصطفى السقا . ط الحلبى ١٩٥١ .

« الفوائد فى أصول علم البحار ، لأحمد بن ماجد » – ط باريس ١٩٢٤ .

« ثلاثة راهمانجات فى علم البحار ، لأحمد بن ماجد » . شوموفسكى ، موسكو ١٩٥٧ .

بحوث فيدمان فى كتاب « نهاية الادراك فى دراية الأفلاك » لقطب الدين مسعود الشيرازى ـ ت ٦٣٤ هـ ـ تلميذ العالم الفلكى نصير الدين الطوسى • وفى الكتـــاب مباحث فى الكوزمولوجيـــا والمترلوجيا والميكانيكا والبصريات •

ـ وانظر ما نشر المستشرقون من تراث العـــرب الفلـــكى والجغرافى والملاحى ، فى فهارس كراتشكوفسكى لكتابه : « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، وفى كتـــاب نللينو : « الفلك عند العـــرب » •

الى جانب ما نشر علمـاؤنا من بحوث فى المجـلات العلمية ، بمصطلحات عربية أو معربة فى العـلوم ، تجدون بيانا لهـــا فى محاضرات الأمير مصطفى الشهابى « المصطلحات العلمية فى اللغة العربية » • من منشورات المعهد •

ولا أثر من هذا الجهد الســـخى المبذول يصل الى حياتنا العلمية ، ودعونا من حياتنا العامة التى التقطت من بعض مصطلحات المجمعيين ، ما اتخذت منه موضوع فكاهة ومادة تندر ••

والمفروض أن جهود العلمـــاء فى نشر التراث العلمى لعصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، واستكمال الحركة العلمية فى التأليف والترجمة لمطلع العصر الحديث فى النصف الأول من القرن الماضى ••• كانت موجهة الى تمكين اللغة العربية من استرجاع مكانها فى تدريس العلوم والتأليف فيها ، ونقل كل جديد مستحدث الى المكتبة العلمية العربية •

لكن الذى حدث ، هو أن الكليات العلمية فى جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود ، وتابعت تدريس الطب والهندسة والطبيعيات والرياضيات ٠٠ باللغة الانجليزية أو الفرنسية ، وكأن الجامعات فى واد وجهود العلماء والهيئات فى تعريب العلوم الحديثة ومصطلحاتها فى واد آخر ٠

باستثناء كلية الطب فى الجامعة السورية ، التى تأسست فى دمشق سنة ١٩١٩ ــ فى عهد الملك فيصل الأول ــ باسم « المعهد الطبى العربى » لتحل محل كلية الطب التركية ، وصممت من عام تأسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية ٠ وكان مجلس أساتذتها أشبه بمجمع لغوى ، تدارسوا فيه المصطلحات التى جاءت فى تراثنا من كتب الطب ، وفى الكتب المصرية التى ألفها علماؤنا من عصر محمد على ، والكتب التى ألفها أساتذة الطب فى جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية الى اللغة الانجليزية ٠

واستطاع أساتذة دمشق أن يؤلفوا كتبا قيمة فى فروع الطب المختلفة ، وفى الكيمياء والفيزياء والمواليد :

فألف « الدكتور مرشد خاطر » سفرا فى علم الجراحة من ستة مجلدات وأوجزها فى مجلدين ٠

وألف الدكتور « أحمد حمدى الخياط » كتابا فى علم الجراثيم والأستاذ « محمد جميل » فى علم الطبيعة ، والدكتور « حسنى سبح » فى الأمراض الباطنية (٧ مجلدات) والدكتور « محمد صلاح الدين الكواكبى » فى الكيمياء ٠٠٠ (١) ٠

---

(١) لكلية طب دمشق جهود أخرى فى الميدان : أشار اليها الأمير مصطفى الشهابى : المصطلحات ت ، ص ٨ ٠

ولكن هذه التجربة الناجحة بالعربية لم تتكرر ·

بل لم تستطع ، بعد أكثر من أربعين عاما ، أن تقنع جامعات وطننا العربى الحديثة بتعريب كلياتها العلمية ·

وكانت المفـــارقة العجيبة أن جامعة الأزهر ، أعرق جامعة اسلامية فى الشرق الاسلامى ، وجامعة الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية ، اعتمدتا اللغة الانجليزية للتدريس فيما استحدثتا من كليات علمية !

وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر ، قد وصلت الى باب مســـدود ··

* * *

ثم كان الفصل الأخير من هذه القصة المعقدة ، رســالة من موسكو تحمل مجموعة من الكتب العلمية الحديثة مطبوعة بالعربية الفصحى فى « دار مير » للطباعة سنة ١٩٦٨ !

ولم نسمع أن لجانا عقدت هناك لبحث مشكلات هذا التعريب، او أن جدلا أثير حول صلاحية اللغة العربية لأداء علوم العصر !

وانما خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذى ألفه :

ف تسيجيلسكي : اللحام الكهربائى ·

ما ليشيف ، ونيكولا ييف ، وشوفالوف : أسس الميكانيكا العملية ·

أفروتين : أسس تشغيل المعادن ·

جلاجوفا : الدوال ومنحنياتها ٠

وتابعت « دار مير ، فى موسكو » نشر الكتب العلمية المعربة ، فى أحدث علوم العصر ٠ أذكر منها :

بيولوجيا الفضـــاء ، طاقة الذرة ، نظرية الاحتمالات ، علم التحكم الأتوماتيكى ، نظرية النسبية ، أسس الميكانيكا التطبيقية ، مقاومة المواد ، الرياضيات العالية للمدارس الفنية ٠٠٠



ما أقسى الدلالة التى تعطيهـــا هذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية فى موســـكو ، بعـــد كل ما تضـــخم به رصـــيدنا من تقارير اللجان ومؤتمرات المجامع وجهود العلماء ، على امتداد نصف قرن وأكثر !

وما أبلغ هذا الفصل الختـــامى لما طال جدلنا فيه وتعقدت أزمتنا به ٠

لقد بدأت القصة بعزل الاستعمار لغتنا عن العلم ، ثم الدعوة الى هجر لغتنا واستعارة الانجليزية أو الفرنسية للعلوم الحديثة ، وكأن هاتين اللغتين ، دون الألمانية والروسية أو اليابانية والصينية مثلا ، هما المفتاح السحرى لكنوز العلم ٠٠

وانتهت بكتب دار مير للطباعة فى موسكو ، فى عصر اقتحام الفضاء والوصول الى القمر ، فأين نحن من البداية ومن النهاية ؟

وحين أقول : انتهت القصة ، فانى أعنى أنها انتهت ، أو يجب أن تنتهى من حيث هى قضية لغوية ظلت معروضة أكثر من نصف قرن ، تواجه الأمة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن أداء العلوم الحديثة وقصورها عن نقل علوم العصر ، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمى وفاقتنا الثقافية ...

ويبقى أن يلتمس الباحثون أسبابا أخرى لاستمرار عزل اللغة العربية عن معاهدنا العلمية العالية ، بعد أن خرجت دعوى عقم لغتنا وعجزها من مجال الخصـــومة والجدل ، وظهر بوضـــوح أننا فى تســـويغ عذر جامعاتنا بهذا العقم فى العربية ، والتماسنا شتى الوسائل لعلاجه ، كنا كمن يحرث فى البحر ...

واذا كانت العربية قد صمدت لكل تلك الحملات الضارية التى جاءتها من الأجانب الغرباء ومن أبنائها المتغربين ، تحاربها باللهجات العامية حينا وبالخط اللاتينى حينا آخر ، وتتهمها بالبداوة والعقم فتعزلها عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر .

أقول : اذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلأنها دون ريب تملك من القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت ...

(المدرســـة)

روزاليوسف
(١٨٨٨ – ١٩٥٨)

ان المحن العظيمة تخلق شخصيات عظيمة ، واذا نظرنا حولنا ووجدنا أسماء لامعة ، فلابد أن هذا اللمعان جاء بعد طريق شاق من الكفاح والمعاناة ، هكذا كانت أجيال القرن العشرين ونجومه ، وهكذا كانت أيضا روز اليوسف تلك السيدة التى استطاعت بذكائها ان تجعل اسمها يتردد بيننا الى اليوم كما لو كانت على قيد الحياة ! وهذه السيدة أيضا لاقت من المحن ما قد لا يستطيع تحمله عتاة الرجال ، لتثبت بجدارة أن قدرة المرأة على التحمل قدرة لا حدود لها ، فلم تكن تملك القدرة على التحمل فحسب بل كانت تملك القدرة على اتخاذ القرارات الصعبة ٠ وهى أيضا سيدة صاحبة تصور استطاعت أن تسبق عصرها بفكرها وعملها ٠

وحياة روز اليوسف هى مجموعة من القصص المثيرة للدهشة دائما وللشـفقة أحيانا ، ويبدو أن المآسى التى لاقتهـا فى حياتها جعلتها تسقط مراحل كاملة منها حتى ان أولادها وأحفادها لا يعلمون

شيئا عن تلك الفترات · فقد أرادت لحياتها المعلنة أن نبدأ مع بداية عملها بالفن الذى اشتهرت من خلاله . أما قبل ذلك فبعضه معلوم وبعضه اجتهادات !

وروزاليوسف أو فاطمة اليوسف ـ وهذا هو الاسم الأصلى لها ـ هى ابنة لأحد التجار ذوى الأصول التركية ، يدعى محمد محيى الدين اليوسف ، وقد ولدت فى مدينة طرابلس اللبنانية سنة ١٨٨٨ ، وتوفيت والدتها السيدة « جميلة » عقب ولادتها فتعهدتها أسرة مسيحية صديقة لأسرتها بسبب كثرة سفر الأب وأطلقت عليها اسم « روز » · وحين انقطت الأموال التى كان يبعث بها الأب كمصاريف مقابل اقامة ابنته لدى تلك الأسرة أصبحت الفتاة عبئا ، وجاءت أسرة أخرى صديقة وطلبت اصطحابها ـ الطفلة ـ لتهاجر معها الى البرازيل · ومن المعروف أن الكثير من عائلات الشام قد هاجرت الى الأمريكتين فى نهاية القرن الماضى · وقد وافقت الأسرة على التخلى عن الفتاة · وهنا عرفت روز لأول مرة أن هذه ليست أسرتها ، فوافقت على السفر بمصاحبة تلك الأسرة . الا أنه لم تكد ترسو السفينة التى تقلهم فى ميناء الاسكندرية بعض الوقت حتى هربت الفتاة الصغيرة لتبدأ حياتها وحيدة ·

الى هنا والقصة مؤكدة ، أما بعد ذلك فيقال ان احدى الأسر تولت رعايتها وهى أسرة اسكندر فرج ، وكان ممثلا وصاحب فرقة مسرحية · ولا ندرى شيئا عن فترة وصولها الاسكندرية ثم ذهابها الى القاهرة عن طريق هذه الأسرة ، كما لا ندرى شيئا عما اذا كانت عملت لدى أحد فى هذه الفترة ؟ لقد كتمت ذلك كله فى ذكرياتها ولم تقصه على أحد حتى الى ابنتها آمال طليمات ! ولذلك حين سألتها بنفسى عن ذلك أجابت بانها لا تعرف شيئا عن هذه الفترة لأن والدتها لم تحك لها عنها شيئا ! ·

ثم تبدأ الفترة المعروفة في حياة روز اليوسف والتي حطت فيها أول خطواتها الى طريق الفن • وتتحدث عنها روز اليوسف بضمير الغائب فتقول : كانت (أي روز اليوسف) يتيمة الأب والأم ، وكانت صبية صغيرة ، تذهب أحيانا الى مسرح يقع بالقرب من محلات صيدناوي اسمه « دار التمثيل العربي » تتفرج على المسرحيات وعلى أبطال هذه الحياة الغريبة التي تجري أمام عينها على المسرح •

« ولم تكن هذه الفتاة الصغيرة تفهم شيئا من هذا الذي يمثلونه انما هي معجبة مبهورة بهذه المناظر المزخرفة والأضواء الساطعة ، وبهذه الثياب التاريخية التي يلبسها الممثلون وأشرطة الذهب والفضة التي تتحلى بها الممثلات ! هذا العالم الزاخر الخرافي من البطولات والمآسي والأحلام كان يبهرها وكانت تجلس الساعات تحدق في المسرح ولا شيء يملأ خيالها الا أن تلبس — يوما — هذه الثياب العجيبة التي تلبسها الممثلات » •

هكذا انجذبت الفتاة الصغيرة الى ذلك العالم المسحور — عالم الفن — أما كيف بدأت الطريق فتقول عن ذلك : « قررت الفرقة أن تخرج رواية اسمها « عواطف البنين » وعهدت باخراجها الى عزيز • وكانت الرواية تحتوي على ثلاثة أدوار نسائية البنت والأم والحفيدة ، وكانت الفرقة تضم ست ممثلات كلهن سوريات مسيحيات • الممثلة سناني ، وابريز ستاتي ، ومريم سماط ، ووردة ميلان ، وصالحة قاصين وكن جميعا في سن الأربعين فما فوق •• ماعدا صالحة قاصين التي كانت في سن الشباب • وعهد عزيز بدور البنت الى أصغرهن صالحة قاصين ، ودور الأم الى ابريز ستاتي •• وبقي دور الجدة العجوز فرفضن جميعا أن يمثلنه ، رفضت كل واحدة منهن أن تبدو أمام الناس جدة عجوزا وأما لزميلاتها الأخريات •• وعبثا ذهبت محاولات عزيز عيد وصرخاته فيهن وأخيرا صاح بأعلى صوته ••

أتعرفون الفتاة الصغيرة التى تزورنى هنا أحيانا .. سوف أعطيها دور الجدة . ولم ينتظر عزيز عيد حتى يسمع تعليقاتهن ، فاسرع الى الفتاة الصغيرة يستدعيها ويقترح عليها ان تقف على خشبة المسرح ، فى دور الجدة .

ومع أن هذا العرض كان يحقق أحلاما تساورها . الا أن الرعب اصابها ، وشعرت بمغص شديد وألم فى جميع أطرافها ودوار يكاد يغيب بها عن الوجود .

أممكن هذا ؟ أتستطيع أن تقف حقا على خشبة المسرح ..

وبدأت الفتاة الصغيرة تتعلم التمثيل على يد الفنان الكبير عزيز عيد ، لتبدأ مشوار النجاح والشهرة ، وتتوالى الأدوار والمسرحيات والعروض والفرق : فمن عزيز عيد الى جورج أبيض ثم يوسف وهبى حتى أصبحت الممثلة الأولى ، أو كما أطلق عليها النقاد فى ذلك الوقت سارة برنار الشرق عندما مثلت مارجريت جوتيه فى غادة الكاميليا .

الا أن المسرح لم يلبث أن شهد تدهورا كبيرا صاحبته حملات نقدية لاذعة للفن والفنانين فى الصحف ، ومن هنا نبتت فكرة روز اليوسف فى اصدار « مجلة فنية نقدية محترمة » ــ حسب تعبيرها ــ أما كيفية ولادة هذه الفكرة لديها فتقول : « نبتت فكرة المجلة فى محل حلوانى اسمه « كساب » كان يوجد فى المكان الذى تشغله الآن سينما ديانا ، وكنت جالسة ساعة العصر مع الأصدقاء محمود عزمى وأحمد حسن وابراهيم خليل نتحدث عن الفن ، وتطرق الحديث الى حاجتنا الشديدة الى صحافة فنية محترمة ، ونقد فنى سليم ، يساهم بالنهوض فى الحياة الفنية ويقف فى وجه موجة

المجلات التى تعيش على حساب الفن كالنباتات الطفيلية . ولمع فى راسى خاطر وقفت عنده برهة قصيرة ، ثم قلت للزملاء بعد هذه البرهة من الصمت .. لماذا لا أصدر مجلة فنية ؟؟

القيت الفكرة على الزملاء فأخذوا يحملقون فى مدهوشين ، وكانت اللهجة التى تكلمت بها كافية لاقناعهم باننى جادة » .

وتمضى روز اليوسف فى كلامها فتقول « وطرحت على الزملاء سـؤالا ثانيـا : ماذا نسمى المجلة ؟ وتوالت المقترحات بالأسماء الأدبيـة والعلمية والفكاهيـة ، للمرة الثانيـة فاجأتهـم باقتراح غريب .. لماذا لا نسميها « روز اليوسف » ؟؟

وكنت جادة فى هذا الاقتراح أيضا ، فهذا هو الاسم الذى اشتهرت به وعرفه الناس ، وهو اسم عزيز على أحب أن أضعه على عمل كبير أقدمه الى هؤلاء الناس الذين تعلقوا به .. ومع أننى أرجح أن الزملاء جميعا لم يكونوا مقرين لهذا الاقتراح الا أنهم لم يجدوا بدا من الموافقة .

هذه هى روز اليوسف صاحبة الأفكار الجريئة المدهشة ، صاحبة المواقف الجادة التى تتمسك بها مهما كان الثمن . فلم يكن الطريق مفروشا بالورود ، ولا الأمور كانت كما هى عليه اليوم ، فهذه الفكرة لاصدار مجلة نبتت سنة ١٩٢٥ أى فى زمن كانت المرأة تحارب فيه للتعلم لا أن تضطلع باصدار مجلة ! خصوصا أنها لم تكن من أصحاب الأموال أو الأطيان ، فهى فنانة تعمل لتعيش . والفن هو الحرفة الوحيدة التى تعلمتهـا ، لكنه الاصرار وقـوة الشخصية التى تتمتع بها روز اليوسف ، بل انها لم تكن ، تحمل شهادة مدرسية أو مؤهلا علميا ، والأكثر من ذلك أنها تعلمت الكتابة فى سن كبير فلم يكن التعليم منتشرا فى ذلك الوقت ، واعتقد أن

الذى قام بتعليمهــا عزيز عيد عندما اكتشف موهبتهــا وأراد ان يصقلها فتقول روز اليوسف :

« آمن عزيز بنبوغ تلميذته فأخذ يعلمها بكل قواه ٠٠ اخذ يشـــترى لها الكتب لتقرأ وأحضر لهــا شيخا يلقنها دروســـا فى اللغة العربية نظير خمسين قرشا فى الشهر ، كان يدفعها من جيبه ، وأخذ ـ اذا جلس معها ـ يحدثها بالفرنسية ، ويحاول أن يعلمها هذه اللغة تدريجيا ٠

ولم تلبث روز اليوسف أن أصـــبحت فى طليعة منقفى هذا العصر ، وقد لا يعلم الكثيرين أن روز اليوسف حين همت بانشاء مجلتها لم تكن تملك غير خمسة جنيهات ! وكانت هى اللبنة التى بنت بها ذلك الصرح الكبير ٠ وكان مقر المجلة هو مسكنها وهو عبارة عن شقة من يقصدها يصعد ٩٥ من درجات السلم !

وفى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٥ صدر العدد الأول من روز اليوسف لتبدأ معه السيدة روز اليوسف رحلتها فى بلاط صاحبة الجلالة وتتحول الى مصنع كبير للمفكرين ٠ فقد كانت تجيــد اكتشــافهم وكانت تجيد ابرازهم ، فأخرجت أجيالا من المفكرين والصحفيين أثروا هذا الوطن بعقولهم الوقادة ٠ وقد شجع نجاح المجلة روز اليوسف على عدم الاكتفاء بها فقط فقد أصدرت جريدة يومية سنة ١٩٣٥ استطاعت أن تحقق انتشــارا كبيرا ٠ كما أصــدرت مجموعة من الكتب الفـــكرية والثقافية ٠ وأخيرا أصـــدرت مجلتها الثانية « صباح الخير » ٠

الطريف أن هذه السيدة التى قدمت كل ذلك للساحة الثقافية والفكرية فى مصر لم تكن تجيد كتــابة المقــال ، بل كانت تملى أفكارها على أحد ليصيغه لها فى شكل مقال ، أما كتابها الوحيد فصدر بعنوان « ذكريات » ويحتوى على سيرتها الذاتية ٠

وقد يتعجب البعض لماذا اخترت روز اليوسف لتكون أحد فصول هذا الكتاب ، على الرغم من أنها لم تكن صاحبة قلم كباقى شخصيات هذا الكتاب ، ولكنى أرى أن ما قدمته من فكر وثقافة ومن رجال ساهموا فى تكوين عقل هذا الشعب وفى ثقافته ، يدفع بها عن جدارة الى مكان الصدارة بين شخصيات هذا العصر ·

ولعل أروع ما قدمته روز اليوسف الى الثقافة العربية هو ابنها احسان عبد القدوس الذى ربته وكونته ليكون استمرارا لها مع تمتعه بموهبة فذة فى الأدب · فيقول احسان عن أمه « لا أدرى كيف استطاعت أن تنشئنى هذه النشأة ، وأن تغرس فى هذه المبادىء وهذا العناد ، وان تقودنى كطفل وكشـــاب فى مدارج النجاح · فى حين انى لم التق بها أبدا الا وفى رأسها مشروع ، وبين يديهـــا عمل ·· كيف استطاعت أن تجمع فى شخصـــها كل هذا ؟ » ·

واذا كان هذا التساؤل قد حير احسان عبد القدوس ، فلابد انه حير كثيرين غيره حتى انى أعتقد أن هذه القوة التى تتميز بها شخصية روز اليوسف كان لها تأثيرها الســـلبى على حياتهـــا الخاصـــة ·

فزواجها الأول بالفنان محمد عبد القدوس لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات منذ سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩١٩ ، وقد طلقت منه قبل أن تلد ابنها منه احسان · وزواجها الثـــانى من الفنان الكبير زكى طليمات ، وكان يصغرها سبع سنين ، وعلى الرغم من الصداقة التى ربطت بينهما ، انتهى أيضا بالطلاق بعد انفصال دام عدة سنوات ، وأنجبت منه ابنتها آمال · ثم تزوجت للمرة الثالثة من قاسم أمين ، وهو حفيد الرائد الكبير قاسم أمين وكان يعمل محررا وقد تزوجته فى ١٣ يونيو سنة ١٩٣٩ واستمرت زوجة له حتى وفاتها فى ابريل ١٩٥٨ وكانت تكبره بأكثر من عشرين عاما · ..

وربما كانت قوة شخصـــية روز اليوسف أحد أهم أسباب طلاقها المتكرر · وفى الوقت نفسه فان طفولتها التعسة كانت من أسباب شدتها وقسوتها فى تربية أولادها ! فقد ذكرت لى ابنتها السيدة آمال طليمات أنها كانت حين تغضب من قسوة والدتها وتشكو الى والدها ، كان يخفف عنها بالقول بأن هذه القسوة ما هى الا بسبب طفولة أمها التعيسة · وتقول أيضا ان أمها كانت تتمتع بشخصية قوية جدا ، وذات طموح لا حدود له · وبالفعل فان هذا الطموح لو كان أقل من ذلك ما كانت روز اليوسف قد سجلت هذا الاسم الكبير فى تاريخ الصحافة ·

ورغم هذه الشدة التى تصــل الى درجة القسوة فى شخصية روز اليوسف ، فقد كانت تتمتع برقة مفرطة وعطف على أبنائها ·

يقول احسان عبد القدوس : كانت أما حنونا مرهفة العاطفة الى حد أنها كانت أحيـــانا تبكى وهى تقبلنى · بل كانت عاطفتها تغلبها أحيانا فتقبلنى أمام زملائى المحررين ، وأذوب أنا خجلا منهم ·· بل كانت تفرح باليوم الذى أقضيه فى بيتها كأنها أم ريفية تستقبل ولدها بعد غياب طويل · وتكاد تشعرنى بانها ابنتى أكثر منها أمى » !

على هذا النحو فان كل من عاصر روز اليوسف لم يختلف كثيرا على شخصيتها ، فهى قوية الى حد القسوة ، رقيقة المشاعر حتى وان أخفتها ، شجاعة فى مواجهة المحن · وعلى الرغم من أن تعرض ابنها احسان للسجن هو أكبر محنة يمكن أن تواجهها أم ، فان روز اليوسف لم تكن كباقى السيدات ، لقد كان موقفها مختلفا ، فهى تقول :

« فى سنة ١٩٤٥ عاد احسان الى « روز اليوسف » وكتب فيها أول مقال نشر فى الصحف المصرية ضد اللورد كيلرن ، وكان

النقراشى رئيسا للوزارة ، فصادر المجلة وقبض على احسان وأودعه السجن ، وقد حاولت أن أتحمل المسئولية نيابة عن ابنى ، وان ادخل السجن بدلا عنه ، ولكن احسان ثار ، وشهد مكتب وكيل النيابه مناقشة حادة لا أعتقد ان تاريخ الصحافة فى العالم شهد مثلها .. مناقشة بين أم وابنها ، كل منهما يريد أن يتحمل المسئولية وكل منهما يريد أن يدخل السجن !

« وانتصر وكيل النيابة لابنى وحمله المسئولية وأودعه السجن . وعندما خرج عينته رئيسا للتحرير » .

فى ذلك الحين كتبت روز اليوسف خطابا مفتوحا الى ابنها نشرته فى المجلة بمناسبة توليه رئاسة التحرير قالت فيه :

« ولدى رئيس التحرير » .

« عندما اشتغلت بالصحافة وأسست هذه المجلة كان عمرك خمس سنوات وقد لا تذكرانى حملت العدد الأول ووضعته بين يديك الصغيرتين وقلت « هذا لك » .

« ومرت عشرون عاما قضيتها وأنا أراقب فى صبر وجلد نمو أصابعك حتى تستطيع أن تحمل القلم ونمو تفكيرك حتى تستطيع أن تقدر هذه الهدية التى كونتها بدمى وأعصابى خلال سنين طويلة لتكون اليوم لك » .

هذه هى قصة روز اليوسف التى عاشت حياة حافلة تقلبت فيها بين المحن والمجد والنجومية ، ذاقت قسوة الحياة وتمتعت بلذة الفوز والنجاح ، وكتبت بدمها وأعصابها قصة كفاح ونجاح فريدة . وعندما توقفت حياتها فى أبريل ١٩٥٨ كان اسمها مايزال يتردد بيننا ، وسيظل كذلك طالما كانت مجلتها تنبض بالحياة وتحمل باسم روز اليوسف . ونحن نقدم للقارىء جزءا من مؤلفها الوحيد « ذكريـــات .... » .

- **حذاء المندوب السامى فى عهد الملك فؤاد**
- **تشرشل لا يسمح للصحفيين المصريين بالجلوس**
- **أول خـــلاف بيـــنى وبـــين الوفـــد**

كان المفروض أن تعيش وزارة صدقى عشر سنوات على الاقل .. أو هكذا رسم الانجليز والملك فؤاد خطتهم . وكان أصدقاء صدقى لا يكفون عن ترديد هذا الذى استقر عليه العزم .. وما الذى ينقصهم لانقاذ هذه الخطة ؟ .. ان القوة فى يدهم ، والقصر يسندهم ، والشعب مهما سخط أو غضب فهو عاجز عن اقتلاع الوزارة من الحكم . ودستور ١٩٢٣ سوف ينساه الناس بعد قليـل !

على أنه لم تمض ثلاث سنوات على ميلاد دستور سنة ١٩٣٠ حتى اخذ ينتشر احساس عام بأن هذه الحالة الشاذة لا يمكن أن تدوم .. وأن هذا النظام الذى أقيم على أسنة الرماح لا يستطيع أحد أن يجلس عليه طويلا ..

وبدأت الخلافات والعقبات تتراكم فى الأفق ..

بدأ الملك فؤاد يتخلى عن صدقى بعد أن ادى مهمته ، وظهر ذلك فى صورة خلافات حادة نشبت بين صدقى وبين زكى الابراشى وكيل الديوان الملكى ورجل الملك الأول فى ذلك الوقت ٠٠

وقرر الانجليز أن يغيروا سياستهم ـ كما تعودوا أن يصنعوا من حين لآخر ـ فنقل سير لورين الذى كان يسند صدقى من مصر وعين بدلا منه سير مايلز لامبسون ٠٠ كان سير مايلز لامبسون قبل ذلك سفيرا لانجلترا فى الصين ونجح فى عقد معاهدة هناك ، فرأى الانجليز أن يستفيدوا من مواهبه فى مصر ٠

وشعرت الوزارة ان الأرض تميد تحت الأقدام ، وبدأ الأنصار يرسمون خطط الفرار من السفينة الغارقة ٠ واشتد الخلاف بين حزب الاتحاد ـ الذى أسسه على ماهر ويحيى ابراهيم ـ وحزب الشعب . وهما الحزبان اللذان كانا يشتركان فى الحكم ٠

وفعلا ٠٠ لم يمض على وصول سير مايلز لامبسون الى القاهرة شهران حتى قدم صدقى استقالته ! وقيل ان مراد محسن ناظر الخاصة الملكية زار صدقى فى منزله وقال له ان الملك قبل استقالته ، وكان ذلك قبل أن يقدم صدقى أى استقالة ، فأسرع صدقى يقدمها ٠٠

ولكن الملك فؤاد كان يأمل ـ بعد اخراج صدقى ـ فى أن يبقى النظام نفسه كما هو ٠٠ نفس البرلمان ٠٠ ونفس الدستور ٠٠ وأن تظل الوزارة الجديدة مستندة الى حزبى الشعب والاتحاد ٠

. . . . .

وكان عبد الفتاح يحيى قبل ذلك وزيرا فى وزارة صدقى ٠٠ ووكيلا لحزب الشعب ، ثم وقعت حوادث مشهورة باسم

حوادث البدارى ، كانت صورة من صور استبداد الادارة فى ذلك العهد بالأهالى وبالفلاحين بالذات ، ووصلت قضية البدارى الى محكمة النقض والابرام وكان يرأسها عبد العزيز فهمى ٠٠ وأصدرت محكمة النقض حكما أثبتت فيه اعتداء البوليس على الأهالى ووصفت تصرف الحكومة بأنه « اجرام فى اجرام » وأراد عبد الفتاح يحيى أن يحقق فى حوادث التعذيب على ضوء هذا الحكم ٠٠ ورفض صدقى خشية أن يكشف التحقيق عن سائر تصرفات الحكومة نحو الأهالى ٠٠ فاستقال عبد الفتاح يحيى احتجاجا ٠٠ وأعلن انه مستقيل أيضا من منصب وكيل حزب الشعب ! ٠٠

فلما أصبح عبد الفتاح يحيى رئيسا للوزارة ، كانت الخطة الموضوعة له أن يستند الى أغلبية حزب الشعب فى البرلمان ٠ فأعلن عبد الفتاح يحيى أنه مازال وكيلا لحزب الشعب ! ٠٠ وأدخل فى وزارته وزيرين من حزب الشعب هما على المنزلاوى وابراهيم فهمى كريم ٠ واغتاظ صدقى من ذلك فجمع حزبه وأصدر قرارا بفصل الوزيرين على المنزلاوى وابراهيم فهمى كريم ! وكان معنى ذلك أن حزب الشعب سيعارض الحكومة ٠ وهنا لوحت السلطة لنواب الحزب بحل المجلس ، وهم يعرفون أنهم لا سند لهم فى المجلس غير رضى السلطات ، فأسرعوا يصدرون قرارا آخر بالترحيب بالوزيرين ٠٠ وصدر القرار رغم أنف صدقى ٠٠ الذى لم يلبث أن استقال من رئاسة الحزب ٠

ومرت بمصر فترة مائعة ، غريبة ٠٠ القصر لا يهمه الا أن يحتفظ بسلطته كاملة ٠٠ ومعنى ذلك ألا يعود دستور ١٩٢٣ بأى شكل ٠٠ والشعب قد قاوم مقاومة عنيفة ، وبذل أقصى ما يستطيع من جهد ٠٠ فهو لا يرضى بدستور ١٩٢٣ بديلا ،

والانجليز يقفون في الوسط محاولين ان يستفيدوا من هذا النزاع الى أقصى حد طبقا لخطتهم التقليدية ٠٠ فهم حينا يؤيدون القصر في استبداده حتى يضعفوا من قوة الشعب ، ويمزقوا صفوفه ٠٠ وحينا يمثلون دور الملائكة فيجبرون الملك على الرضوخ ـ بعض الشيء ـ لمطالب الوفد ليكسروا حدة السخط من جهة ، وليشعروا الملك بأنه ـ ما يزال ـ من صنع أيديهم ، وانه مدين لهم وحدهم بالعرش الذى يجلس عليه ٠

أما الوزارة الجالسة فى الحكم ٠٠ سواء كانت وزارة صدقي أو وزارة عبد الفتاح يحيى ، فهى الريشة فى مهب الرياح ٠٠ هى الدمية التى تتحرك بأوامر القصر وفى حدود سياسة الانجليز ٠٠ فهى تستمد وجودها من ارضـائهم وبقدر ما تنجح فى ارضائهم بقدر ما تمد لها أسباب الحياة ٠٠

وكان الناس يرون من آيات تدخل الانجليز والقصر عجبا ٠

كان زكى الأبراشى ناظـرا للخاصـة الملكية ، فهو اذن غير مسئول ، فى المسائل السياسية ، ولكن الغاء الدستور أو تعطيله معناه ـ دائما ـ أن تنتقل خيوط السياسة الى أيدى غير المسئولين ٠ وذلك وضع قديم وجد منذ بدأت الاعتداءات على الدستور ، لا فى أيام فاروق وحده كما يتوهم الناس ٠ وقد بلغ من تدخل الأبراشى فى شئون الحكم انه كان يحضر اجتماعات مجلس الوزراء ليملى رغباته ، أقصد ليملى رغبات مولاه !!

وكانت « روز اليوسف » لا تكف عن مهاجمة هذا الوضـع الشاذ ٠٠ وقد كتبت مرة تقول : « ٠٠٠ فى أوائل حكم صدقى باشا خطف معادة زكى الأبراشى باشا رجله وذهب يحضر اجتماع مجلس الوزراء ٠٠ ونشرت احدى الصحف الخبر ، وزفت البشرى لقرائها بأن زكى باشا وصدقى باشا يحبان بعضهما موت ، ولذا

لا يطيقان الفراق لبضع الساعات التى يجتمعها مجلس الوزراء ! ولكن الحكومة أصدرت فى اليوم التالى بلاغا رسميا تقول فيه ان الأبراشى لم يحضر جلســة مجلس الوزراء ٠٠ وبقى زكى باســا يحضر جلسات مجلس الوزراء على عينك يا تاجر .

« وولت وزارة صدقى باشا وحلت مكانها وزارة عمى نوحه باشا (أى عبد الفتاح يحيى باشا) وأحس زكى الابراشى باشا بأن الوزارة الجديدة أضعف من أن يرهقها بزياراته الدائمــة فقلل من حضور اجتماعات وجلسات مجلس الوزراء ٠٠ ثم ذكرت احدى الصحف منذ يومين أن سعادته حضر اجتماعا ـ لا مجلسا ـ للوزراء ، فراحت صحف الوزارة تكذب الخبر وتقول : « والنبى أبدا ! » .

هذا عن القصر ٠٠ أما عن الانجليز ٠٠ فقد كان اليوم لا يمر دون حادث صغير أو كبير يؤكد فى الأذهــان انهم محتلون وأنهم غاصبون .

فى وزارة صــدقى ذهب الملك فؤاد الى الاحتفال الذى اقيم لاستقبال أول طيــارين مصريين يعودون من انجلترا ٠٠ وكان يجلس بجوار الملك السير برسى لورين المندوب السامى الانجليزى ٠٠ وجلس السير برسى لورين فى مكانه ، ثم وضــع ســاقا على ساق ، بحيث أصبح نعل حذائه يواجه وجه الملك تقريبا ٠٠

والتقطت الصحف الصــورة ونشرتها ٠٠ وشــنت « روز اليوسف » حملة عنيفة على هذا التصرف العجيب ، الذى يكشف نوع العلاقة بين الملك والانجليز .

وكان سير برسى لورين متزوجا من سيدة بارعــة الجمال لعلها من أجمل سيدات السلك السياسى اللواتى عرفتهن مصر

كانت فى الحفلات قبلة الأنظار ، وكعبة القصاد من الوزراء المصريين والطامعين فى الوزارات ٠

وفى وزارة عبد الفتاح يحيى ، كان السير مايلز لامبسون فى أجازة وناب عنه مستر بيترسون ٠٠ وفوجئت الوزارة يوما ببيترسون يزور مصالح الحكومة ، ومرافق الدولة ٠٠ ويفتش عليها ، كأنه هو الرئيس المسئول عنها ٠

واهتزت الحكومة اهتزازا عنيفا ٠٠ ثم لم تحرك ساكنا :

هكذا مضت تلك الأيام الغريبة بين الغاء دستور ١٩٢٣ ، وبين اعادته ٠٠ لم تنفع كل مظاهر السلطة والسلطان فى أن تغير من الأمر الواقع شيئا ، وهو أن الناس ساخطون على النظام ، كارهون له ٠٠ وان كل سلطة تذهب وكل سلطان يزول ٠٠ ويبقى الناس ٠ ويبقى ما يحبون ٠٠

واتفق الجميع على انه لابد من التغيير ٠٠ وبدأ المرشحون لرئاسة وزارة الانتقال يلمعون ٠٠ وكان المرشحون ثلاثة : علي ماهر وحافظ عفيفي وتوفيق نسيم ٠ الأول ترشحه السراى والثاني يرشحه الانجليز والثالث أقرب من زميليه — قليلا — الى ارضاء الرأى ٠ أو كان حلا وسطا بين القصر والوفد والانجليز ٠٠ خصوصا وقد عرف انه اشترط لقبوله الرياسة أن يعاد دستور ١٩٢٣ ٠

وشكل توفيق نسيم الوزارة ٠٠

وفى هذه الأيام ، وقع أول خلاف بينى وبين الوفد ، وكان خلافا بسيطا ٠٠

وقد كانت سياسة الوفد تقوم ـ بعد سقوط صدقى ـ على مهادنة المندوب السامى الانجليزى الجديد استنادا الى البوادر التى توحى بأنه سيتخلى عن هذا العهد ويؤيد اعادة دستور ١٩٢٣ وعلى العكس من ذلك ظل الوفد على معاداته الشديدة للقصر ومقاطعته للملك فؤاد ٠٠ وحدث يوما أن نشرت خطابا مفتوحا الى الملك فؤاد بالمطالبة باعادة الدستور وانهاء الحالة الشاذة القائمة ٠

واستدعانى مكرم عبيد وقال لى : كيف تكتبين خطابا مفتوحا للملك ؟ لقد ظن الناس اننا نريد بذلك مصالحة الملك وهذا غير صحيح ، فمن قال لك بكتابة هذا الخطاب ٠٠

ودارت بيننا مناقشة طويلة أوضحت له فيها انى لا أعبر عن رأى احد ٠٠ الا عن رأيي الخاص ٠٠ وحاولت بعد ذلك ان اقابل النحاس لأشرح له وجهة نظرى فى الموقف السياسى ولكننى لم أستطع ٠ اذ كان الأستاذ مكرم عبيد هو الذى يتحكم فى مقابلات النحاس ٠٠

وفى هذه الأثناء كان الأستاذ التابعى قد خرج من السجن وأخذ يستعد للسفر الى أوروبا ٠٠ وكنت أعرف أن هناك خطرا يهدد التابعى من جراء معاداة الحكومة له وبعض القضايا الأخرى فشجعته على السفر بشدة ليبعد بنفسه عن الخطر فى هذه الظروف ٠

ولما سافر التابعى ، التقيت بصديقى الأستاذ الكبير خليل ثابت وقال لى انه ينصح بأن يبقى التابعى فى الخارج ٠٠ ثم طلب منى ألا أذكر لأحد انه أسدى الى هذه النصيحة ٠

وأرسلت الى التابعى مرة أخرى أطلب منه ألا يعود الآن ٠

والاستاذ خليل ثابت رجل احترمه واصدق ما يقول · ولست انسى له قصة طريفة وقعت اثناء زيارة تشرشل لمصر خلال الحرب العالميـة الاخيره ، اذ دعي الصحفيون المصريون الى السـفاره البريطانية ليقابلوا تشرشل ·· ودخل خليل ثابت قاعة الاجتماع فوجد الصحفيين واقفين ، ووجد القاعة خالية الا من مقعد واحد كبير اعد ليجلس عليه تشرشل ·· وأسرع خليل ثابت الى كبار موظفى السفارة يحتج على ذلك ، وطلب اما أن يرفع مقعد تشرشل أيضا واما ان توضع مقاعد لكل الصحفيين الحاضرين ·· والا فانه سوف ينسحب ·· وفعـلا انسحب خليـل ثابت ، ولم يقـابل تشرشـل ·

وعاد التابعي من أوروبا ·· لتقع بيننا الخلافات التى انتهت بخروجه ·

فقد اخذ المحيطون بالأسـتاذ التابعي يدفعونه الى الخروج والانفراد بعمل مسـتقل ·· وكان من جراء ذلك أن تعكر الجو وتوالت الخلافات على التـافه والجليـل · ولما اشتد الخـلاف استدعانى الأستاذ مكرم عبيد ــ وكان يحب التابعى على العكس من مصطفى النحاس الذى كان اطمئنانه الى أكثر ــ اسـتدعانى ليتوسط فى الأمر ، واقترح لتسوية الخلاف أن أجعـل التابعى شريكا لى فى ملكية المجلة ·· ولكنى اعتذرت وقلت له ان اسـم المجلة شيء خاص بى ، واحب أن أحتفـظ به لابـنى ! فهو الذى يستطيع أن يحافظ عليه بعدى ·

وخرج التابعي ومعه مصطفى أمين وعلى أمين وسعيد عبـده وصـاروخان وغيرهـم ، وأحدث خروج عدد كبير من المحررين دفعـة واحدة هزة للمجلة لم يكن سـهلا التغلب عليها · وأحاط

بى النـاس ينذروننى بأن المجلة سـتموت · ولكننى تمسـكت بموقفى · وعزمت على المضى وحدى ·

وحين أفكر الآن فى أسباب الخلاف ، أجدها كلها تافهة ، وأجد ان الخلاف ثم الانشـقاق كان طبيعيا ، بل وحتميا ، كان لابد أن يخرج هؤلاء ·· وان يسير كل واحد منهم وراء مستقبله ويشق طريقه ·

وفكرت فى عمل أثبت به عكس ما ذهب اليـه الخائفون · وأبرهن به على أن « روز اليوسف » راسخة لا تضعف ·· فماذا أصـنع ؟ ·

قررت أن أصدر جريدة يومية كبرى ·

- **العقاد لا يكتب فى جريدة تحمل اسم « واحدة ست » :**
- **آخر مرة قابلت فيها مصطفى النحاس ٠**
- **الطريق نحـو الصـحافة اليوميـة الحديثـة ٠**

نويت ان أصدر جريدة يومية كبرى ٠

وذهبت استخرج رخصـة الجريدة الجديدة باسـم « روز اليوسف اليومية » ومرة أخرى اعترض الكثيرون من أصدقائى على اختيار هذا الاسم ٠ ولكننى وجدت ان « روز اليوسف » قد أصبح اسما معروفا ، وان وضعه على الجريدة اليومية سوف يغنينى عن حملة الاعلانات الضخمة التى سيكون على القيام بها لو أخترت للجريدة اليومية اسما جديدا ٠

وبدأت أفكر فى رئيس التحرير الذى يمكن أن أستعين به ٠٠ واتجه ذهنى أول الأمر الى الأستاذ فكرى أباظة ٠٠ وفعـلا اتصلت به وعرضت عليه العمل ٠٠ ونظر الى فكرى مندهشـا لايكاد يصـدق اننى أقدم على هذا العمـــل ولما أزلت دهشـته قال أن الجريدة سـتكون وفدية طبعا ، وانه كعضو فى الحزب

الوطنى لا يستطيع أن يكون رئيس تحرير جريدة يومية تنطق بلسان الوفد ·· وقلت أن الجريدة وان كانت ميولها وفدية . الا انها مستقلة الى حد كبير · والوفد ـ كالحزب الوطنى ـ يتزعم مقاومة انجلترا التى نتفق جميعا على معاداتها ·· ولكنه تمسك بموقفه واعتذر مرة أخرى ·

ورشح لى بعض الأصدقاء الدكتور محمود عزمى ·· وكان الدكتور عزمى يكتب هو والأستاذ العقاد فى « الجهاد » جريدة الوفد الصباحية الأولى ·· ولكنهما كانا مختلفين مع الاستاذ توفيق دياب صاحب « الجهاد » والتقيت بالدكتور عزمى وشرحت له الفكرة فرحت بها ·· وتحمست السيدة زوجته لفكرة خروجه من « الجهاد » · واتفقنا على أن نلتقى فى مكتب الأستاذ ابراهيم عبد الهادى ـ المحامى ـ لنكتب العقد ·

وقد أبدى لى الأستاذ ابراهيم عبد الهادى تخوفه من الدكتور عزمى وقال لى اننى لن أرتاح فى العمل معه ·· ولكننى طمأنته ·· وجاء الدكتور عزمى وكتبنا العقد ، وكان يقضى بأن يكون مرتبه الشهرى ستين جنيها ·· فضلا عن خمسين قرشا عن كل الف نسخة توزع بعد العشرة آلاف نسخة الأولى ·· على أن يبدأ العقد من اول مارس ١٩٣٥ وعلى أن يكون الأستاذ ابراهيم عبد الهادى هو الحكم بيننا اذا اختلفنا فى تفسير العقد ·· وطلب الدكتور عزمى مرتب شهرين مقدما دفعتهما له فورا ·· وبدأ يتردد على الادارة ويشاركنى فى الاستعداد لاصدار الجريدة ·

وفكرت فى أن أضم الاستاذ العقاد أيضا الى أسرة الجريدة وذهب اليه رسول يجس نبضه ·· وسأله العقاد :

ـ الجرنال حيكون اسمه أيه ؟

ـ « روز اليوسف اليومية » ٠

ـ لا ٠٠ أنا لا أعمل فى جرنال يحمل اسم واحدة ست !!

ولكن الرسول لم ييأس من هذا الموقف فمضى يفاوضه ٠٠ وعدل الأستاذ العقاد عن موقفه نظير بعض الشروط المالية : أن يكون مرتبه ٨٠ جنيها فى الشهر ـ وكان مرتبه فى الجهاد ٧٠ ـ وأن يأخذ مرتب أربعة شهور مقدما تخصم من مرتبه بالتقسيط ـ ٢٠ جنيها كل شهر ـ وأن تكون سياسة الجريدة وفدية ! ٠

ووافقت على هذه الشروط كلها ، وكانت شروطى أن يكتب مقالا افتتاحيا كل يوم ، وصفحة أدبية كل أسبوع ٠

وكتبنا العقد فى مكتب الأستاذ ابراهيم عبد الهادى أيضا ونص فيه أن سياسة الجريدة وفدية ٠

وقد عاتبت الأستاذ العقاد بعد ذلك على كلمته عن العمل فى جريدة تحمل اسم سيدة ، فقال انه لم يقصد الى كونها تحمل اسم سيدة ، بل كان اعتراضه على تسمية الجريدة باسم شخص أيا كان ، ولو كانت الجريدة تحمل اسم سعد زغلول نفسه لأبدى نفس الملاحظة ٠

خرج محمود عزمى والعقاد اذن من الجهاد لينضما الى تحرير الجريدة الجديدة وخرج بعدهما توفيق صليب سكرتير التحرير ليكون سكرتير التحرير « روزاليوسف » ٠٠ فأدى ذلك الى أزمة عنيفة كانت لها آثار بعيدة ٠٠ فقد كان عزمى والعقاد هما أكبر كاتبين فى « الجهاد » ، وخروجهما الى جريدة منافسة توشك على

الصدور اضعاف له بغير شك وكان « الجهاد » هو الجريدة المقربة الى الأستاذ مكرم عبيد سكرتير الوفد وصاحب الكلمة العليا فيه .. وكان ثمة فتور بين مكرم من ناحية وماهر والنقراشى من ناحية أخرى .. فظن مكرم أن ماهر والنقراشى يدفعاننى الى اصدار الجريدة أضعافا لتوفيق دياب ولـ « الجهاد » التى يوجهها مكرم ، فى حين كان ماهر يكتب فى « كوكب الشرق » التى تصدر مساء . ولم يكن هذا الظن على شىء من الصحة ، فقد أصدرت الجريدة اليومية كما أصدرت المجلة الاسبوعية بغير دافع الا من نفسى .. واستطاع مكرم أن يقنع مصطفى النحاس بذلك فتكونت لديه فكرة ضد الجريدة قبل صدورها .. خفف منها بعض الشىء زيارة قام بها العقاد للنحاس .. أوضح له فيها أن الجريدة الجديدة وفدية كـ « الجهاد » .. وانه يخدم بقلمه نفس المبدأ الوفدى فى المكان الذى يريحه .

وكان ثمة سبب زاد تشكك النحاس فى الجريدة .. هو ما أشرت اليه من قبل من مهاجمتى لوزارة توفيق نسيم بعنف فى الوقت الذى كان الوفد فيه يهادن وزارة توفيق نسيم ويسندها .

واستدعانى مصطفى النحاس لمقابلته .. وذهبت اليه فى بيت الأمة .. وكان يجلس على مكتب سعد زغلول ، وقد وضع فى عروة جاكتته وردة حمراء يانعة ـ وكان قد تزوج حديثا ـ فلم يكد يرانى حتى لوح بالمجلة فى يده وصاح فى وجهى :

ـ أيه القرف اللى انتو كتبينه ؟

ودهشت لهذه المفاجأة ، فوقفت ذاهلة لحظة ثم قلت :

ـ فيه أيه يا باشا ؟

فصـاح :

ـ اننى بتعارضى وزارة توفيق نسيم ليه ؟

ـ وزارة توفيق نسيم جابها الانجليز والسراى ٠٠ وهى التى تؤجل عودة الدستور ٠٠ ازاى ماهاجمهاش ؟ ٠

فقاطعنى قائلا :

ـ لا يا ستى ٠٠ آنا ما أحبش تناقشينى فى السياسـة ٠٠ اننى يعنى عايزه محمد محمود وصدقى يرجعوا ؟ ٠٠ احنا تعبنا ٠

وخرجت قبل أن يتم حديثه ٠٠ وكلمة « احنا تعبنا » التى اسمعها منه لأول مرة ترن فى أذنى ، وما تزال الى الآن !! وقد شعرت ان هناك شيئا يباعد بينى وبين الوفد ٠٠ وان بقيت المجلة وفدية ، وبقيت الخطة المقبلة للجريدة اليومية مبنية على تأييدهـا الوفد ٠

وهدأت أزمة خروج العقاد وعزمى من « الجهاد » لتنشب أزمة أخرى ٠

فقد كنت عازمة على أن تصدر الجريدة صباحية ، وكان هذا أيضـا مما يسىء الى « الجهاد » التى كانت تصـدر صباحية ٠٠ وطلب مكرم عبيد أن تصدر الجريدة مسائية ولكنى رفضت ٠

وكانت العادة قد جرت على أن يذهب كل من يريد أن يصدر جريدة أو مجلة وفدية الى مصطفى النحاس بوصفه زعيما للوفد ٠٠

يستأذنه فى الصدور ، ويستمع الى نصائحه وتوجيهاته . وينلقى تأييده الأدبى .. وعقدت العزم فى أول الأمر على ألا أذهب اليه .. متأثرة بمقابلته السابقة لى .. ولكن الأستاذ العقاد أقنعنى بأن أنسى هذه المقابلة ، وأن أذهب لزيارته كالعادة .

وفعلا .. ذهبت مع الدكتور عزمى بوصفه رئيسا للتحرير لمقابلته .. وما ان دخلنا عليه حتى قلت له :

ـ ان شاء الله تكون راضى يا باشا .

فأسرع يقول :

ـ لا يا ستى أنا مش راضى .

قالها بطريقته البسيطة ـ بين المداعبة والجد ـ التى تنم عن قلب أبيض ونية خالصة .. وهى طريقة يمكن أن يتقبلها أى انسان بلا غضب .. فضحكت . واستطرد قائلا :

ـ انتو حتمشوا فيها زى المجلة ؟

فقلت :

ـ زى ما انت عايز يا باشا .

فرضى قليلا ثم قال :

ـ وحتطلعوا الصبح ليه ؟ .

فشرحت له الموقف . وكيف اننا سنطبع الجريدة فى مطابع « البلاغ » ولما كانت « البلاغ » تصـدر مسائيـة فلابد أن تصدر « روزاليوسف » صباحية .. فبان عليه الاقتناع .. وان بدا أنه اقتناع غير كامل .

وتحدثنا بعد ذلك عن السياسة العامة طويلا ثم صـــافحته وانصرفت ، ولم أكن أعلم أن هذه هي آخر مرة أقابل فيها مصطفى النحاس ·· حتى كتابة هذه السطور على الأقل !

ومضت بنا دوامة الاستعداد لاصـــدار الجريدة ·· وكنت مصممة على أن تولد من يومها الأول جريدة كبرى لا ينقصها شيء ·

وجمعت لها أسرة تحرير ضخمة ضمت أبرز المحررين في ذلك الوقت ·· كان الدكتور محمد أبو طايلة رئيسا لقسم الأخبار والدكتور رياض شمس رئيسا لقسم الأحاديث والدكتورمحمد علي صالح يحرر صفحة التجارة والصناعة ·· وكان سكرتير التحرير توفيق صليب ، وكان بين المحررين المخبرين كامل الشـــناوى (وكان له دور كبير سيجيء حديثه فيما بعـد) ولطفى عثمـان وعبد الصـــبور قابيل وراغب عبد الملك ومحمد حسنين مخلوف وحبيب جاماتي وعلي بليغ ·· صفحة السينما يحررها أحمد كامل مرسي · وصفحة الشباب يحررهـا يوسف حلمي ·· وصـــفحات التسلية والصور والمجتمع يشرف عليهـا زكي طليمات · الصفحة الشرقية يحررها جميل الرافعي وصفحة الأطفال تحررها «أبله زوزو» ــ السيدة زكية عبد الحميد ــ وصفحة الأوراق المالية الأستاذ نجيب ولاية ·

وكان مصـــور الجريدة الأســـتاذ محمد يوسف ورسامها للكاريكاتير رفقي ·· وجعلت لها مندوبا في لندن الأستاذ محمد نجيب ·· ولست أذكر عشرات آخرين في أقسام الترجمة والتحرير والتصحيح وفي الاسكندرية والأقاليم ·

ولم تكن الصحافة اليومية قد عرفت قبل ذلك جريدة تحمل هذا السخاء في الأبواب ·· وأبواب جديدة تماما على الصحافة

اليومية كأبواب الأطفال والتسلية ·· ولم تكن الصحف اليومية قد حملت قبل ذلك رسما كاريكاتيريا قط ·· حتى الأزهر كان له باب ·· وعرفت الصحافة فيها أيضا التعقيبات الصغيرة الخاطفة التى شاعت الآن ·· كان يكتبها كامل الشناوى ويوسف حلمى ·

وانقطعت مع الأستاذ زكى طليمات والمرحوم رفقى لرسم خطوط تبويب الجريدة بصفحاتها الست عشرة ·· وكان تبويبها فريدا لم يتكرر بعدها ·· اذ جعلنا ترتيبها بالمجلات ·· الصحافة السياسية فيها هى الصفحات الأولى المتوالية لاصفحات الوسط كما هو شائع فى الصحف اليومية الآن ·

وحددنا يوم ٢٥ مارس ١٩٣٥ موعدا لصدورها ·

وفى الأيام القليلة السابقة لموعد الصدور بدأت بوادر المضايقات من جبهات شتى ·

رفضت بعض الصحف أن تنشر اعلانات عن صدور الجريدة !

وعين مكرم عبيد على بك سالم عضو الوفد المصرى مديرا لسياسة « الجهاد » ليشعر الناس أن « الجهاد » هى جريدة الوفد لا « روزاليوسف » ·

ورفض النحاس أن يرسل كلمة يصدر بها العدد الأول رغم ان كاتب الجريدة الأول هو كاتب الوفد الأول ، الأستاذ العقاد ·

وأردنا ان نستعيض عن ذلك كله ، فأخذنا نبحث عن كلمة مأثورة نجعلها شعارا للجريدة ·· وتعبنا فى البحث حقا ، ولاحظ

العقاد ان النحاس — على عكس سعد مثلا — لم نشتهر عنه كلمات مأثورة ·· وأخيرا اخترنا قوله : « من كذب بالأمة أو داخله فيها الشك فليس منها » ·

وجاء اليوم الحاسم الذى يجب أن نعد فيه العدد الأول من الجريدة ·

ومنذ الصباح الباكر ازدحمت الادارة التى لم تكن تزيد على سبع غرف بهذا الحشد الهائل من الكتاب والمخبرين والفنانين · وكانت أسرة المجلة الأسبوعية قد انكمشت فى غرفتين فقط تاركة الخمس حجرات الأخرى لأختها اليومية الكبيرة ·

كنت انا أجلس فى غرفة واحدة مع العقاد · والدكتور عزمى يجلس ومعه سكرتير التحرير توفيق صليب · وزكى طليمات مع « الدكاترة » رؤساء الأقسام · والأربعون محــررا يحتشدون فى الصالة وبقية الحجرات · و « الفراندة » قد جلس فيها الرسام وبعض موظفى الادارة ·· وبالقرب من المطابخ جلس المصور محمد يوسف ·· وكل محرر يبحث لنفسه عن مكان فى الصالة · أو فى حجرة التليفون أو فى أى مكان يجد فيه موضعا لقدم ·

ومن حجرة العقاد كان يرتفع صوته الجهورى ·· ومن حجرة أخرى تتصاعد فكاهات كامل الشناوى يرددهــا بين ضــحك كبار الوفديين الحاضرين ·· ومحمود عزمى غارق بين الأخبار والمقالات والفاكهة التى ألزمه الطبيب بتناولها اتقاء لمرض السكر ·· والزوار والمشجعون من جميع الهيئات لا ينقطع سيل ورودهم ولا يخف ·

وكنت أقف وسط هذه الدوامة ·· مضــطربة بعض الشيء لا تستقر عينى على واحد من هذا العدد الهائل من رجال الصحافة

الذين يعملون كخلية النحل .. وكنت ربما أدق الجرس لأستدعى محررا ثم لا أصبر حتى يجىء فأذهب اليه قبل أن يبرح مجلسه .. كان شعورى كمن ضغطت على مفتاح آلة هائلة فلما تحركت الآلة وارتفع صوتها وقفت أتأملها فى مزيج من الفخر والقلق .

ولما جاء المساء انتقل هذا الجيش من الصحفيين الى جريدة « البلاغ » .. حيث كان المرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة (وكان قد خرج من الوفد) قد أعد كل شىء فى المطبعة لكى يستقبل مواد الجريدة .. وسهر الرجل تلك الليلة معنا ، يشاركنا فى العمل والقلق ، ويقول لى من حين لآخر : انه من الجنون اخراج جريدة من ست عشرة صفحة بهذا الشكل ! . وعزمى بأعصابه الهادئة يؤكد أن كل شىء سيتم فى موعده المرسوم .. وأصدقاء الجريدة الكثيرون واقفون على رأسهم الأستاذ حفنى محمود .

وكان الأستاذ عبد القادر حمزة قد أحاط المطبعة بعدد هائل من العمال لكى يراقبوا الداخلين والخارجين الذين جاءوا من الصحف الأخرى يتجسسون على أنباء الجريدة الجديدة .

وطلب منى عبد القادر حمزة أن أدير الماكينة لأول مرة .. فادرتها ، ومضت الآلات تدوى وتخرج من باطنها الأعداد المتتابعة ، وسقط أول عدد فى يدى ، فتحته والدموع تتساقط من عينى .

واسترحت .. وهدأت أعصابى قليلا .

وتسرب ضوء الفجر من نوافذ مطبعة « البلاغ » .. وبدأ بعض الساهرين ينصرفون ، وجيش من باعة الصحف يتجمع حول المطبعة شيئا فشيئا .. وهمس فى أذنى أحد الحاضرين يقترح على أن أخرج الى المدينة لأشهد ظهور الجريدة فى السوق .

وخرجت من المطبعة وخلفى جيش طويل من المحررين الى كازينو البسفور فى ميدان باب الحديد .. بوصفه أكبر ميدان فى القاهرة ، ولم نكد نجلس حتى شعرنا بالجوع فجأة ـ أو فالأصح تذكرناه فجأة ! ـ فأسرعنا نطلب الطعام .

ولم نكد نضع اللقمة الأولى فى أفواهنا ، حتى ترامت الينا صيحات الباعة وهم يجرون من أطراف الميدان :

ـ « روزاليوسف اليومية .. روزاليوسف اليومية » .

وهجم علينا بائع ، ألقى بين يدى نسخة وهو يقول :

ـ أول عدد يا هانم .

ألقاه بين يدى وجرى يقذف بالاعداد بين أيدى سائر المحررين ثم عاد يجمع منا الثمن .

ولم أمض فى تناول الطعام .. فقد كان يجب أن أذهب الى البيت وأستريح .. فبعد ساعات ، يجب أن أستعد لاصدار العدد الثانى .

● اضطررت الى سرقة مصطفى النحاس

● كيف نشأت شركات توزيع الصحف ..

● ٥٠ فتاة مصرية لبيع « روزاليوسف اليومية » !

عدت الى البيت حوالى الساعة السادسة صباحا .. بعد أن اطمأن قلبى الى أن الجريدة اليومية قد ظهرت كما أحب .. وانها الآن فى السوق ينادى عليها الباعة ويتخاطفها القراء .. وكان فى وهمى أن أنام ساعتين أو ثلاثا ، قبل أن أعود الى مكتبى وأستعد لاصدار العدد الثانى .

على اننى كنت فى حالة من التعب والاجهاد أصبح النوم معها مستحيلا ، فقد كانت أعصابى - من كثرة ما أجهدها السهر وأرهقها الترقب والتوجس والقلق - منتبهة لا تريد أن تغفوا ، مشدودة لا تريد أن تسترخى ، وعبثا أحاول أن أغلق عينى وفى رأسي دوامة تهدر بحوادث الأمس وما أتوقعه من الغد .

وكدت فى احدى المحاولات أفلح فى الامساك بأطراف النوم حين دق جرس التليفون الموضوع بجوارى .

مازلت حتى الآن اذكر هذا التليفون اللعين الذى دق فى هذه الساعة ليعيد الى كل ما كنت أحاول أن أنساه من توتر وارهاق بل لعلى لم أكره فى حياتى مكالمة تليفونية كما كرهت هذه المكالمة ٠٠ ومضى التليفون يدق وأنا انظر اليه فى حنق ٠٠ هل أحطمه ؟ هل أرفع السماعة وألقيها جانبا وأمضى فى محاولة الامساك بالنوم ؟ ٠٠ هل أضع السماعة على أذنى وألعن من يريد أن يكلمنى فى هذه الساعة مهما كان شخصه ،ثم أغلق التليفون فى وجهه ؟ ٠٠ ولكن من يدرى ٠٠ أليس ممكنا أن يكون هناك شىء ما يتعلق بالجريدة ٠٠ أليس ممكنا أن تكون قد جدت متاعب من أى نوع فى التوزيع أو فى غيره ؟ ٠

واستسلمت للواقع . ورفعت السماعة ٠٠ وقبل أن أضعها على اذنى كان قد ارتفع منها صوت الأستاذ العقاد الأجش يهدر فى لهجة غاضبة ٠٠ وحسبت أن السماء قد انطبقت على الأرض حتى يحدثنى العقاد فى التليفون ساعة الفجر . وبهذا الضجيج ٠

ـ خير يا أستاذ عقاد :

ـ هل قرأت الجرنال ؟

ـ قرأته ٠

فأخذ يروى لى فى سورة غضب هائلة ما يأتى : كانت الافتتاحية التى كتبها العقاد منشورة بالطبع فى الصفحة الأولى من الجريدة ٠٠ وفى أسفل الصفحة الأولى وضعنا فى برواز صغير كلمة تقول : « ابدأ بقراءة الصفحة الثانية » وهى الصفحة التى تحتوى على الأخبار السياسية الداخلية الهامة وعلى كلمتى وعلى مقال الدكتور محمود عزمى رئيس التحرير ٠

وانفجر العقاد : يعنى أيه ، ابدأ بقراءة الصفحة الثانية ؟ .

معناه أيه الكلام ده .. يعنى عزمى عايز يقول أيه .. عايزين تقولوا ان الصفحة الأولى مش مهمة .. عايزين تقولوا ان مقال عزمى أهم من مقال العقاد

وكان لنشر هذه الكلمة سبب آخر .. فقد أخرجنا الجريدة كما سبق ان ذكرت بتبويب جديد على الصحافة اليومية ، اذ جعلنا السياسة الداخلية تبدأ بعد الصفحة الأولى مباشرة ، لا فى صفحات الوسط كما تعودت الصحف أن تفعل .. ولكى ننبه القارىء الى ذلك كتبنا له ان يبدأ بقراءة الصفحة الثانية ، أى ألا ينتقل مباشرة الى صفحة الوسط .. ولم يدر خلد أحد أن يقدم الصفحة الثانية على الأولى لأن هذا غير منطقى وغير معقول .. وكانت كل هذه الأسباب فى رأسى المتعبة والعقاد يهدر بالاحتجاج . ولكننى أعرف عن العقاد أن اقناعه بعكس رأيه أمر بالغ الصعوبة .. أما محاولة اقناعه وهو فى سورة غضب فتلك من أبعد المستحيلات .

وعلى ذلك ضغطت على أعصابى التى لم تعد تحتمل الضغط وبقيت أسمع ساكتة لقذائف غضبه .. باذلة أقصى جهدى لكى أتجنب الانفعال وأثور بدورى ، ويقع الاصطدام بين ثورتينا ونحن لم نصدر من الجريدة الا عددا واحدا .. ولما انتهى من احتجاجه . كان همى أن أؤجل المناقشة ، فقلت له :

ــ اننى لم أقرأ هذه الكلمة .. وسوف أحاسب المسئول حسابا شديدا .

والعقاد على ما ترى من ضخامته ، وجهامته ، وعنف غضبه .. انسان طيب القلب ، ليس هناك أسهل من كسبه .. وانه ليكفى

أن توافقه على رأيه لكى يهدأ ، ويسكن ، ويصبح الموج الهادر بحيرة هادئة .

ووضعت السماعة وقد فقدت الأمل نهائيا فى النوم ، اذ أعاد الى هذا الحديث الصاخب على هذا الأمر التافه كل التوتر العصبى الذى عشت عليه منذ الأمس ، ومن عادتى أن أشرف قبل خروجى على كل ما يتصـــل بنظافة البيت ، وأن أدخل الى المطبخ لبعض الوقت فلا أترك الطباخ الا بعد أن أعطيه التعليمات عن كل شىء .. ومن أصناف الطعام ما أهتم بأن أقوم بطهيه بنفسى .. ولا أذكر أن تخليت عن هذه العادة قط فى أكثر أيام العمل زحمة واضطرابا .. ولا فى ذلك اليوم المشهود عقب حديث العقاد التليفونى !! .

والتقيت بالعقـاد بعد ذلك فى الجريدة ظهرا ، فشرحت له الأسباب .. ولكنه لم يقتنع .

وكان من عادة العقاد أن يكتب مقاله اليومى فى البيت ويتركه فى الجريدة صـــباحا ، ويترك للأستاذ كامل الشـــناوى مهمة مراجعته .. ثم يعود ليلا ليلقى عليه بنفسه نظرة أخيرة . كذلك كان يهتم بقراءة مقال الدكتور عزمى رئيس التحرير - ولو بغير علمه - اذ كان يعتقد أن عزمى غير وفدى ، وانه ربما وضع فى مقاله كلمة تسىء الى الوفد من قريب أو بعيد .

ومع كل هذه المتـــاعب فقد كان اليـــوم الثـــانى من أيام « روز اليوسف اليومية » يوما جميلا مشرقا بالمرح .. فالعمـــل قد نجح والجريدة قد انتشرت فى السوق كالنار فى الهشيم ، تاركة الراحة فى قلوب الأصدقاء والحسرة فى قلوب الأعداء .

ومع النجاح تأتى المتاعب .. متاعب المنافسة .

فقد كان لصدور « روزاليوسف اليومية » بهذه الصورة القوية هزة عنيفة في الصحف الأخرى ٠٠ وانعكس أثر ذلك في صورة تكذيبات متوالية متلاحقة أخذت الصحف الأخرى – خصوصا الأهرام – تتعقب بها أنباءنا ٠٠ وساعدها في ذلك اننا كنا الجريدة الوحيدة تقريبا التي تهاجم الوزارة القائمة – وزارة توفيق نسيم – مما جعل الوزارة تشترك مع الصحف الأخرى في حملة التكذيبات ٠٠ وأذكر ان الدكتور عزمي كتب مقالا عنيفا يعلق به على هذه التكذيبات مهاجما الأهرام ٠

ووجدت الصحف أنها لن تستطيع مجاراة « روزاليوسف اليومية » من ناحية السبق بالأخبار أو قوة أسرة التحرير أو جرأة النقد أو جدة التبويب ٠ فبدأت المنافسة في النواحي التجارية التي تحتاج الى مال كثير ٠٠ وكان صاحب الأهرام في ذلك الوقت رجلا ممتازا هو المرحوم جبرائيل تقلا ٠٠ صاحب الفضل الأول على الأهرام ٠٠ فهو الذي اشترى له احدى الآلات ورسم له سياسة الاستقلال وأدخل كل ما كان فيه من تجديدات أو تحسينات ٠

وكان أول ما فعلته الأهرام في هذا الباب أن اشترت سيارات لوري خاصة لنقل الجريدة الى الاسكندرية ، فالقطار الذي كان ينقل الصحف كان يصل هناك الساعة الحادية عشرة صباحا ٠٠ ورأى المرحوم جبرائيل تقلا انه اذا استطاع أن يصل بسيارته الى هناك في الساعة السابعة ٠ أو الثامنة ، فانه يستطيع أن يكتسح السوق هناك ٠٠ وفعلا اشترى السيارات وأجرى عدة تجارب لنقل الجريدة قبل تنفيذه كلفته أموالا طائلة ٠٠ وكانت هذه أول مرة تستعمل فيها الصحف سيارات نقل خاصة بها ٠

فماذا نفعل نحن ؟ ٠

لم يكن هناك بد من مواجهة الموقف ، ومع ذلك فالمال اللازم لشراء اللوريات ينقصنا ٠ فاستأجرنا تاكسيات تقوم بنقل الجريدة ، نظير ستة جنيهات يوميا للسيارة ٠ وكنا نحتاج الى خمس أو ست سيارات ٠٠ أى حوالى ٣٠ جنيها يوميا ٠٠ أى ما يقرب من الألف جنيه فى الشهر ٠٠ وهو ثمن رهيب ٠٠

وهاجمنا المنافسون من جبهة أخرى هى جبهة التوزيع ٠٠ وللتوزيع قصة يجب أن تروى ، لأنها جزء من تاريخ الصحافة المصرية ٠٠

لم تكن توجد حتى سنة ١٩٣٣ أو ١٩٣٤ شركات لتوزيع الصحف كالموجودة الآن ٠٠ كان القطر المصرى كله مقسما الى أربع مناطق هى القاهرة والاسكندرية والوجه البحرى والوجه القبلى ٠٠ وكل منطقة لها متعهد خاص هو الحاكم بأمره فيها ، المتحكم حتى فى أصحاب صحفها ٠٠ فيما عدا الأهرام الذى كان يوزع لحسابه فى منطقة الوجه القبلى فقط ، ولا يجوز لواحد من المتعهدين الأربعة أن يتعدى قط على منطقة زميله أو ينازعه اختصاصه ٠٠ وكان هؤلاء المتعهدون الأربعة من العصاميين ٠٠ نشأوا باعة صحف سريحة ثم أصبحوا بعد جهاد عنيف متعهدى توزيع ٠

وكان يتولى توزيع « روزاليوسف الاسبوعية » فى القاهرة المعلم على الفهلوى ٠٠ رجل نحيل قليل الكلام ، يلبس الجلباب البلدى والطربوش ، ولكنه فى غاية الذكاء ٠٠ وكان يتخذ مكتبه فى قهوة بشارع الساحة ٠٠ وقد ظل يحمل عبء توزيع «روزاليوسف الاسبوعية» حتى منتصف عام ١٩٣٤ ٠ وكان موفقا الى حد كبير ٠

على اننى لاحظت فى ذاك الوقت أن التوزيع بدأ يهتز ٠٠ وأحسست أن ثمة عوامل مجهولة تلعب فى الخفاء ، ثم علمت أن بعض الصحفيين المنافسين يلجأون الى طرق غير شريفة ٠٠ فيتصلون

بباعة الصحف ، ويخفون بعض أعداد المجلة فلا يعرضـــونها فى السوق ٠

ولم أصدق الخبر فى اول الأمر فاردت ان اتحقق بنفسى ٠٠ وفجأة وجـــدتنى المعلم الفهلوى فى المقهى الذى يتخذه مكتبـــا له وتظاهرت بأننى مررت مصـــادفة لأحدثه فى بعض شئون التوزيع ثم تعمدت وأنـــا منصرفة أن اخطىء الطريق الى بـــاب المقهى ، وان ادخل الى حيث يوجد المخزن الخاص به ٠٠ فاذا بى أجـــد نسخ العدد الصادر من « روز اليوسف الاســـبوعية » موضــــوعة فى المخزن ٠٠ أى لم تنزل الى الســـوق ، وتأكدت مما كنت أشـــك فيه من أن بعض زملاء المهنة يلجأون الى هذه الوسائل ٠

وقررت أن أقدم على خطوة اعتبرها الصحفيون فى ذلك الوقت جريئة جدا ٠ هى أن أعهد الى متعهد آخر ــ غير الفهلوى ــ بتوزيع المجلة فى القاهرة ، وكانت الخطوة جريئـــة لأن المتعهدين فى ذلك الوقت كانت لهم سطوة هائلة على الباعة وعلى أصـــحاب الصحف ٠٠ وفعلا عهدت الى المرحوم سيد خضير متعهد الصحف الافرنجية بتوزيع « روز اليوسف الاســـبوعية » ٠٠ ثم عهـــدت بتوزيع « روز اليوسف اليوميـــة » الى ماهر فراج الذى كان يـــوزع فى الاســـكندرية فقط ٠٠ ولأول مرة أصـــبح فى القاهرة أكثر من متعهـــد يتنافســـون ٠٠ والتهبت الحرب بين هؤلاء المتعهدين ٠ وبات كل واحد منهم يحـــاول ان يوقع بالآخـــر وبما يوزعه من صـــحف ٠٠ وازاء هذا الاضطراب العنيف ، قررت الصـــحف أن تؤسس شركات توزيع خاصـــة بهـــا ٠٠ بدأ بذلك المرحـــوم جبرائيل تقلا أيضا فى الأهرام بادئا بالاســـكندرية ثم بســـائر القطر ٠٠ ثم تبعته دار الهلال فالمصرى فسائر الصحف ٠

وفى خـــلال معركة التوزيع هذه ، رأيت أن أقدم على تجربة أخرى مازلت آسف على فشلهـــا ٠٠ فقـــد أعلنت عن حاجتى الى

٥٠ فتاة مصرية ليقمن ببيع روز اليوسف اليوميــــة والاســبوعية، وكنت فى زيارتى لباريس قد لاحظت ان معظــم باعة الجـرائد هناك من النســاء فأردت ان أفتح لبنــات جنسى بابا للعمـل الشريف .. بابا تستطيع ان تعمـــل فيه الفتــاة الفقيرة بدلا من الشحاذة أو جمع أعقــاب الســجائر أو الخدمة فى البيوت .. ولكن التجربة لم تنجح مع الأســف .. رغــم انى قد وضعت للعمل نظاما يعفى البائعات من المعاكسات المتوقعــة من الشباب فى الشــوارع .. وقد تحقق الآن جانب من هذا الحــلم .. اذ أصبحت الأكشاك التى تبيع اليانصيب فى قلب القاهرة تشغلهـا الفتيات .

على أن المتاعب الكبرى جاءت من الوفد . الحزب الذى أؤيده ، وفى الأيام الأولى لصــدور الجـريدة اليومية .. كان النحاس يقوم برحـــلة طويلة الى الصعيد .. يزور فيهـــا المدن ويتقبل الدعوات ويلقى الخطب السياسية .. وأرســلت كل جـــريدة محررا مهما من محرريها ليوافيها بأنبــاء الرحلة .. وناب عن « روز اليوسف اليومية » الأستاذ كامل الشناوى .

ولم يلبث كامل الشناوى أن شعر بالمعاكســـات تحيط به وتعرقل اداءه لمهمته نتيجة لجو الفتور الذى كان ســــائدا بين الجـــريدة وبين النحاس .. كان النحاس يلقى الخطبـــة .. فاذا أراد كامل ان يرسلها الينا حجزوها عنـــه بحجج مختلفة : مكرم يراجع الخطبــة .. مكرم لم ينته من تصحيحها . وكان لايمـــكن ارسال أية خطبة الا بعد موافقـــة مكرم ، وهكذا حتى تصـــدر الصحف الأخرى حاملة الخطبة ماعدا « روز اليوسف اليوميـــة » وهنا تتحرك الدسائس لتقول للنحاس : أنظر .. ان «روز اليوسف» تتجاهل خطبك ولا تنشرها .. حتى لقد اضطررنا مرة أن نكلف أحد العمـــال بسرقة الخطبة من احـــدى الصـــحف لكى ننشرها كاملة !

.. وكانت الصحف المصريه ـ وماتزال ـ تجرى على عادة معينة ازاء هذه الرحلات . فهى تنشر لهـا وصـفا طويلا انشائيا مملا ومبالغـا فيه .. بل ان الصحف اليومية تتبارى فى التهويل . هذه تقول ان المستقبلين نصف مليون فتقول الثانيـة انهم مليون ومعظم هذه الأوصاف يكتب فى القـاهرة لا فى مكان الرحـلة . وكلمات الوصف معروفة : هتـاف الجماهير وزغايد النسـاء وما الى ذلك .. والقـارىء عادة لايقرأ هذه الأوصـاف خصوصا اذا تكررت وأصبحت تظهـر كل يـوم أو كل يومين .. كذلك جرت الصـحف فى ذلك الوقت على أن تنشر الخطب التى تلقى فى الجماهير بحذافيرها ، مهما كانت أهميتهـا وبصرف النظـر عما فيها من كلام معاد . أو حماسـة جوفاء .. والقـارىء أيضا ينصرف عن قراءة هذه الخطب حين تكثر وتطول .

وأردنا ان نجدد .. وأن نتبع قواعد الفن الصحفى .. فكنا نصف أنباء الرحلة وصفا موجزا ولكنه دقيق . وكنـا لاننشر من الخطب الا الأجزاء الهـامة والجديدة .. وهنـا أيضـا تتحرك الدسائس ويقول ذوو الأغراض للنحاس : انظر ان « روز اليوسف» تختصر وصف الحفاوة التى تحاط بها ؟ .. انها تختصر خطاباتك البليغة .. مع ان هذا هو النظام الذى تجرى عليه الصحف فى العالم أجمع . ولست أعرف صـحفا تنفق ثلاثة عمدة فى وصف حفاوة الجماهير الا الصحافة المصرية .

واذاء هذه المعاكسات عاد كامل الشناوى .. عاد ليرسم لنا بروحه الفنانة الريبورتاج الحقيقى للرحلة بكل ما فيها من لمحات . وقضينا أياما ساهرة فى الجريدة نلتف حوله كل ليلة لنضحك من الأعماق وهو يشرح لنـا طقوس النفاق ، ويقلد لنـا النحاس وهو يخطب أو يتكلم ، ومكرم وهو يجيب والمحيطـون وكيف يعاملونها .

وعاد النحاس من الرحلة ٠٠ ولم يزر الجريدة كالعادة مشجعا ٠٠ وازاء هذه المقاطعة منـــه بات أغلب الوفديين يخافون التـردد على الجريدة رغم تأييدهم لخطتها ٠

على أن الرأى العـــام ـ كله تقريبـــــا ـ كان الى جانب « روز اليوسف اليومية » فقد كانت الجريدة الوحيدة التى تهاجم توفيق نسيم لتلكؤه فى اعادة الدســـتور ولتســـاهله فى تعيين مستشار انجليزى له سلطة « الاتصـــال المباشر » بالوزير ، حتى صارت كلمة « الاتصال المباشر » محل تنـــدر الناس ٠٠ وبعـــد حملتها هذه بشهر ٠٠ ســوف ينضم اليها الوفد ، والآخـــرون جميعـا ٠٠

- النبوءة التى حققها الهلال .. بعد ١٨ عاما
- ٥٠٠٠ جنيه رشوة من دار المندوب السامى
- متى قال مصطفى النحاس «نحن مبسوطون»!

اذا أردنا أن نصف الفترة التى حكمت فيها وزارة توفيق نسيم البلاد فى عبارة موجزة ، فانه يمكن أن نقول انها فترة الوعد بالدستور .. بلا دستور ! ..

فبعد السنوات الثلاث التى عاشها المصريون تحت حكم صدقى ، كان الناس يعيشون على أمل واحد هو أن يعود الدستور حتى تعود حياتهم الى سيرتها العادية ! وحتى يستريحوا من هذا الصراع الداخلى ليتفرغوا للخصم الذى يكسب من هذا الصراع : الانجليز .

وجاء توفيق نسيم . وأعلن فى بيان تشكيل وزارته ان هدفه وغايته هو اعادة الدستور والحياة النيابية .. على انه لم يلبث حين جلس على مقعد الحكم وتمكن من أجهزة الدولة أن

وقع تحت سطوة القصر والانجليز مباشرة ومن ثم أخذ يؤجــــل اعــادة الدســــتور بشتى الطرق ، منتحلا مختلف ألوان المعاذير ، محاولا جهد طاقته ان يطيل حياة هذا الحكم الفردى بأية صورة ٠

وكان من نتيجة ذلك أن بدأت وزارة نســـيم تفقد تدريجيا الآمال التى علقت عليها حين جـــاءت ٠ وبــدأ الرأى العــام يغير نظـرته اليهـــا كلما رآهـــا تنكص عن وعدها ، وتتفنن فى خلق الأعذار لتأجيل عودة الدستور ٠ والحكم اذا لم يســـتند الى تأييد من الداخل مكين ، اضطر الى أن يســند ظهره الى تأييـــد خارجى وهكذا رضـــخت الوزارة للانجليز تمـــاما ٠٠ وأخذت تسرع الى تلبية كل ما يطلبونه منها ٠

(الأولى)

سـهير القلمـاوى
(١٩١١ ـ ١٩٩٧)

ارتبط اسم د. سهير القلماوى أكثر ما ارتبط بكلمة « الأولى » ، فهى واحدة من أوائل الطالبات اللائى دخلن الجامعة لأول مرة فى سنة ١٩٢٩ ، وكانت الوحيدة فى قسم اللغة العربية ، بينما كان هناك أربعة أخريات فى قسم الفلسفة . وكانت أول من حصل على الليسانس سنة ١٩٣٣ . وهى أيضا أول طالبة تحصل على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ ، وأول أستاذة بالجامعة ، حيث عينت أستاذة الأدب الحديث والنقد الأدبى ، ثم هى أول سيدة تترأس قسم اللغة العربية بجامعة مصرية ، ثم كانت أيضا أول سيدة تترأس هيئة حكومية كبيرة مثل هيئة الكتاب سنة ١٩٦٧ . وقد كانت صاحبة الفضل فى اقامة أول معرض للكتاب فى مصر سنة ١٩٦٩ .

هكذا كانت حياة سهير القلماوى سلسلة من المبادرة والريادة والاقدام . والفضل فى ذلك يرجع للبيئة المتحررة نسبيا التى نشأت فيها ! فلم تعرف الحجاب أو الزواج المبكر . فهى ابنة لأب كردى

وأم شركسية تجيد عدة لغات وقد ولدت سنة ١٩١١ وتعلمت في المراحل الأولى فى المدرسة التبشيرية الأمريكية ، وكان هدفها بعد ذلك دراسة الطب مثل والدها ، وهو ما رفضته الجامعة تماما عندما أرادت الالتحاق بها ،حتى عميد كلية الطب ـ وكان انجليزيا ـ هدد بالاستقالة اذا قبلت طالبة فى الكلية ! لذلك اتجهت لدراسة الآداب مؤقتا حتى تبلغ سن الرشد وتتمكن من السفر للخارج لدراسة الطب ، الا انها اقتنعت فيما بعد بدراسة اللغة العربية . وكان الفضل فى اقناعها لأستاذها طه حسين ·

لم يكن عدم دخول سهير القلماوى كلية الطب هو الصدام الوحيد بينها وبين الجامعة ولكن ملابسها أيضـــا أثارت حفيظة الجامعـــة ، فهى لم تلتزم بالزى الموحـد الذى كانت ترتديه بقية الطالبـات ، والطريف انهـا رغم تمردهـا على الزى الموحد الا انها فيما بعد اعتبرت الحجاب نوعا من الفكر الجديد ·

وعلى الرغم من الشهرة الكبيرة التى حققتها سهير القلماوى كأستاذة للأدب الحديث والنقد الأدبى ، فانها قدمت أيضا للمكتبة العربية عددا من المؤلفات والكتب المترجمة والقصص القصيرة التى تجاوزت المائة ، وكان أشهر أعمالها رسالتها لنيل درجة الدكتوراه عن ألف ليلة وليلة ، فقد ملأت فراغا فى دراسة الأدب الشـعبى وكان الجديد الذى قدمته أنها كشفت خطأ البعض فى تصـوره ان ألف ليلة وليلة مجرد حكايات شعبية ونوعا من التراث الشعبى ، والحقيقة انها حكايات بدأ شخص فى تأليفها وألف جزء منها ثم بعد ذلك توالت أسماء مختلفة من بلاد مختلفة قاموا بتأليف أجزاء أخرى ، وكانوا من بلاد عربية وغير عربية ، وكانت أول طبعاتها فى مدينة كالكاتا الهندية · وقد اعتبرت د· سهير ألف ليلة رائدة فى مجال الحكايات والقصص ، كذلك فانها بينت ان الصورة الجنسية لشهرزاد مقحمة على النص العربى ·

وبالاضافة الى ألف ليلة وليلة ، ألفت سهير القلماوى سبع كتب واشتركت فى تأليف ست ، وترجمت سبع · ومن مؤلفاتها أدب الخوارج ، وذكرى طه حسين ، ثم غربت الشمس ، والمحاكاه فى الادب ، وأحاديث جدتى ، والشياطين تلهو ، وقصص من مصر · ومن الترجمات أفلاطون ، والعالم بين دفتى كتاب وترويض الشرسة لسكسبير ، وهدية من البحر للندبرج ، والعجائب لهوثورن ·

وقد اشتركت فى مناقشة أكثر من خمسين رسالة دكتوراه بدأتها منذ أن كانت أستاذا مساعدا ·

وعلى الرغم من أن سهير القلماوى احدى رائدات الأدب النسائى ، فانها رفضت تماما استخدام مثل هذا المصطلح · ففى رأيها ان الأدب اما أن يكون أدبا أو لا يكون ، اما القول بأدب نسائى أو رجالى فهذه تصنيفات مرفوضة ! وقد قالت عن ذلك : « أدب نسائى هذا مصطلح سخيف ! هناك أدب من كل الطوائف ومن كل الاجناس ومن كل المهن ، صحيح هناك أدب بأقلام نساء ، ولكن هناك مشاعر عبر عنها الرجل تعبيرا ممتازا ، للأسف فان بعض الكاتبات تظن انها اذا عرفت نفسها فى الجنس ومشاعره واذا وصفت أشياء نسائية فانها تكتب أدبا نسائيا ، وقد روجت بعض دور النشر لهذا الطوفان التافه مما يسمى أدبا نسائيا ·

وقد أثارت سهير القلماوى العديد من النقاش حين قالت ان الرجل الأديب يعبر عن المرأة أقدر مما تعبر عن نفسها · وكان دليلها على ذلك شكسبير ·

أما أشهر المعارك التى خاضتها سهير القلماوى فكانت معركة الشعر الحر والتى كان يقف ضدها فى المعسكر المضاد المفكر الكبير عباس محمود العقاد · وقد كتبت سهير القلماوى عدة قصائد

تؤكد ان الشعر الحر وليد طبيعى لحركة الترجمة من الشعر العالمى ، ولا غبار عليه طالما احتفظ بموسيقاه الداخلية والتفصيلية ٠

وعلى الرغم من البداية التحررية لسهير القلماوى الا ان افكارها وآرائها تجاه القضايا الاجتماعية بوجه عام تعد محافظة !

بمعنى انها – كما ذكرنا – اعتبرت العودة للحجاب نوعا من الفكر الجديد ، وانه نوع من الايمان ، ونموذجا للاحتشام ، وان الدين يطالب بالحجاب ٠ وكان الاسلام هو مرجعيتها وهو ما اتضح من موقفها من قوانين الأحوال الشخصية ، وكان من رأيها انه لا يجب أن يكون حصول المرأة على الطلاق بالسهولة التى تساعد على هدم المنزل وتشتيت الأسرة ! وحين صودرت نسخ من ألف ليلة وليلة اعتبرت ذلك أمرا لا يستحق الضجة لأن ما صودر انما هو مجرد نسخة محرفة ٠

ومن المعروف ان سهير القلماوى عينت فى مجلس الشعب فى دورته من سنة ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٤ ضمن ٣٢ سيدة ، كما انها ترأست الاتحاد النسائى العربى ٠ الا انها لم تشترك فى أى جمعية نسائية ، ولم تناد أبدا بالمساواة بين الرجل والمرأة ، لكنها كانت تؤكد على المشاركة بينهما ، وكانت تقول عن الجمعيات النسائية انها مجرد شغب وشرذمة نساء !

أما الرجل فى حياة سهير القلماوى فكان له منزلة الاحترام ، خاصة ان الرجل فى حياتها كان عنصرا ايجابيا ٠ فوالدها هو الذى ساندها وسعى معها لتدخل الجامعة ، وكان يشجعها لتسافر الى الخارج لدراسة الطب ، وهو أيضا الذى سمح لها بالسفر لدراسة الدكتوراه فى السربون – وهو ما لم تتمكن من اتمامه سنة ١٩٤١ بسبب الحرب العالمية الثانية ٠

أما الرجل الثانى فى حياتهـا فهو زوجها الدكتور يحيى الخشاب الذى ارتبطت به عاطفيا خلال بعثتها الدراسية فى الخارج وكان هو أيضا يدرس الدكتوراه واتفقا على الزواج الذى تم عند عودتهما . وكانت دائما تذكره بالاحترام والتقدير ، وعاشت معه ٤٨ عاما هى عمر زواجهما . ويقول المقربون من د. سهير القلماوى انها بوفاة د. يحيى الخشاب فقدت اهتمامها بالعالم والحياة ، وكانت بداية النهاية بالنسبة لها .

أما الرجل الثـالث فى حياتها فهو الأستاذ والمعلم د. طه حسين وهو الذى ساعدها فى دخول الجامعة وقسم اللغة العربية وحببها اليها وتتلمذت على يديه . وقد ألفت عنه كتاب « ذكرى طه حسين » . ومما يوضح اعتزاز طه حسين بتلميذته سهير القلماوى ما كتبه فى تقديمه لكتابها « أحاديث جدتى » ، فقد قال : « أخشى أن أطيل وأن تبـلغ المقدمة قدر الكتـاب وما أظن ان النـاس يأخذون هذا الكتاب ليقرءونى أنا ، وانما هم يأخذونه ليقرءوا « سهير » فلسهير قراؤها والمعجبون بها ، على قرب عهدها بالتحدث الى الناس ، وأنا أحد هؤلاء القراء وأحد هؤلاء المعجبين . ومن يدرى ؟ لعل اعجابى بسهير الكاتبة ورضاى عن سهير الطالبة من الأسباب التى تحبب الى هذا الكتاب ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو ان هذا الاعجاب وهذا الرضى هما اللذان يمنعانى من أن أثنى على « سهير » بأكثر مما ينبغى لها من ثناء الأستاذ الذى لم يتعود منه طلابه اسرافا فى الثناء » .

وهـكذا نرى ان الرجال الثـلاث كان لكل منهم بصـمته الايجابية على حياة هذه المفكرة الكبيرة التى اختارت العلم والثقافة طريقا وهدفا ، وكانت الأستاذية لديها أعظم انجاز ، حتى انها رفضت كرسى الوزارة عدة مرات : الأولى سنة ٥٠ فى وزارة سرى باشا

لأنها شعرت ان تعيينها انما هو لاثارة الرأى العام وابعاد النظر عن وزراء آخرين عينوا بغير رضاء الشعب ، كما رفضت الاشتراك فى وزارتى عزيز صدقى وممدوح سالم • لقد عاشت حياتها للعلم والثقافة فقط حتى انها حين حصلت على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٧٧ سددت بها ديون البنك المتراكمة ، وفى ١٩٧٨ حصلت على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى وبعد رحلة مع المرض انفض فيها الناس من حولها ، وفقدت حتى القدرة على معرفة الأهل والأصدقاء ، ولم يعد يسأل عنها غير اثنين فقط ، هما : تلميذها الدكتور جابر عصفور ، وتلميذتها السيد جيهان السادات ، وفى الرابع من مايو سنة ١٩٩٧ فارقت الدكتورة سهير القلماوى دنيانا فى هدوء . تاركة وراءها جيلا من التلاميذ الذين أصبحوا أساتذة ومفكرين وكتابا ، مهما ورصيدا من المؤلفات والدراسات والترجمات •

وقد رأينا أن نعرض أول أعمالها الأدبية التى صدر سنة ١٩٣٥ وقدمه كما ذكرنا من قبل عميد الأدب العربى د• طه حسين وهو « أحاديث جدتى » •

١

بين الطفولة والشيخوخة جاذبية غريبة وتشابه عجيب ٠ كلاهما قريب من هذا العالم المجهول الذى جئنا منه وسنعود اليه ٠ وكلاهما قليل التقدير للحياة . يكاد لا يحفل بها هذا عن جهل بها . وذاك عن علم وتجربة ، هذا يبسم للحياة ابتسام الطرب والأمل والفرح . وذاك يبسم لها ابتسام السخر واليأس والألم ٠

وكثيرا ما نرى فى خلق الشيخ ما يقر به من الطفولة ، كأنما حلقة قد تمت وعادت الى مبدئها من جديد ٠ وكثيرا ما يتصادق الشيخ والطفل صداقة حلوة طاهرة عميقة لانه فيما تكلف أصحابها من شعور واحساس ٠ فاذا كانت هذه الصداقة تقويها رابطة أوثق كرابطة النسب او القرابة كانت أعمق وأدوم ٠٠٠

كنت افكر فى هذا وأنا جالسة الى مكتبى اقرأ درسى . وكانت جدتى شغلى الشاغل منذ عدت من المدرسة ٠ فقد عدت لأجدها نائمة تشكو شيئا من الصداع . تعودت أن أرى جدتى دائما بعد عودتى من المدرسة لأقبلها قبلة كانت اشتياقا لها أول عهدى بالمدرسة وبفراق جدتى ، ثم أصبحت بعد أن صار لى صاحبات أنس اليهن

والى لعبهن عادة اعتدتها لا أرى لها سببا . ولكنى ان تركتها يوما شعرت لتركها بشيء ولو قليل من الضيق .

دق الجرس ، فأسرعت الى جدتى أسألها ما تريد ، فسألتنى وقد ظنتنى خادمها : هل عادت البنت من المدرسة ؟ فأسرعت نحوها اقبلها كعادتى .

واضاءت جدتى النور لتعرف الوقت من ساعتها السحرية المعلقة على الحائط . كم كنت احب هذه الساعة الصغيرة ، وكم تقت الى لمسها والى اللعب بها ، فكانت جدتى تنهانى . وها انا هذا اليوم أديرها بيدى ، ولكنى مازلت أحس أن لها شيئا من السحر ، ومازلت أكن لها غير قليل من شعور يحسه الانسان نحو الأشياء التى يألفها طفلا فتذكره دوماً بأيام الطفولة المرحة العذبة الذكريات .

قالت جدتى ، وقد رأتنى انظر الى الساعة : الا تنامين ، انها الثامنة ليلا ؟ قلت : نعم ، بعد أن تقصى على قصة أو حديثا عن ماضيك . قالت : استعدى لنومك ، وتعالى ريثما أتذكر لك حديثاً يعجبك ، فقد كبرت الآن واصبحت أحاديثى لك طفلة لا يلذ لك الآن الا أقلها .

فى ظلمة غرفة جدتى – وقد جلست جانبها على السرير – أخذت جدتى تقول :.

– كنا يا ابنتى من زمن بعيد فى رشيد . كان جدك رحمه الله قد نقل مع جزء من الجيش ليعمل هناك فى حصونها . وكان منزلنا هناك معروفا لمكانه المرحوم زوجى . وكان أعيان رشيد – وقد أصبحوا أصدقاء جدك بعد أن أقمنا زمناً – يزورونه كثيراً

ويزورهم . ويجتمع بهم فى منزل احدهم كلما استطاعوا أن يجتمعوا . كان بين هؤلاء رجل ثرى يملك منزلا فخما . وحديقة واسعة مليئة بالفواكه والخضروات . فى هذه الحديقة كثيراً ما ذهب أولادى ليلعبوا مع أبناء صاحب الدار .

— وكان ولدى اسماعيل أكثر اولادى حبا للعب . ولكنه كان ميالا الى الاتلاف فى لعبه ، ولكم نهيته ، ولكم حاولت معه باللين حيناً وبالشدة كثيراً ، فلم افلح معه فى كثير او قليل . وظل طول عمره أكثر أولادى كلفا باللعب وباغاظتى ، وظللت اعامله دون اخواته جميعا بالشدة والعنف .

— كنا يا ابنتى لا نعرف نظريات فى التربية ولا قواعد ، وانما كنا ننقاد فى تربية أبنائنا بفطرتنا . وكانت العصا عندنا اكبر دواء لكل ادواء الطفولة الخلقية والنفسية ، فان الهمتنا الفطرة طريقاً غير العصا لنصل به الى ما نريد من الطفل العنيد المتلف المثير للغيظ ، كان ذلك من حسن حظ الطفل ومن حسن حظنا ، وإلا فان العصا اقرب ملجأ وأيسره وأسرعه فائدة

— ذهب ابنى اسماعيل كعادته يلعب في حديقة هذا الثرى . ولكنه كان منذ أيام يحاور البستانى والبستانى يحاوره ليصل الى الكروم . كان العنب لا يزال فجا حصرماً ، ولكن للأطفال ولع خاص بالفاكهة الفجة لعله قلة اصطبار عليها حتى تنضج . وحاول البستانى أن يلهي اسماعيل بفاكهة أخرى وبوعود عن العنب يوم ينضج فلم يفلح معه ، كما كنت لا أفلح انا معه . واخيرا توعده مقسما أنه اذا صعد الى الكروم وقطع فرعاً واحداً فسيشكوه الى .

ـ ولكن اسماعيل اذا أراد لعباً أو فســادا فلن يعوقه شيء مهما عظم ، وكانت عناقيد العنب الخضراء المتدلية تزيده رغبة وتشعله عزما . فعافل البستانى وتسلق السور . فاذا ما كان فوق الكروم كسر وقطع وأكل وأفسد ، ما شاء له الكسر والقطع والأكل والافساد . وما ان هم بالنزول حتى لمحه البستانى فتلقاه نازلا على كتفيه وحمله وسار به الى .

ـ وبين منزلنا ومنزل صديق جدك هذا مسافة غير قصيرة يمر فيها المار على المنزل الذى كان يجلس فيه جدك وأصدقاؤه ومر البستانى حاملا اسماعيل . وكان اسماعيل منذ أن لمست رجلاه كتف البستانى يصيح ويولول ، ويتضرع ويستغيث بكل مار أن يحميه مما سيلاقيه منى . وما ان لمح أصدقاء جدك حتى صاح بهم :

« يا هوه ، خشرنى . أمى حتموتنى من الضرب »

والتفت صاحب الدار فعرف بستانيه ، وعرف ابن صديقه فأدرك كل شيء . طالما شكا البستانى اليه من اتلاف اسماعيل الزرع ، وطالما حاول صاحب الدار أن يشكو اسماعيل لأبيــه ، ولكنه يشفق عليه كل مرة . وها هو اسماعيل يسير الى عقابه وانه لعقاب حق استأهله من زمن بعيد .

ـ وبعد البستانى بحمله الثائر الصائح قليلا ، فبدأت الرأفة والشفقة تدبان فى قلب صاحب الدار من جديد . وما كاد يصل البستانى الى ويشكو اسماعيل ، وما كدت أهم لأحضر العصا أضربه بها ، حتى جاءنى خادم صاحب الدار يقول : أن سيده بالباب جاء بنفسه يستحلفنى ألا أمد الى اسماعيل يدا .

ـ لن تتصورى يا ابنتى مقدار غيظى ساعتها . فهذا ابنى يتلف مال الغير ، بل مال الصديق ، بعد أن حاولت معه كثيراً لأصرفه عن عادة الإتلاف هذه . ثم يسير فى الطريق العام صائحاً أنى سامبته من الضرب أمام المارين وأمام أصدقاء زوجى • ولكن هذا صديق زوجى يستحلفنى ألا أضربه . فماذا يكون ردى عليه ؟ لن يكون الا القبول • فقبلت وانصرف السيد وخادمه ، وظللت أغلى من غيظى • أى عقاب أنزله بهذا الشيطان بعد أن أساء الى والى صديق زوجى ؟ .

ـ وفكرت وفكرت ، وأخيراً اهتديت الى عقاب أعاقبه به دون أن أرجع فيما وعدت به الصديق •

ـ كان الوقت عصراً ، وكانت الشمس قد مالت للمغيب • وكنا يا ابنتى فى هذا الزمن لا ننعم بكهرباء تريحنا وتوفر علينا كثيراً من المشاكل والمتاعب كنا إذ غربت الشمس نعمد الى مصابيح تضاء بالبترول لنضيئها واحداً واحداً ، ثم نعلقها فى عمود أو على الحائط ليشع نورها على المكان كله • وكم كنا نقاسى من هذه المصابيح ! فهى سريعة التلف تحتاج الى عنايه ونظافة حتى تقوم بما يراد منها • ولكن هذا هين يسير ، وانما الخوف كل الخوف من احتمال فرقعتها وما تجره الفرقعة من حريق ودمار •

ـ لست اطيل عليك الحديث حول هذه المصابيح فقد وقاك الله ووقانا شرها . ولنعد الى اسماعيل فانى الى اليوم بعد نحو أربعين عاما لا اذكر هذه الحادثة الا اهتجت لها من جديد اهتياجا لا أفهم له سبباً ، قد يكون ألم الذكرى وقد يكون شيئاً آخر لا أستطيع أن أحدده •

ـ وأنرنا المصابيح كلها وكان مصباح خاص نعلقه فى عمود وسط صحن الدار لينير لنا الممرات والمنافع • وما كادت الخادم

فرفع المصباح الى مكانه من العمود حتى اتقدت الفكرة فى رأسى اتقاد الشرارة المفاجئة . ونظرت الى اسماعيل وقلت له : « سترى عقابك يا لعين بعد العشاء » ، وأكل كل من بالدار واستعدوا للنوم ، فعمدت الى اسماعيل وعريته وعلقته فى هذا العمود تحت المصباح الذى يتهافت على نوره الناموس .

كنت اسمع بهذه العقوبة من خدمى وفى بعض القصص . ولكنى لم أكن رأيتها أو جربتها قبل هذا اليوم . وها هى الفكرة تأتينى وانا فى اشد الحاجة لها ، فلم الجأ إلا اليها .

ـ وصرخ اسماعيل ، والحق يا ابنتى انى لم أطق سماع صراخه . وكان جدك متغيبا عن منزله فى مهمة من مهام الجيش ، فاغلقت ابواب الدار كلها ، ودخلت غرفتى أحاول النوم . كان صراخ اسماعيل عاليا متواصلا ، ثم سكت قليلا قليلا حتى لم يعد الا صرخة خزفتة قصيرة من الآن . عجبت لأمره لعله مل الصراخ فاستراح .

جاهدت وجاهدت بين قلبى وعقلى ، هذا ينكر عملى ويهيج شفقتى ، وذاك يقول صبراً ان لم يكن العقاب شديداً عاد الى ذنبه ، وفى العودة عذاب لك وله . وأخيرا انتصر قلبى وخرجت من غرفتى عازمة على فك اسماعيل وغسله لينام . وكم كانت دهشته وكم كان احتقارى لنفسى واشمئزازى منها !

ـ كان اسماعيل معلقا فى العمود ، وعلى الأرض جلست خادمة « صباح » وقد بلل الدمع جلبابها ووجهها ونحرهـا وهى لا تستطيع مسحه لأن يداها كانتا تهشان الناموس عن جسم اسماعيل . « منشة » فى كل يد تهش وتهش ، والدمع ينهمر ، وصوتها الخافت المتألم يردد كل حين :

« معليهشي يا سيدى ! الليـل قرب ينتـهى » . واسمـاعيل لا يجيبها الا بقوله :« هشي يا صباح والنبى ، هشي هنا ... وهنا » .

ــ هذه الجارية ذات القلب الحساس لم تنم رغم حاجتهـا الى النوم ، وجازفت باحتمال قيامى ورؤيتها ، وما ستلاقى اذا ما وجدتها تتداخل فى أمر من أمورى . كل هذا من أجل صبى لاعبته صغيراً ، وعاشرته بضع سنوات ، وأنا أمه التى حملته جنيناً ، وأرضعته طفلا ، وربته صبيا ، ظللت احاول النوم ولا أعبأ بصراخه . اية قسـوة ! ما احقر قلبى أمام قلب هذه الجارية !

ــ وقفت مبهوتة مغيظة من نفسى أحتقرها ، وانا لا ارفع عينى عن « صباح » المبللة بالدمع التى لم تقف يداها عن الهش كأنها آلة مسخرة ، وكادت دمعة تنهمر مـن عينى لـولا ان لمحتنى « صباح » نصاحت بى :

« اطرديني يا ستى ، لكن والنبى فكى سـيدى اسماعيل » .

ــ لم استطع ان أقول كلمة واحدة . وانمـا ذهبت نحـو اسماعيل ، فانزلته وأخذته الى الحمام اغسله . وما زال المسكين يبكى ، فقد كان جسمه كله ملتهباً ساخنا وارماً .

ــ منذ ذلك اليوم أكبرت « صباح » واحتلت منزلة جديدة فى قلبى . ما رأيتها بعدها يوماً الا رأيتها كما كانت فى تلك الليلة تهش الناموس عن ولدى ، وتواسيه ودمعها يجرى من شـدة الالم له .

★ ★ ★

وصمتت جدتى كأنما الذكرى تعاودها . فقلت : « ولكن أين « صباح » الآن يا جدتى ؟ قالت :

ـ ما كنت لاخرجها من دارى يا ابنتى ، ولو قدموا لى أحسن جوارى العالم ، وأقدرهن على خدمتى . ولكن شاءت لها الظروف أن يكون خروجها من عندى أهون ما ينزل بها ، فقبلته مضطرة . ولقد جازاها الله على وفائها لى ، ولولدى اسماعيل خير جزاء :

ـ سرقت من جدك أشياء بعد هذه الحادثة بأعوام فاتهموها . وكانت الظروف قاسية عليها ، فاعتقد كل من بالدار أنها هى السارقة . ولم اجد بين كل هذه الظروف ظرفاً واحداً يبرىء « صباح » أو يبعد عنها التهمة ولو قليلا . قلبى كان كل دليلى على أنها لم تكن هى السارقة . ولكن احساس القلب ان لم يستند الى شيء عقلى أو مادى لم يعره أهل الدنيا اهتماماً . فباعها جدك لأنها سارقة ، فخرجت ودمعها على خدها ، ولسانها يردد : الله يعلم براءتى وهو كفيل بالانتقام .

★ ★ ★

ـ مات جدك بعدها بأعوام ، فبحثت عن « صباح » أغفر لها ذنبها ، وأعيدها الى من جديد . ولكن القدر كان قد سبقنى فاستغفرها أو غفر لها . أصبحت « صباح » سيدة زوج رجل ثرى كان قد ماتت زوجه وله منها أولاد . فلما آنس فى « صباح » حنوا وعطفاً على أولاده تزوجها وأغدق عليه من ماله وعطفه ما تستحق .

★ ★ ★

كان النوم قد غلبنى أخيراً بعد أن جاهدت طويلا لأسمع تمام حديث جدتى ، فقمت الى فراشى ، وقد بدأت « صباح » وقصتها تسيطران على أحلامى .

المتمـــردة

أمينة السعيد

(١٩١٠ — ١٩٩٥)

.. أسعدنى الحظ فى بداية عملى الصحفى والتقيت بالسيدة العظيمة أمينة السعيد .. وعلى قدر رهبتى من لقائها لما سمعته عنها قوة الشخصية والحدة أحيانا فانى لم استمتع بشخصية جلست اليها كما استمتعت بحديثى مع أمينة السعيد ! ويبدو أن خبرتها الطويلة فى سبز أغوار الكثيرين قد جعلتنى استسلم لودها الشديد ورقتها المحسوبة ، وايضاً لأسئلتها عن كل تفاصيل حياتى ، حتى تحول الحوار بيننا من حوار صحفى اجريه أننا معها الى حوار اجتماعى تجريه هى معى ! ثم تحكى هى لى عن حزنها لما تشعر به من الردة التى أصابت المرأة بعد كفاحها وكفاح زميلات لها .. والطريف أنه أثناء حديثى معها تطرقنا للحديث عن الكاتب الكبير مصطفى أمـين رحمه الله ، وحين قلت أنه الآن أكبر الصحفيين فى مصر سنا ، احتجت السيدة أمينة السعيدة قائلة : لا أنا الأكبر فهو من مواليد سنة ١٩١٤ بينما أنا من مواليد سنة ١٩١٠ ! وضحكت فى نفسى وقلت هذه هى أمينة السعيد التى طالما قرأت عنها وتأثرت بها لست أنا فقط ولكن الكثيرات من بنات جيلي ومن أجيال أخرى سابقة .

فهى السيدة الجريئة الشجاعة التى تعى تماما حجم المرأة وحقوقها وواجباتها . ولعل ذلك يرجع لالتصاقهـا بالرائدة هدى شعراوى حتى قيل إنها كانت تكتب لها الخطب التى تلقيها ، ولكن الأخلاقيات العظيمة والشجاعة المعهودة لامينـة السعيد أبت ان تؤكد ذلك او حتى تتركه دون حسم فكتبت تقول « اننى لم أكتب شيئا لهدى شعراوى ، اذ كانت هدى أعلم منى وأكثر خبرة بمئات المرات ، وانا التى كنت اتعلم منها » . هكذا كانت أمينة السعيدة ، وهكذا ظلت الشجاعة هى مفتاح شخصيتها ضد التفرقة وضد الظلم وضد الرجعية .

ولعل البيئة المتفتحة التى نشأت فيها أمينة السعيد هى التى كونت هذه الشخصية القوية . فقد كانت دائماً ترجع الفضل فى ذلك الى والدها الدكتور أحمد السعيد وكان طبيبا يعمل فى الصعيد وتحديداً فى اسيوط وأبا لثمانى فتيات فقد منهن أربعة وبقى اربعة . فلم يحرص فقط على تعليمهن بـل أرسل اثنتـان منهن للدراسة فى انجلترا ، وكان الرجل أحد المشاركين فى ثورة ١٩١٩ .

ولعل تفتحه ووطنيته كانا العاملان المؤثران على شخصيـة أمينة السعيد ، فظلت السيدة المناضلة الوطنية على مدى حياتها .

ولدت أمينة السعيد فى ٢٠ مايو سنة ١٩١٠ ودرست فى مدرسة الحلمية الابتدائية . وفى سنة ١٩٢٥ التحقت بأول مدرسة ثانوية للبنات على غرار مدارس البنين . وقد أهلها ذلك لدخول الجامعة وكانت اول طالبة فى قسم اللغة الانجليزيـة بجامعـة فؤاد الأول سنة ١٩٣١ وكان من زملاء دفعتها : رشاد رشدى ، ومحمد فتحى (كروان الاذاعة) ود. لويس عوض .

واصرت امينة السعيد عند التحاقها بالجامعة على ان تمارس الرياضة مثل الشباب ، الأمر الذى كان مثار انتقاد شديد فى الجامعة

وفى ذلك تقول : « كنت العب التنس بين المحاضرات . واذا بطالب يصرخ : واسلاماه يا مصيبتاه ! الحقوا اعراضنا راحت ! تعالوا شوفوا الفجور ! » وبالفعل ترك طلبة الحقوق محاضراتهم ومعهم مصطفى أمين ليشاهدوا الفجور وهنا يبرز دور الأب مرة اخرى حين يعلم بالواقعة فيقول لها « أذكر أنى دفعت لك رسوم الجامعة ورسوم الألعاب الرياضية ، فما دامت الكلية تبلت الرسوم فمن حقك ان تمارسى الرياضة ! اذهبى والعبى ولا يهمك وسأقف الى جانبك مادمت لا ترتكبين خطأ » .

كذلك كانت امينة السعيد أول فتاة مصرية تمارس لعبة السلاح فى نادى السلاح . وفى عام ١٩٣٤ ، اى قبل تخرجها من الجامعة بعام ، بدات فى العمل الصحفى الذى سخرت له حياتها وارتبطت به واصبحت أحدى رائداته . فبدات بالعمل فى أخر ساعة لتصبح اول فتاة تعمل صحفية بمعنى الكلمة ! فلقد كان هناك كاتبات مقال اما العمل الصحفى فكانت هى أول من عمل به من الفتيات .

أما الرجل الثانى فى حياة أمينة السعيد بعد والدها فهو زوجها الدكتور عبد الله زين العابدين . وأذكر أيضاً أنى حين زرتها كانت تضع صورته أمامها فى اطار على مكتبها ، وحين تطرق الحديث اليه قدمت لى الصورة كأنها تعرفنى به ! وكانت تتحدث عنه بحب واعزاز شديدين . فهو الذى دفعها لتتزود بالثقافة ، وهو الذى ساندها لتستمر فى عملها وفى مواقفها .

وكانت هدى شعراوى هى السيدة التى اثرت وتأثرت بها أمينة السعيد . فقد تلقفتها وهى لا تزال طالبة بالثانوى لتشارك فى انشطة الاتحاد النسائى ، ولتستمر ملازمة لها منذ عام ٢٥ حتى وفاتها سنة ١٩٤٨ . وقد تنبأت بأن أمينة السعيد ستصبح رائدة للعمل النسائى !

وهو ما تحقق من خلال عملها الصحفى عندما أثارت قضايا حرية المرأة والمساواة والمزيد من الحقوق السياسية للمرأة وتعديل قوانين الأحوال الشخصية . كما أنها ظلت تحرر باب اسألونى فى المصورة منذ عام ١٩٤٦ حتى وفاتها فى عام ١٩٩٥ .

وأمينة السعيد هى المؤسسة لأول مجلة نسائية مصرية وهى مجلة حواء سنة ١٩٥٤ وتولت رئاسة تحريرها حتى عام ١٩٨١ . كما عينت كأول سيدة تترأس مجلس ادارة مؤسسة صحيفة وهى مؤسسة دار الهلال فى ٢٨ مارس ١٩٧٦ ، كما عينت رئيسا لتحرير مجلة المصور ، وقد انتخبت لأكثر من مرة عضوا بمجلس نقابة الصحفيين ووكيلا للنقابة ، وكانت أول سيدة تتولى هذا المنصب ، كما عينت عضوا بالمجلس الأعلى للصحافة ، وعضوا بمجلس الشورى من سنة ١٩٨٤ حتى ١٩٩٤ ، وترأست جمعية الكاتبات المصريات منذ تأسيسها سنة ١٩٨٤ .

وقد حصلت أمينة السعيد على العديد من الأوسمة ، منها : وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى سنة ١٩٦٣ من الرئيس جمال عبد الناصر ، ثم وسام الجمهورية سنة ١٩٨١ من الرئيس السادات، ووسام العلوم والفنون سنة ١٩٨٢ من الرئيس مبارك . وكانت قد حصلت سنة ١٩٧٩ على جائزة الكركب الذهبى الدولية .

هذه الملحمة التى تتفاعل وتنصهر لتكون لنا شخصية أمينة السعيد ، يمكن أن نستدل منها عن كتابات أمينة السعيد التى تصل الى ١٤ مؤلفا بين ترجمة وتأليف ، منها : رواية «الجامحة» «وأبناؤنا المنحرفون » ، «والهدف الكبير» و«مشاهداتى فى الهند» ، وكل هذه الكتابات وغيرها من المقالات الثابتة التى كانت تكتبها أمينة السعيد،

كانت تعبيرا عن شخصيتها المتسمة بالجراة والوضوح والاحساس بالآخرين والموضوعية الشديدة .

وفى هـذا يقـول عنهـا الناقد الكبير رجاء النقـاش : « ان اهم ما يلفت النظر فى هـذا الأدب هـو أنه أدب موضوعى اذا صح التعبير ، فأدب أمينة السعيد متحرر تمامـا مـن ذلك العيب الذى شاع فى جانب غير قليل من ذلك الأدب الذى نسميه — خطأ أو صوابا — باسم الأدب النسائى العربى الحديث » . ويضيف رجاء النقاش : وهذه الموضوعية فى أدب امينة السعيد ترفع هذا الأدب الى مكانة عالية ، وتتيح له أن يعيش فى هذا الجيل وفى غيره من الأجيال محتفظا بنضارته واشراقه ونماذجه الانسانية الصادقة .

على هذا النحو نرى أن امينة السعيد قد استطاعت ان تتفرد فى الأدب كما تفردت فى الصحافة وفى اشياء كثيرة لم تستطع غيرها أن تتألق فيه كما تألقت هى . ونحن هنا نقدم احـدى ابداعاتها الأدبية ، وهى « وجوه فى الظلام التى جمعت فيها بين موهبتها الأدبية ومهارتها الصحفية .. وبصفة عامة فقد استمدت امينة السعيد افكارها وقصصها من آلام المجتمع : من قمته الى قاعه ، وعاشت حياتها متمردة على كل ما خالف عقلها ، واسهمت بذلك فى خلق امرأة مصرية جديدة .

تقاليــــد

- ١ -

بدأت هذه القصة بجرس التليفون يدق فجأة ، وأنا منكبة على الورق أكتب بغاية الاهتمام ..

وتغاضيت عن الرنين ، لعل صاحب المكالمة يتوهم أنني غائبة فيتركني لحالي أتم عملي في هدوء ..

ولكن الوقت مضى وما زال الجرس يدق .. ويدق .. وخيل الى أن رنينه يحمل لونا من الالحاح الشديد ، كأن أحدهم يريد أن يقنعني بتصميمه على الاتصال بي مهما كلفه الأمر ..

وأسلمت أمرى لله وأنا في شدة الغيظ ، ورفعت السماعة وفي نيتي أن أكون جافة الى أبعد حد ..

قلت في صوت أعلى مما يجب : « آلو ... » .

ومططت هذه الكلمة بطريقة تنبيء بما يعتمل في نفسي من ضيق وحنق ، فأجابني من الناحية الأخرى صوت رقيق رخيم تتكلم صاحبته بأدب يشوبه قلق واضح .

قلت : « أفنـــدم ! .. » .

قالت محدثتي ، وقد شــعرت بما في لهجتي من جفـــاء : « لشد ما يؤسفني أن أزعجك أثنـاء العمل ، ولكننا في اشـــد الاحتياج اليك .. » .

قلت : « مشكلة ؟ .. » .

قالت : « نعم ، وغاية في التعقيد .. وقد بتنا أمامها في حيرة لا ندري معها كيف نتصرف .. » .

قلت : « أنا لا أتلقى المشكلات بالتليفون ! .. » .

قالت في لهجة تشبه العتاب : « لم يكن في نيتي أن أفعل ذلك ، وأكون شاكرة اذا تكرمت علينا بموعد سريع .. » .

قلت وكلي رغبة في انهاء المكالمة بسرعة : « الأسبوع القادم.. مثل اليوم ! .

قالت في انزعاج واضـح : « يا ســلام انهـا مسالة حياة أو موت ، وهذا وقت طويل .. » .

ولقد سبق أن سمعت عبـارة « مسالة حياة أو موت » في مناسبات عديدة ، وثبت بعد ذلك أنهـا أبعـد ما تكون عن المعنى المقصود .. ولكن الاخلاص الذي بدا واضحا في صوت محدثتي ، جعلني أميل الى تصديقها ...

قلت وأنا أتلمس طريقي بحذر : « كلهم يدعي ذلك ! .. » .

قالت : « ربما ، ولكني لا أكذب عليك .. وأنت تعرفيني حق المعرفة ، فأنا فلانة تلميذة شقيقتك السيدة كريمة » .

وتذكرتها لفورى ، فقد سبق أن قابلتها ذات مرة فى احدى المناسبات ، وأعجبنى فيها الرقة والطيبة والهدوء .

قلت فى مجاملة : « أهلا وسهلا .. ما دمنا معارف فتفضلى غدا عند الظهر ! » .

قالت باستعطاف : « بل اليوم ان سمحت .. » .

قلت : « أهى مسألة عاجلة الى هذا الحد ؟ » .

قالت : « وأكثر .. سوف ترين .. » .

قلت وأنا أنظر الى ساعتى : « اذن عجلى بالحضور على قدر الامكان ، ولا تتأخرى فموعد انصرافى فى الواحدة والنصف .. » .

قالت : « سأكون عندك فى ظرف نصف ساعة ، أو ربما قبل ذلك .. » .

ووفت بوعدها ، فقبل أن تنقضى الفترة التى حددتها ، وجدتها تدخل مكتبى وهى تلهث بشدة ، مما يدل على أنها صعدت السلم بأسرع ما تستطيع ..

وجلست بجوارى لتلتقط أنفاسها ..

ولما ارتاحت حدثتنى بما جاءت من أجله .. لم تكن المشكلة تخص أحدا من أفراد أسرتها ، ولا أصدقائها أو جيرانها انما هى تخص فتاة غريبة لم يسبق أن رأوها أو عرفوها .. طرقت بابهم تسأل اذا كانوا فى احتياج الى خادمة .. وكانت ترتجف من رأسها الى قدميها فى ذعر جنونى .. وتكاد تكون عارية الا من بقايا ثوب

عتيق .. حافية القدمين مشوشة الشعر ، ومع ذلك كل ما فيها يدل على أنها من أسرة كريمة ، ولا تنتمى من قريب أو بعيد الى طبقة الخادمات ..

وأخذتهم بها الشفقة ، ولكنهم فضلوا أن يردوها بأدب ، خيفة أن تكون الحيلة الأزلية التى يتذرع بها بعض اللصوص ، لدخول البيت .. فما أن سمعتهم يعتذرون عن قبولها خادمة فى بيتهم ، حتى انهارت دفعة واحدة ، وسقطت على عتبة الباب فى اغماءة شديدة .. اغماءة طبيعية لا يشوبها أدنى افتعال ، بدليل انهم عجزوا عن افاقتها بالوسائل العادية ، واضطروا أمام خطورة حالتها الى استدعاء طبيب من أقاربهم .. وظل الرجل بجوارها ما لا يقل عن ساعة من الزمن ، يسعفها بالحقن والعقاقير ، حتى عادت الى رشدها ، وبدأت مظاهر الحياة تدب فيها من جديد ..

واجتمعوا من حولها يسألونها عما بها ، فرفضت الكلام ..

تذرعوا بكافة الحيل ، فلم يجد معها شىء .. واكتفت بالبكاء بغير انقطاع دون أن تفصح عن شخصيتها ..

لجأوا الى الشدة بعض الشىء ، وهددوها بابلاغ البوليس ، فعاودها الاغماء ، واضطر الطبيب الى اسعافها مرة ثانية .. ثم نصحهم بتركها وشأنها فى الوقت الحاضر ، لانها فى محنة حقيقية والانهيار العصبى العنيف الذى تعانيه ، قد يؤدى بها الى ما لا يحمد عقباه ، اذا لم يعالج أمرها برفق وحكمة ..

ورحبت صاحبة البيت بايوائها ، حتى يزول ما بها ، وتتكشف حقيقتها ..

ووافق زوجها على ذلك اكراما لبناته الصغيرات ..

قلت لضيفتى : « أما زالت عندكم الى الآن ؟ ·· » ·

قالت : « طبعـــا ·· » ·

قلت : « ومتى جاءت اليكم ؟ » ·

قالت : « منـــذ أســـبوع ·· » ·

قلت : « وهل تكلمت فى خلال هذه المدة ؟ ·· » ·

قالت : « قليلا ، بل أقل من القليل ·· » ·

قلت : « وماذا عرفتم من أمرها ؟ » ·

قالت : « انهـــا من أسرة كريمة كما توقعنا ·· واذا تخليـنـــا عنها تموت ! » ·

قلت : « ولاى سبب تموت ؟ ·· » ·

قالت : « لست أدرى على وجه التحقيق ، فهى لم تشأ ان تفضى الينا بسرها ، ولكنك تعرفين أهل الصعيد ·· » ·

قلت : « أهى صعيدية ؟ » ·

قالت : « سمعناها فى معرض حديثها تشير الى أنهم من « ······ » وذكـــرت اســـم مدينة معروفة فى صـــميم قلب الصعيد ·· » ·

قلت : « وهل اهتديت الى معـــرفة أهلها ، وعرفت ان كان والدها على قيد الحياة ؟ » ·

قالت : « لم نشأ أن نضغط عليها مراعاة لصحتها ، واحتياجها الى التغذية بنظام .. » .

قلت : « ولماذا التغذية بنظام ؟ » .

قالت : « كانت فوق انهيارها العصبى ، تعانى من ضعف لا يتصوره العقل .. ويؤكد الطبيب أنه نتيجة لجوع طويل مرير ، كأنها لم تأكل من شهور .. فاضطررنا الى تغذيتها بقدر محدود ، وفى أوقات معينة من النهار ، وواليناها بالفيتامينات والمقويات ، حتى أصبح فى مقدورها أن تتحرك على قدميها .. » .

قلت : « وكيف كان سلوكها فى بيتكم طيلة الأسبوع » » .

قالت : « صامتة .. هادئة .. مطيعة .. ولكنها عجيبة .. يعنى من العسير أن تشعرى أنها .. قصدى كأنها مجردة من العواطف .. لا ، هذا كلام غير مضبوط .. والحقيقة أن نظراتها تجعلك تأسفين عليها .. أو فيها شيء غير عادى .. » .

وتنهدت بيأس ، ثم سكتت برهة وبعدها قالت : « يجب أن تريها أنت لتحكمى عليها ، فمن العسير أن أصفها لك كما يجب .. » .

وتبين لى أنها عاجزة عن التعبير عن رأيها فى الفتاة ..

قلت وأنا أفكر مليا : « ترى لأى سبب اختارتكم أنتم بالذات ؟ » .

قالت : « لست أدرى .. » .

قلت : « وماذا تريدين منى ؟ » .

قالت : « أن تقفى على سرها ٠٠ فنحن بالصراحة لا نستطيع تحمل مسئولية فتاة غامضة بهذا الشكل ٠٠ من يدرينا من أين جاءت وماذا وراءها ؟ ٠٠ اننـا نشفق عليها ، ولكننـا فى الواقع خائفون ٠٠ » ٠

قلت : « وهل أحضرتها معك ؟ » ٠

قالت : « نعـم ، وتركتها فى الخـارج ، حتى أحـدثك بموضـوعها ٠٠٠ » ٠

قلت : « آتينى بها ٠٠ » ٠

وخرجت زائرتى لحظة ، ثم عادت بها ٠٠

وبهت حين رأيتها ٠٠

لم تكن القادمة فتاة ، انما كومة من الأغطية واللفائف تحجب المخلوقة التى تحتها تمـاما عن الأنظار ٠٠ رأسـها ملفوف بطرحة سوداء كثيفة ، تبينت تحتها نظارة شمس غامضة تخفى عينيها ٠٠ وحول جسدها معطف شتوى فضفاض فى ضعف حجمها على الأقل، وقد بدا من ورائه طرف جلباب طويل يصل الى الحذاء ٠٠

ولم أستطع أن أتبين منهـا شـيئا ، فقلت لزائرتى : « لماذا لففتها بهذا الشكل ؟ » ٠

قالت وهى تخلع عنها الأغطية بالتدريج : هى التى أصرت على ذلك ٠٠ لم ترض بالخروج الى الطريق الا ملفوفه هكذا ٠٠ ولو تركناها لرغبتها لكومت على جسمها ملابس البيت كلها ! » ٠

وفهمت من ذلك أنها لا تريد أن تقع عليها عين فى الطريق ..

يعنى أنها ليست يتيمة ولا مقطوعة ، ولا شيء من هذا ..

وأخذت الفكرة تتبلور فى ذهنى ، وزائرتى ماضية فى مهمتها. تعاون الفتاة على خلع أغطيتها بمنتهى الرفق .. رفعت الطرحة السوداء أولا ، فالنظارة ، ثم المعطف الفضفاض .. وعندئذ تبين لى ما توهمته فى البداية جلبابا طويلا ، لم يكن فى الحقيقة سوى « روب دى شمبر » خلعته بالمثل ، فظهر جسدها وعليه ثوب نظيف ، أغلب الظن أنه لا يخصها ، ولكنه يقوم بالواجب من حيث تغطية جسدها بشكل مقبول ..

وانكشفت على حقيقتها ، فطالعتنى طفلة تدعو الى الرثاء : نحيفة القوام الى درجة لا تقبل الوصف .. ظهرها مقوس فى احدوداب ظاهر يجعلها تقف كعجوز فى أرذل العمر .. شعرها البنى الكثيف يتهدل على كتفيها دون انتظام عيناها العسليتان الواسعتان غائرتان فى محجرين تحيط بهما هالة داكنة فى سوادها حتى لتظن أنها طليت على وجهها بالحبر .. أنفها الصغير الدقيق وكذلك فمها الممتلىء المستدير يكتنفهما من الجانبين خدان التصق الجلد فيهما بالعظام مثل المومياء ..

وكانت قصيرة القامة ، ضئيلة الحجم ، صفراء اللون فاقعته .. فشعرت كأننى أقف أمام مخلوقة انبعثت لتوها من القبر !

وأحسست بقلبى يغوص بين جنبى ، وأنا أتأمل هذا الحطام الانسانى البائس ..

قالت زائرتى ، وقد فهمت من وجهى مدى دهشتى الصامتة : « انها الآن أحسن حالا ألف مرة بفضل التغذية والحقن والفيتامينات، ولو رأيتها يوم جاءت ، لأصابك الذعر ! » .

قلت بذهول : « مستحيل ! .. » .

قالت مؤكدة : « أساليها ! » .

قلت وأنا أبذل جهدا فى التغلب على مشاعرى : « اسمها ؟ » .

قالت : « وداد .. » .

ورمتنى الفتـــاة بنظرة كلها توجس وجمود ، ولم ترد على تحيتى ..

وصرت على أسنانها ، فتقلصت عضـلات خديها ، وزادتها شبها بالمومياء ..

قالت السيدة فى لهجة الاعتـــذار : « لا تؤاخذيها ، فهى ما زالت غير طبيعية ! » .

ثم التفتت الى الفتاة تربت على ظهرها المحدودب برفق شديد ، وتقول بحنان : « لا تخافى منها يا وداد .. انها سـيدة طيبة وتريد بك كل الخير .. انها أختنا جميعا ، ونحن نلجأ اليها دائما بمتاعبنا .. انها .. انها .. انها ! » .

ومضت تمتدحنى للفتاة ، وتبالغ فى وصف خدماتى ، حتى كدت أصدقها وأتوهم أننى أصنع المعجزات !

واستمعت الفتاة اليها دون أن تحرك ساكنا ..

وظلت تصر على أسنانها ، وترمينى بنظرات تختلط فيها القسوة بالشك ..

وبقيت حدقتاها مسمرتين على وجهى ، لا ترتجفان ، ولا تتحركان قيد شعرة الى اليمين أو اليسار ..

وفهمت فى الحال لماذا عجزت زائرتى عن وصفها بوضوح ، فالانفعالات التى تتطاحن فى صدر الفتاة كثيرة معقدة ، وكان من نتيجتها أنها أصبحت تكره الناس ، ولا تثق بأحد من الناس !

فتاة صغيرة حقا ، لا يتجاوز عمرها — على ما يبدو — الثانية عشرة ، ولكن الظروف التى اكتنفت حياتها ، سممت قلبها وعواطفها ، وجعلتها تناصب الدنيا ومن فيها العداء ..

وقررت أن أفعل شيئا يزيل مخاوفها منى ، ويطمئن قلبها الى ..

فتقدمت اليها باسمة ، وأخذتها بين ذراعى

ولكنها نفرت الى الوراء تريد الابتعاد عنى ، فشددت ذراعى حولها ، وانحنيت على جبينها رغم ممانعتها ، وأودعته قبلة هادئة ..

ونجحت المحاولة بعض النجاح ، اذ شعرت بجسدها يلين بعد توتر ، وسارت معى متباطئة ، ثم جلست على طرف المقعد بطريقة غير مريحة ..

واطمأننت نوعا حين رأيت حدقتيها تتحركان بعد تحجرهما الأول ، ووجهها الممتقع يشوبه بعض الاحمرار .

كانت عواطفها قد أخذت تستيقظ رغما عنها ..

قلت وأنا أدفعها برفق الى ظهر المقعد : « بل اجلسي هكذا ترتاحين ! » .

صاحت في ألم شديد : « آه ! .. » .

قلت منزعجة : « هل أوجعتك ، يا وداد ؟! »

همست تقول وما زال وجهها متقلصا : « ظهري .. ! » .

قلت : « وماذا به ؟ »

وانبرت زائرتي تشرح لي الموضوع نيابة عن الفتاة ، قالت : « لست أدري ماذا أصاب عمودها الفقري .. فمنذ آتتنا ، وهي تعاني ألما شديدا عند الجلوس والنوم .. ألم تلحظي انحناءة ظهرها ؟ » .

وسألت الفتاة عن تاريخ الألم وأسبابه ، فرمتني بنظرة قاسية ولم ترد ..

قلت كأنني سمعت منها الكفاية : « بسيطة .. وبوسع أصدقائنا الأطباء أن يعالجوها في وقت قصير ، فتعود منتصبة الظهر ، سليمة ، جميلة .. انها حسناء بمعنى الكلمة ، ولكن المرض والضعف يفسدان شكلها » .

ووجدتها تنصت لى باهتمام . فعرفت أن حديثى لقى هوى فى نفسها ..

فقلت أتمم طمأنينتها : « كانت لنا قريبة تعانى من ظهرها على هذا النحو وأكثر ، ولم يستغرق علاجها سوى أسابيع .. » .

واحمر وجهها مرة ثانية ، وأخذت نظراتها تلين بالتدريج ..

وتناولت راحتها بين يدى ، وأنا أضغط عليها بحنان ..

قلت فى لهجة الأسف : « ما زلت صغيرة على هذا العذاب كله ، يا وداد ! » .

ومس حديثى قلبها ، فارتجفت عضلات وجهها الضامر ، وملأت الدموع مقلتيها الغائرتين فى بحر من السواد ..

قلت أشجعها على التنفيس عن نفسها : « لقد احتملت أكثر من طاقتك ، فيا أسفى عليك ، يا وداد ! »

وانفجرت تبكى بحرقة شديدة ، فقلت مشجعة : « ابكى كما يحلو لك ، ولو كنت منك لبكيت أياما .. » .

ورن صوتها فى مسامعى ناصعا مما لا يتناسب مطلقا مع حجمها الصغير ..

قالت : « ثمانية عشر عاما على وجه التقريب .. يعنى بعد شهرين .. »

كنت أظنها فى الثانية عشرة من عمرها على أكثر تقدير ، فصحت أقول بدهشة : « غير معقول ! » .

ولم ترتح الى دهشتي ، فعادت الى جمودها السابق ، واكتست نظراتها بالشك ..

قلت أغطى اندفاعي : « طبعا غير معقول ، وأمر حقيقة عجيب .. فأنت فى سن ابنتي ، وتشبهينها تماما ، ومنذ دخلت المكتب ، وأنا أحس كأنك هي .. نسخة طبق الأصل تقريبا ! » .

وكنت أكذب بالطبع ، ولكن كذبتي أصابت هدفها المقصود ، فأشرق وجه الفتاة ، وقالت تسألني هامسة : « صحيح ؟ » .

قلت أتم الوصف : « شعرك ، شعرها .. وعيناك عيناها .. لولا نحافتك ما أمكن التفريق بينكما .. سأعرفك بها يوما ، لتصبحا صديقتين ! » .

وانهارت البقية الباقية من مقاومتها ، فابتسمت نصف ابتسامة ..

قالت تسألني بسذاجة : « وظهرها أيضا تعبان ؟ »

وخشيت أن أمضى فى كذبتي ، فتنقلب الآية ، وأفقد ثقتها بى ..

قلت وأنا أهز رأسي دون مبالاة : « لا ، ظهرها سليم ، لاننا نشجعها على ممارسة الألعاب الرياضية المفيدة وهو ما يجب أن تفعليه بعد العلاج .. » .

قالت فى تساؤل يشوبه التفاؤل : « تفتكرى ؟ »

قلت : « ضرورى ٠٠ وسوف ترين كيف نجعلك فى رشاقة الغزلان ! » ٠

وانفرج فمها عن ابتسامة كاملة ٠٠

وعندئذ شعرت اننى كسبت معظم المعركة ، ولم يبق سوى جهد قليل ، وأحرز النصر النهائى ، فضغطت على زر الجرس ٠٠ وحين جاء الفراش ، أمرت لها بكوب من عصير الليمون ٠٠

وسمعتها تهمس والفراش ينصرف : « مرسى ! » ٠

وجاءها الشراب ، فتقبلته راضية ، وانحنت عليه ترشفه بلذة وهدوء ٠٠

وتركتها حتى أتت عليه ، وأنا اتشاغل عنها طول الوقت بالحديث فى أمور عامة مع الزائرة التى أتت بها . وأتظاهر فى ذات الوقت بتنظيم الأوراق المكومة أمامى ٠٠

وفى الوقت المناسب ، انتهيت من مهمتى المفتعلة ، وعدت أنظر اليها ببشاشة ولكن دون اسراف ٠٠

قلت لها : « حدثينى بحقيقة أمرك يا وداد » ٠٠

قالت وهى تشير الى زائرتى : « اسأليها ! » ٠

قلت : « كيف أسألها ، وهى لا تعرف شيئا ؟ » ٠

قالت وهى تتطلع الى بعينيها الغائرتين : « أعطيتها ما عندى .. » .

قلت : « لا .. والأفضل أن تكونى صريحة معنا ، والا كيف يمكننا أن نساعدك ؟ » .

وفجأة ، وقبل أن تأخذ حذرها ، قلت : « لماذا هربت من البيت ، يا وداد ؟ » .

كانت رمية رميتها على مجرد التخمين ، فجاءت صائبة .

قالت فى اندفاع : « لا أريد أن أموت ! » .

قلت : « ولماذا تموتين ان بقيت هناك ؟ » .

قالت : « لانه يعتزم قتلى ؟ » .

قلت : « من ذا الذى يعتزم قتلك ؟ » .

قالت : « بابا .. » .

قلت فى دهشة صادقة : « وهل يعقل أن يقتل آب ابنته ؟ » .

قالت : « انها تقاليد الصعيد ! » .

قلت : « ولماذا يريد قتلك ؟ » .

ولزمت الصمت قليلا ، وبدا كأنها تفكر فى جواب يقنعنى ..

قالت بعد لحظة : « طبعا لانني بنت ، وهم يحبون البنين ! » ٠

كانت هى الأكذوبة التى أسعفها بها عقلها ، فقلت بلهجة التأنيب : « وهل تظنين أنى أجهل تقاليد الصعيد ، لتضلليني بهذا الكلام ؟ ٠٠ لقد عشت هناك سنين ، ولى فى الصعيد أهل وأصدقاء ، وأعرف أنهم حقيقة يفضلون لو رزقوا ببنين ، ولكنهم لا يقتلون فتاة لمجرد أنها فتاة ! »

ورفعت الفتاة رأسها الى السيدة التى آتت معها ، ونظرت اليها باستعطاف كما لو كانت تناشدها المعونة ٠

قالت كأنها تمتحنني : « ولماذا يقتلون اذن ؟ » ٠

قالت لها السيدة : « تكلمى يا وداد ! » ٠

قلت بعنف : « للعرض ! » ٠

وجاءتها اجابتى مفاجأة لم تكن تتوقعها ، فنكست رأسها بسرعة ، وجعلت تنظر الى حجرها ، وهى تلوى يدها الواحدة بعد الأخرى فى عصبية بالغة ٠٠

قلت أستحثها على الصراحة : « انهم يقتلون للعرض فقط ، يا وداد ٠٠ فماذا فعلت لتستحقى القتل ؟ » ٠

ورفعت الفتاة رأسها الى السيدة التى آتت معها ، ونظرت اليها باستعطاف كما لو كانت تناشدها المعونة ٠٠

قالت لها السيدة : « تكلمى يا وداد ! » ٠

قلت : نحن هنا أحرص عليك من أهلك ، وبشرفى لن أمكنهم منك الا فوق جثتى .. يعنى يجب أن يقتلونى أولا قبل أن يمسوك بسوء ! » .

وازداد امتقاع وجهها ، حتى بات يحاكى فى لونه صفرة الأموات ..

قلت أشدد الضغط عليها : « لا تضيعى وقتى هباء ، فليس أبغض الى نفسى من الالتجاء الى البوليس ! » .

وأتى التهديد المستتر بفعله ، فقالت فى استسلام : « أنا مستعدة ، فماذا تطلبين ؟ »

قلت : « الحقيقة .. لماذا هربت من بيت أهلك ؟ .. ولأى سبب أرادوا أن يقتلوك ؟ » .

قالت منكسة الرأس : « ليس من يريد بى ذلك سوى والدى ! » .

قلت : « ومتى قرر قتلك ؟ .. » .

قالت : « بعد أن ضبطنى ! » .

قلت : « أين ؟» .

قالت : « فى فراشه ! » .

قلت : « فى فراشه هو ؟ » .

قالت : « لا بل فراش عرفات ! » .

قلت : « ومن يكون عرفات ؟ » .

قالت : « خادم البيت ! » .

- ٢ -

كنت أعرف بالطبع أن « وداد » لابد أنها ارتكبت غلطة تتصل بالعرض ، والا ما فكر أبوها فى قتلها .

وجالت بخاطرى أثناء حديثى معها احتمالات كثيرة عمن أجرم فى حقها .. ابن العم أو الخال ، صديق الأسرة ، أحد الجيران .. فقد سبق أن مرت بى قصص من هذا القبيل ، ولم يعد يدهشنى أن يخون الأمانة أقرب الناس .

أما أن يكون الفاعل خادم البيت ، فأمر لم يطرأ لى على بال..

قلت وأنا أريد أن أتأكد من صحة ما سمعت : « فى فراش من ضبطك والدك ؟ » .

قالت مرة أخرى : « عرفات ، خادم البيت ! » .

وألجمتنى الحقيقة المؤسفة ، فاحتبس صوتى فى حلقى ، وشعرت كأن سكينا حادة تخترق قلبى ..

ولاحظت الفتاة ما اعترانى من دهشة وألم ، فاكتسى وجهها بالجمود ثانية ، ونظرت لى بطريقة زادت عينيها غورا على غور ..

ومرة أخرى خيـــل الى أننى أجلس الى احـــدى ساكنات القبـــور ..

قلت وأنا أتمنى من صميم قلبى أن تكون المسألة أبسط مما تصور لى : « وماذا كنت تفعلين فى فراش عرفات ؟ » .

وسكتت عن الاجابة ، وقد بدت فى وجههـــا مظـاهر خجل مميت .

قلت فى هلع مكبوت : « هـــل وصلت عـــلاقتك به الى .. .. الى .. ؟ » .

وخانتنى شجاعتى ، فنظـــرت اليهـــا فى تساؤل دون أن أتم جملتى ..

وخانتها شجاعتها هى الأخرى ، فنكست رأسها فى ذلة جاءت أبلغ من الكلام ..

قلت : « كانت أول مرة ؟ » .

فهزت رأسها علامة النفى ..

قلت : « كم مرة ؟ » .

قالت فى صوت خفيض : « كثيرا » ..

قلت في لهجة يشوبها العنف : « كـــم ؟ » .

قالت وقد ازداد صوتها انخفاضا حتى بات همسا : « أصلها مدة طويلة ! » .

قلت ملحة : « شهر .. اثنين .. ثلاثة .. عشرة ؟ » .

قالت : « بل خمس سنوات ! » .

قلت وقد دار رأسي ، واسودت الدنيا في وجهي : « ومتى عرف أبوك بالموضوع ؟ » .

قالت : « منذ أربع سنوات ! » .

واختلطت على أقوالها ، ولم أعـــد أفهـــم المعنى الصـــحيح لكلامها ..

قلت أستوضحها : « تعنين أن أباك اكتشف الغلطه بعد أن استمرت خمس سنوات ؟ » .

قالت : « نعـــم » ..

قلت : « وكان ذلك منذ أربع سنوات ؟ » .

قالت وهي تتنفس بصعوبة : « تمـــام ! » .

قلت : « أي ان الاعتداء أول ما وقع عليك وأنت في التاسعة من عمرك ؟ » .

قالت ومقلتاها تمتلآن بالدموع : « لم آكن بلغتها بعد ! » ٠

وغلبتنى شـجاعتى ، فوجدتنى أتنهد من أعماقى ، ثم أعتمد رأسى على يدى فى حزن شديد ٠٠

قلت فى رنة الأسى : « وأهلك يا وداد ٠٠ آين كانوا طيلة هذه المدة ؟ » ٠

قالت : « لم يساورهم شك ٠٠ كانوا يثقون بـ « عرفات » وكنت متفوقة فى مدرستى ٠٠ دائما الأولى ، مطيعة ، هادئة ، لا أغضى لهم أمرا ، ولا أطلب الخروج من البيت لنزهة أو فسحة » ٠

قلت : « واين قضيت السنوات الأربع الأخيرة ؟ » ٠

قالت : « محبوسة فى غرفة الكرار » ٠٠

قلت : « على السطح ؟ » ٠

قالت : « لا ٠٠ فى قلب البيت ٠٠ انها غرفة صغيرة مظلمة تفتح على الصالة ، ونحن نتخذها مخزنا لبعض الأشياء التى لا نحتاج اليها كل يوم ٠٠ الفائض من المراتب والمخدات » ٠٠

قلت : « ولماذا لم يقتلك أبوك فى البداية ، ما دام منطقه هـكذا ؟ » ٠

قالت : « كان يريد أن أموت جوعا ٠٠ هكذا قال » ٠

قلت ، وأنا أغالب الثورة التى تغلى فى صدرى : « اروى لى

القصة بتأن وتفصيل ·· أريد صورة كاملة للمأساة ·· طفولتك وصباك ·· ظروفك ومتاعبك » ·

وأخذت تبلع ريقها بصعوبة ، ثم بدأت تتكلم فتلعثمت ···

كان من العسير عليها أن تمدني من تلقاء نفسها بالتفاصيل المنطقية المسلسلة ، فواليتها بالأسئلة الموضحة . وبنيت عليها استنتاجاتي الخاصة ، وبذلك تأتت لي معرفة المأساة كاملة ·· المأساة التي بدأت في قلب الصعيد حيث ولدت وداد ، وجاء ترتيبها الأخيرة بين اخوتها ، فقد سبقها أربعة . بنتان وولدان أصغرهما يكبرها بسبع سنوات ··

وبقدر ما هلل أبوها لمولد أولاده الاربعه . اغتم بمجيء الفتاة . فقد اكتنف خروجها الى الدنيا حوادث مؤسفة لم يكن لها يد فيها . ولكن القدر شاء أن يأتي بها مصادفة لتدفع الطفلة البريئة ثمن ما لم تجنه ·· ففي يوم مولدها كان خصوم أهلها يكمنون في الزراعة . وبينما عمها الأكبر ــ وهو عميد الأسرة ــ عائد من الغيط الى البيت بعد الغروب ، أطلقوا عليه الرصاص فأردوه قتيلا على سبيل الانتقام ··

وانطلق « الصوات » بين جدران البيت في ذات اللحظة التي خرجت فيها وداد من بطن أمها الى الوجود ··

وفي « الأسبوع » استأنف الخصوم اعتداءاتهم . فأحرقوا بالليل جرن القمح الكبير ، فتسببت عن ذلك خسارة مالية ليست هينة ··

ونسي أبوها أسباب الجرائم ومسبباتها ، ظروفها وملابساتها ،

واعتبر الفتاة مجلبة للشؤم ·· فكرهها ، وحذر أهل بيته من وضعها في طريقه ، ويقال انه لم يرها منذ سنتين كاملتين ··

وجاملته زوجته في البداية على طريقة أهل الريف ، فجفت هي الأخرى وليدتها ، وأبت أن ترضعها من ثدييها أياما ، ولولا احدى الجارات الطيبات ، لماتت وداد من الجوع ··

وبهذا الظلم استقبلت وداد حياتها ، وبمضى الزمن تعلمت مما نسمعه نباعا عن ظروف مولدها أنها مخلوقة بغيضة الى أهلها . وقد جاءت المصائب في أعقابها ·· ولهذا السبب كانت أختاها الكبيرتان تسميانها أحيانا على سبيل الاغاظة « وش الغم » ·

ومع ذلك سارت أمورها في طريق هادىء لا يخلو من المتعة. فأبوها لم يكن يدخل بيته الا لماما ·· يخرج مع الفجر وهي تغط في نومها ، لمباشرة زراعته التي تبعد دقائق عن البلدة ، وعندما ينتهي من عمله يقصد « المضيفة » ليأكل مع من يتصادف وجودهم عنده في موعد الغداء أو العشاء ·· وفي نهاية هذا الروتين اليومي المنتظم ، يعود الى بيته بعد أن تكون الطفلة قد آوت الى فراشها ، واستسلمت للنوم ··

وجاء هذا النظام المألوف بين ذوى الأملاك من أهل الريف نعمة لوداد ·· وأفسح الطريق أمامها للمرح والضحك بقدر ما يتناسب مع طفولتها ·· تخرج الى الحديقة الخلفية ، لتقضى الصباح كله في مطاردة البط والأوز والدجاج ، ثم تدخل البيت لتستأنف لعبها في البهو الكبير ··

ويمضى بها الوقت هكذا ، ولا من حرج عليها الا اذا دخل أبوها في غير أوقاته المعتادة ·· عندئذ تنزوى من تلقاء نفسها في

عرفتهـــا ، وتظل بها حتى يزول الخطر بخروج أبيها الى المضيفه أو الغيط ٠٠

وقبيل العام السابع من عمرها ، كانت أختاها الكبيرتان قد حصلتا على التوجيهية في عام واحد ، واتفق الرأى على الحاقهما بالجامعة ، وبات الصبيان فى طريقهما الى الانتهـاء من المرحلة الثانوية ٠٠ فرأى الاب أن تنتقل الأسرة بكاملها الى القاهرة حتى يجتمع شمل الأولاد فى مكان واحد تحت رعاية الوالدين ٠٠

وشدت الأسرة رحالها الى القاهرة ، وهى تحمل معها ذخيرة من الجمود والصرامة ٠٠

والعجيب أن الرجـل كان متعلمـا ، وقد درس فى الحقوق ثلاث سنوات ، ولولا الضيعة الكبيرة التى ورثها عند وفاة أبيه . لأتم دراسته بتوفيق ٠٠ ثم انه كان مؤمنا بتعليم البنت بدليل قبوله التحاق ابنتيـــه الكبيرتين واحـدة بكلية العلوم والأخرى بالآداب ٠٠

ولكنـه كان يؤمن بتقاليـد الصعيد فى جوهرها ومظاهرها ، ويتبعها بقدر ما يستطيع ٠٠ ومن ذلك مثلا أنه استأجر بيتا فى حمامات القبة . ولما سألوه لماذا اختار هذه البقعة البعيدة عن قلب المدينة ومعاهدها العلمية ٠٠ أجـــاب بأنه يعرف العاصـــمة على حقيقتها ، ولا يريد لأولاده البنين أو البنات أن يعيشوا وسط الفجور والاستهتار ٠ وخوفا من أن تخـــدم فى بيته احدى بنات مصر اللعوبات ، فتفسد البنات وتطير عقل الصبيين ، آتى معه برجل فى الخامسة والعشرين من عمره كان أبوه بستانيا فى البيت وجده غفيرا فى زراعتهم ٠٠ يعنى خادمهم ابن خادمهم أبا عن جد ! ٠٠

وعندما وصلت وداد الى هذ االحد من قصتها ، مضت تقول :
« جاء معنا عرفات ليؤدى كافة الخدمات المطلوبة فى البيت ٠٠ يكنس ويمسح ويقضى الحاجات من السوق٠٠ يصحبنى الى المدرسة كل صباح ، ويعود بى منها كل مساء ٠ وفى أوقات فراغه يراعينى ويداوينى ويلاعبنى ، واذا انشغلت أمى أو مرضت ، يغير لى ملابسى، ويضعنى فى الفراش ، ويحكى لى « الحواديت » حتى آنام !

قلت : « يعنى دادة ؟ » ٠

قالت : « مثـــلا ! » ٠

قلت فى دهشة : « أنا لم أسمع فى حياتى برجل يقوم بعمل المربيـــة » ٠

قالت فى بساطة : « ولكنها عادة شائعة فى بلدتنا ٠٠ وكل من نزح الى القاهرة من أقاربنا وأصدقائنا ، آتى معه بخادم تعرفه الأسرة أبا عن جد » ٠٠

قلت : « وهكذا أطلق أهلك له الغارب معك » ٠٠

قالت : « الواقع أن فارق السن كان كبيرا بينى وبين اخوتى، فالاثنتان الكبيرتان غارقتان فى دراستهما ، والصبيان مشغولان بأصحابهما ، ولم يكن يرافقنى دائما سوى عرفات ! » ٠

ثم سكتت برهة ، وقالت : « وأحيانا صلاح » ٠

قلت : « من هو صلاح ؟ » ٠

قالت : « أصغر اخوتى ، ويكبرنى بسبع سنوات ، وكان

يحبنى ويعطف على ، ويلاعبنى فى بعض الأوقات . انما طبعا بقدر ما تسمح ظروفه » .

قلت أتم كلامها : « فأصبح الخادم رفيقك الوحيد » .

قالت : « تقريبا .. كنت وحيدة وهو تعيس » ..

قلت : « لماذا .. تعيس ؟ » .

قالت : « الغربة والاهانة .. كان يحن الى بلده وينضايق من احتقارهم له .. الداخل يشتمه والخارج يحقره . وبالليل ينام على الحصيرة فى المطبخ بجوار غرفتى » .

قلت : « والمطبخ داخل البيت ؟ » .

قالت وكأنها لا تعرف مكانا آخر له : « طبعا ، أمال فين ؟ » .

قلت فى استنكار : « كيف يسمحون لخادم بالنوم معكم ؟ » .

قالت : « على سبيل الحيطة ، ف « بابا » يغيب عنا لشئونه فى الريف ، وماما تخاف من اللصوص ! » .

وكفت عن الكلام ، وعادت ترمينى بنظراتها الجامدة ، حتى خيل لى أن الهالتين اللتين تحيطان بعينيها ، قد اتسعتا ، وغمرتا وجهها كله ..

ولجأت الى اللين والملاطفة ، وما زلت بهـــا الى أن اعترفت بالحقيقة .

ف « عرفات » شاب مفرط فى طوله ونحول جسده ، وقد تعودوا أن ينادوه على سبيل السخرية ب « الزعزوع » ، عيناء ضيقتان ، وعلى احدى حدقتيه سحابة بيضاء ٠٠ له شفة «مشرومة» من الجنب ، وهو عيب لازمه منذ مولده ٠٠ وكان فوق ذلك قذرا فى جسده وملبسه ، قلما يفكر فى غسل وجهه أو تغيير جلبابه الا بعد تقريع وتأنيب ٠٠

ولم يكن يعطف عليه سوى البنت الصغيرة التى يسليها ، ويلاعبها ، ويحكى لها أعجب « الحواديت » ٠

قال لها ذات يوم : « أنها مكروهة لكونها مجلبة للشؤم ، وهو مكروه لكونه فقيرا فالواجب أن يتحالفا ويصبحا حبيبين ٠٠ انما فى الخفاء ، فالأهل اذا عرفوا بمودتهما يبعدونه عنها ، فتصرم التسلية والحواديت ٠٠

ووافقت وداد مرحبة ٠٠

كانت تحبه لانه الانسان الوحيد الذى يلبى مطالبها دائما ٠٠ « أخذها على قد عقلها » ولا يتحرج عن مخالفة أوامر الكبار ارضاء لها ٠٠ فحتى صلاح ــ شقيقها المفضل ــ كان له أصدقاؤه ومشاغله، ومن العسير أن يفرغ لها مرة فى الشهر ٠٠ أما عرفات فلها فى أى وقت تريد ٠٠

ومن هنا جاء ارتباطها العاطفى به ، ذلك الارتباط الذى هون عليها دمامته وقذارته ، وجعلها لا ترى مانعا من أن يقبلها كما يشاء ، بل ويضمها أحيانا أثناء التقبيل بقسوة تكاد تحطم ضلوعها ، ولكنها لا تثير فى نفسها الطاهرة البريئة أدنى شك ؟

فى السر ‥ يمتهن طفولتها أثنــاء جلوسهما وحدهمــا بعيدا عن الأنظــــار ‥

والواقع أنها خجلت فى أول مرة من تصرفاته ، وأوحى اليها شعور مبهم بأن هذا كثير ، ولكنه طمأنها الى أنه تصرف طبيعى جدا دائما يحدث بين كل حبيبين وفيين مثلهما ‥

وصدقته ، فتركته يفعل ما يريد ، انما فى السر دائما حسب الشروط ‥

وظلت على هذا الحال الى أن قاربت التاسعة من عمرها ‥

وأخذه الاطمئنان ، فتمادى وأصبح يطمع فى مزيد ‥ فذات ليلة أغراها بالتسلل الى فراشه بعد استغراق أهلها فى النوم ، بحجة انه اكتشف لعبة جديدة أجمل وألطف من كل ما عرفته ‥

وعملت بأوامره ، فانتظرت حتى هدأت حركة البيت وخيم عليه الظـــلام ‥ ثم توجهت على أطراف أصابعها الى مرقده على الأرض ‥

ووقعت الكارثة فى تلك الليلة ‥ ولما أخذت فى البكاء ، أسكتها بالتهديد وأكد لها أنهم اذا عرفوا بما فعلته معه ـ لا بما فعله هو ـ يذبحونها بسـكين المطبخ الكبيرة ‥ يفصـلون رأسها عن جسدها ، ويلقون بها الى الكلاب ‥ الكلاب الثلاثة الأرمنت ، التى تحرس بيت العزبة بالليل ، ولا يجرؤ أعتى المجرمين على الاقتراب منها ، والا مزقته شر تمزيق ‥ الأفضل أن تسكت فورا ، فما أتته عقابه الوحيد هو القتل !

ولولا الرعب الذى أخــذها نتيجـة للتهديد ، لملأت الدنيا بصراخها وأيقظت أهل البيت بصياحها ..

وبقيت العلاقة خمس سنوات .

ثم تطاول بالتدريج ، وأخذ ينتهز الفرص ليستغلها بدناءة

وفى كل مرة كانت الجريمة تقع تحت التهديد ، فاما أن تأتى الى فراشــه بالليل ، أو يفضح سرها لأهلهـــا ، فتذبح بالسكين الكبيرة ..

وكانت قد كبرت على مضى هذه السنوات ، وعرفت من زميلاتها فى المدرسة كثيرا عن أسرار الحياة ، فتبين لها عظم الجرم الذى أتته .. وتجسم لها الخطب بمن تراهم فى الطريق كل يوم من الرجال النظاف الوسيمين المثقفين الراقين ، فأى واحد من هؤلاء الكرام يصلح زوجا لفتاة مثلها ، أما عرفات .. ؟!

وامتلأ قلبها بالنفور والحقد على الخادم الدميم البغيض .. أحست أنها بصلتها به ضيعت الماضى والحاضر والمستقبل،وأصبحت أقذر انسانة وأتفه مخلوقة وأحقر فتاة فى الوجود .. ولكم تمنت لو اختفى هذا الحيوان من حياتها ، وحدثت معجزة تمحو ذكراه من ذهنها .. بل وذهبت فى حقدها عليه أن فكرت فى قتله ، وذات مرة أعدت السكين لذلك الغرض ، ثم جبنت اذ تذكرت أنها بجريمتها تجعل المصيبة مصيبتين !

لم تكن تريده أو تقبله أو ترضى عما يفعله بها ، ولكنها كانت واقعة تحت سيطرته تماما .. يهددها فتذعن مغلوبة على أمرها ..

أما كيف لم تظهر لهذه العلاقة آثار مادية ملموسة ، بعد أن نضجت ودخلت فى طور الأنوثة ، فلغز ما زال تفسيره الى اليوم فى علم الله ..

وكان من عادة « عرفات » أن يكف عن جريمته فى وجود رب الأسرة . ولكنه تعود على الاستهتار بالتدريج .. فلما مضى وقت والأب ما زال باقيا بالقاهرة ، فرغ صبره ، فأمرها بزيارته فى فراشه بالليل ..

وذكرته بوجود والدها . ورجته واستعطفته ، فأصم أذنيه حتى لم تجد بدا من القبول .. ولما انطفأت أنوار البيت ، ولاذ كل بسريره ، تسللت من غرفتها حافية القدمين . ولفرط رعبها اصطدمت بمنضدة فى البهو ، فتسمرت فى مكانها خيفة أن يكون الصوت قد أيقظ أحدا .. ومضت ثوان وهى فى مكانها تصيخ السمع . فبقى الهدوء على حاله . عندئذ تنفست الصعداء ، ومرقت الى المطبخ ..

ومن سوء حظها أن أباها كان يعانى أرقا شديدا فى تلك الليلة ، وتناهى الصوت الى سمعه ، فظنه لصا .. وانتظر بعض الوقت متحفزا ، ثم قام فى الظلام خلسة يتفقد المكان .. فتش الغرف بمنتهى الهدوء ، وأخيرا قصد المطبخ وأضاء النور ، ففوجىء بابنته على الأرض فى فراش عرفات !

وحين سمعت وداد تصف هذا الموقف ، وجدتنى أضرب على رأسى بيدى دون وعى ، كما لو أن المصيبة تمثل أمامى لأول مرة ..

وانهمرت دموع الفتاة بغزارة ، وجعلت تقول من بين شهقاتها : « كنت صغيرة .. جاهلة .. لا أعرف » .

وظلت تكرر هذه الأقوال على سبيل الاعتذار ..

قلت وأنا أقاوم دموعى بجهد : « وماذا فعل أبوك بـ « عرفات » .. ؟ » .

قالت وما زالت تبكى : « طرده من البيت » .

قلت فى استنكار : « فقط » ؟

وهزت رأسها وهى تقول : « نعم » .

قلت : « لم يقتله .. لم يضربه .. لم يعاقبه ؟ » .

قالت : « خاف الفضيحة » .

قلت : « كيف ؟! » .

قالت : « خشى أن يؤذيه ، فينكشف السر ، ونفتضح بين الناس .. رأى أننى المخطئة الأولى ، وعلى وحدى أن أدفع الثمن » .

قلت : « وكم كلفك يا وداد ؟ » .

قالت : « ظل يضربنى .. ويضربنى .. ويضربنى الى أن سقطت مغشيا على ، ومن حولى أمى واخوتى يبكون ويولولون .. ولما عدت الى وعيى ، وجدتنى أرقد على حشية فى غرفة الكرار وأبى يحذرهم من اطعامى والا قتلهم معى فى وقت واحد .. وأغلق على الباب ، ولم يعد يفتح سوى مرتين فى اليوم .. صباحا ومساء ، لأذهب الى دورة المياه » .

قلت : « وكم بقيت محبوسة ؟ » .

قالت : « أربع سنوات .. » .

قلت في دهشة : « دون آكل ؟ .. طبعا غير معقول ! » .

قالت : « مضى يومان كاملان .. ولا من كسرة خبز تقدم لى .. ثم ندخل أخى صلاح .. فسرق لى بعض الطعام ، وأعطاه لى عند خروجى من دورة المياه فى المساء .. وبعدها انهارت أمى ، فأخذت توافينى به مرة فى اليـوم دون علم أبى .. ولولا ذلك ما عشت أسبوعا واحدا » ..

قلت : « عجيب أن يطاوعها قربها على عقابك بهذه الصورة » .

قالت : « نشأتها فى الريف علمتها طاعة الزوج طاعة عمياء .. لم تخالف لأبى أمرا فى يوم من الأيام ، ولا عصت له ارادة حتى فى غيبته .. كانت حزينة على ما أصابنى .. حزينة جدا ، وتبكى دون انقطاع ، ولكن ما باليد حيلة ! » .

قلت : « وأنت من جانبك ، سلمت بمصيرك ، ولم تقاومى » .

قالت : « قاومت على قدر استطاعتى .. بكيت واستعطفت وثرت وغضبت ، فلم يأت هذا كله بفائدة .. قضيت العام الأول وأنا أذرف دموع الندم على ما فعلت .. وانقضى العام الثانى وأنا أطلب المغفرة ، وأتمنى لو صفحوا عنى .. وفى العام الثالث أصبحت أعتقد أننى وفيت الدين أضعافا ، وكفرت عن ضعف جريمتى . وفى العام الرابع شعرت أنهم ظلمونى مثلما ظلمنى عرفات وأكثر ، فحقدت عليهم وكرهتهم ، وكثيرا ما كنت أضرع الى الله أن ينتقم لى

منهم . وتثور براكين الحقد فى صدرى أحيانا . وأحاول أن أسترد حقى فى الحياة بالقوة .. يتملكنى الجنون فجأة ، فأهجم على الباب أقرعه بقبضتى ، وأضربه برأسى ، وتكون النتيجة أن يؤدبنى أبى ويتركنى فى حالة من الشلل الجسمانى والذهنى .. وآخرها منذ أسابيع .. حطم عصاه على ظهرى ، ومن يومهـا وأنا منحنيـة كما ترين » .

وسكتت برهة ثم قالت فى حقد مرير : « تصورى أنه بعد ما فعل بى ذلك ، انفجر باكيا كأنه حزين على .. كذاب..منافق.. جبـان ! » .

قلت : « وما الذى دفعك الى الهرب فى الأسبوع الماضى ؟ » .

قالت : « سمعت حديثا يدور بين أبى وأمى فى الصالة على مقربة من بابى .. لم أتبين منه كلمـة ولكنى عرفت انها مؤامرة لقتلى .. » .

قلت : « ما دمت لم تسـمعى شيئا ، فمن أين أتيت بفكرة القتل ؟ » .

قالت : « فهمت ، وأنا عندى عقل .. كانا يدبران الجريمة فيما بينهما ، والا فلمـاذا ظل أبى يهمس طويلا ، وأمى تجيبه بحرارة وهى تبكى بعنف ؟ » .

قلت : « لقد توهم لك يا بنية .. لو أرادا قتلك ما انتظرا هذه المدة كلها » .

قالت فى عناد : « لا .. لا .. لا .. كانا يريدان قتلى حتما .. أنت لا تعرفينهما مثلى .. انهما مجرمان .. غيلان .. وحوش .. ذئاب .. يا رب يموتوا ويتحرقوا فى النار .. » .

وانساقت فى حملتها على والديهـا وتسبهما بما لديها من ألفاظ قاسية ..

قلت أشغلها عن حقدها عليهما : « فليكن .. معك حق ..

ولكن ماذا فعلت حين سمعت الهمس ؟ » .

قالت : « تملكنى رعب لا يوصف ... وظل جسدى يرتجف كأنى عارية فى عز الشتاء .. وفى الحال قررت أن أنقذ نفسى .. » .

قلت : « وكيف تغلبت على الباب المغلق ؟ » .

قالت : « انتظرت الى الصـباح التـالى .. ولما خرج أبى

لشئونه ، وانصرف اخوتى الى مدارسهم ، وانهمكت أمى فى شغل البيت ، قرعت الباب أستأذنها فى الذهاب الى دورة المياه .. ومن هنـــاك انحرفت نحو البـاب وخرجت الى الطريق أجرى بأقصى سرعتى .. » .

قلت وأنا أشير الى السيدة التى جاءت بها : « ولماذا اخترتها بالذات ؟ » .

قالت : « أنا لا أعرفها ، ولا كنت أعلم بوجودها فى منطقتنا .. ولكن التعب غلبنى حين بلغت آخر الشـارع ، فطرقت أول باب صادفني ، واحتميت به .. » .

ونظرت وداد نحوى وكل عظمة فى وجهها ترتجف ..

قالت والحقد يفيض من عينيها : « اياك أن تفكرى فى اعادتى اليهما ، او تخبريهما بمكانى ٠٠ سأقتل نفسى ، فالمـــوت أهون منهما ٠٠ أنا ابغضهما واتمنى ان يمـوتا ليسا والدى ، ولســت أعرفهما ٠٠ » ٠

وعبثا حاولت أن أهدىء من روعها ، وأفهمها انها مخطئة فى أوهامها ، لو كانا يريدان قتلها ما انتظرا أربع سنوات طوال ٠٠ وأنها اذا قبلت العودة اليهما ، ستكون تحت رقابتنا وفى حمايتنا ٠٠ ودهب كلامى كله دون فائـدة ، فقـد كانت فكرة القتل مسيطرة على ذهنها كله بحيث لم يعد ثمة مجال للاقناع ٠٠ بل ان محاولتى اقناعها أتت بغير النتيجة التى أرجوها ، اذ أصابتها نوبة من ذلك الذعر المميت الذى وصفته مرافقتها ساعة أن رأتها ببابها أول مرة واصفر وجهها بشكل مرعب ، وتصبب العرق من جبينها حتى بلله كله . وأخذتها رجفة من رأسها الى قدميها ، وقد فقدت السيطرة على أطرافها ، مما أكد لى أنها دخلت فى دور الاغماء ٠٠

وأسعفناها بالماء والتدليك ، وطمأناها الى أنها باقية معنا ٠٠

ولما أفاقت سألناها عما تريد ، فطلبت أن تسترد آدميتها وكرامتها ٠٠ أن نعيد اليها احترامها لنفسها ، وتمكنها من دخول مدرسة تتم فيها تعليمها ، حتى تتمكن من أن تشتغل بعمل يغنيها عن أهلها ٠٠

وكان مطلبا عسيرا ، بل يكاد يكون مستحيلا

فتسترى على هذه الفتاة الهاربة من أهلها يضعنى فى موقف حرج للغاية . وقد يعرضنى لمسئولية أنا فى غنى عنها ٠٠ مسئولية

ادبية واجتماعية وقانونية ٠٠ ففي وسع أهلها المتزمتين أن يفعلوا كثيرا على سبيل الانتقام مني ومنها ٠٠ وأقل ما يمكن أن يحدث هو اتهامي باختطافها وافسادها . وقد تلقى على تبعة جريمة الخادم عرفات ، فمن المحتمل أن يقال : انها خرجت من البيت شريفة عفيفة ، وأنا التى تركتها ترعى بلا رابط ولا ضابط حتى سقطت وأصابها ما أصابها ٠٠ وقد أستطيع أو لا أستطيع تنفيذ هذه المزاعم بالالتجاء الى الشهود وكشف الطب الشرعى ، ولكن النتيجة حتى فى أحسن حالاتها لابد أن تتسبب فى فضيحة كبيرة لا تشوه سمعتى أنا فقط ، وتفقدنى ثقة من يؤمنون بى ، انما تلوث الفتاة نهائيا . وتعلن خطيئتها على رءوس الأشهاد . ومعنى ذلك القضاء النهائى على أى أمل فى حياة جديدة نظيفة ٠٠

ثم ماذا يكون موقفى لو أن أسرة وداد لجأت الى البوليس ، ولا يستبعد مطلقا أنها اتخذت هذه الخطوة خلال الأسبوع الذى مضى على هربها ٠٠ ؟ وما هو التصرف السليم الذى لجأ اليه اذا نشرت صورتها فى الصحف مثلما يحدث فى حالات كثيرة ؟ ٠٠ لو تقدمت بما لدى من المعلومات ، أرمى الفتاة فى النار بيدى ، وإن سكت أحمل نفسى مسئولية مضاعفة ٠٠

وفوق هذا وذاك أين أضعها ؟ ٠٠

ما من بيت أعرفه ، حتى أكرمها وأكثرها استعدادا لمعاونتى فى أداء الخدمات الانسانية ، يرضى بمشاركتى فى مسئولية خطيرة كهذه . ولو من الناحية الخلقية البحتة ٠٠ ففتاة عاشرت خادمها لمدة سنوات ، عبء رهيب على أشد الناس سماحة وحبا لفعل الخير ٠٠٠ فما بالك اذا كانت الفتاة مجهولة لهم ولنا جميعا ٠٠ وكونها من أسرة طيبة لها تقاليدها ومكانتها ، يضاعف الاشكال ويزيد الموقف حرجا على حرج !

فهل أتخلى عنها ؟ .. هل أتركها لأهلها يمزقونها اربا ، أو أرمى بها الى الطريق حيث تكون نهايتها الاجتماعية محتومة ؟ ..

وأخذت الأفكار تتضارب فى رأسى بعنف لا يحتمل ، وأحسست كأن فى داخل جمجمتى مطارق تضرب بلا رحمة ..

ومضى الوقت وأنا أحملق فى فضاء مكتبى ساهمة واجمة لا أعرف أى طريق أسلكه حيال هذه الفتاة المسكينة ، وما يكتنف ظروفها من اشكالات غاية فى الخطورة ..

بالتدريج بدأت زوبعة تفكيرى تهدأ . فأخذت أستهين بشتى المخاطر ملبية نداء العاطفة .. عاطفة الأم التى تشعر كأن كل فتاة حزينة جزء لا يتجزأ منها .

وهتف بى قلبى أن أغيثها مهما كانت النتيجة ..

وخيل الى أننى اذا تخليت عنها خوفا من خطر يحيق بى أكون قد تصرفت بنذالة تطاردنى ذكراها مدى الحياة ..

وتمكن منى هذا الشعور فاذا بالمصاعب تهون فى نظرى ، وأجدنى على أتم الاستعداد للمقامرة بسمعتى وراحة بالى فى سبيل معونة الفتاة على استرداد آدميتها ..

وصفا ذهنى ، لتذكرت مؤسسة معينة تديرها صديقات كريمات ، ويؤدين فيها خدمات انسانية جليلة ..

واتصلت برئيستها ، وكاشفتها بالسر .. فأبدت منتهى الاستعداد لكل ما أريد ..

واتفقت معها على أن نضع وداد فى المؤسسة تحت اسم مستعار على ألا تعرف واحدة من زميلاتها بقصتها الحقيقيه ..

وبعثت بها لفورى الى المؤسسة ، ولكنى لم أنسها هناك .. فقد كنت أنشد انقاذها وأصمم على ذلك .. وبالفعل وضعت لها خطة منظمة تبلغنا غرضنا فى اعادتها الى حالة تمكنها من آن تعيش عمرها سعيدة ، أو أقرب ما يكون الى ذلك ..

وكانت مهمة شاقة ، ولكنى أقدمت عليها غير يائسة ..

بدأت أولا بعلاجها على أيدى أطباء أصدقاء أثق بهم ، فبرأ ظهرها واستعادت شبابها وجمالها .. ثم قومنا اعوجاجها ، وايقظنا فيها روح الثقة وخشية الله ، فاستعادت ايمانها بربها ، وقضت الليالى تصلى وتقرأ القرآن تكفيرا عن زلتها ..

وبعد أن بلغت غرضى من الناحيتين ، ألحقنها بمعهد بعدها فى فترة قصيرة لحياة مهنية مضمونة ..

ويـوم دخلت المعهد لأول مرة ارتاحت نفسى الى اننى قمت بالواجب فى كافة النواحى ، ما عدا ناحية واحدة لا يمكن آن تتم رسالتى بدونها .. أى حقدها البالغ على أهلها ، فقد كان حقدها الشديد على أهلها مرضـا لا يمكن أن تكتمل شخصيتها الجديدة الا اذا تخلصت منه ، فتوجهت باهتمامى الى الثورة التى يستعر لهيبها فى قلبها نحو أقرب الناس اليها ، وما زلت بها حتى محوت الحقد والبغضاء ، وبدأ قلبها يتحرك لم ..

وعندما رأيت عينيهـــا تغرورقان بالدموع ، وآنا أردد على مسامعها ذكر ماما .. وبابا .. وصلاح .. والأهل كلهم ، تأكد

لى أننى كسبت الجولة ، وأصبح من المحتمل آن أقنعها بالعودة اليهم ··

واخيرا أذنت لى بالاتصال بأسرتها ، وكان قد مضى على وجودها فى رعايتى عام كامل ·

وبعثت فى استدعاء الأب بعد أن درست حالته بوسائل لست فى حل من التصريح بها فى الوقت الحاضر ، لكنها أثبتت لى أنه – أى الأب – على أتم الاستعداد للتفاوض بشأن ابنته ··

وجاءنى الرجل منهارا تماما ، وبقى يبكى أمامى ساعتين كاملتين ··

فهربها المفاجىء ، واختفاؤها الغامض طول السنة ، أوهمه وأهل بيته انها وقعت بين أنيـاب القرادين · فانتهى أمرها الى الأبد ··

وقد فعـل ذلك فعله فى ايقاظ ضميره ، فظهرت له بشاعة الجرم الذى ارتكبه فى حق طفلة صغيرة ذهبت ضحية اهماله ··

وعذبه الندم ، وسود الحزن أيامه ولياليه ، وأصبح يعيش فى جحيم لا يهدأ سعيره لحظة ·

وكان وقع الأمر أشد على زوجته ، فسقطت من يومها مريضة ، وغلبها الشجن على ما أصاب ابنتها ، فانقطعت عن مبادلة زوجها الحديث على سبيل الاحتجاج الصامت ·· ولم تجبه بكلمة واحدة منذ هربت وداد الى اللحظة التى زارنى فيها ··

وثار الاخوة غاضبين ٠٠ ولأول مرة فى حياتهم رفعوا رؤوسهم ناقمين ، وصرخوا فى وجه أبيهم احتجاجا عـلى امعـانه فى ظلم وداد ٠٠

وذهب « صلاح » الى ابعد من ذلك ، فهجر البيت ، ولجأ الى ضيافة أحد أصدقائه ، وأقسم ألا يعود الا اذا عادت أخته ٠٠

وروى لى الأب هذه الوقائع ، وهو يبكى بأعلى صوته مثل طفل غاضب حانق ٠٠

قلت له : « ولكنك كنت تدبر مع زوجتك أمر مقتل الفتاة ، وسمعتكما وداد تتآمران عليها ٠٠ » ٠

قال : « وهل يعقل أن اقتلها بعد أربع سنوات ، لماذا لم افعل من البداية ؟ » ٠

قلت : « فيما اذن كنتما تتهامسان يوم هربها ؟ »

قال : « كانت أمها ترجونى أن أعفو عنها ٠ وأنا أعارض بلين تمهيدا للقبول ! » ٠

قلت : « ولكن لماذا قسوت عليها الى هذا الحد مع انها كانت طفلة صغيرة حين وقعت فى الخطأ مرغمة ؟ »

قال : « اردت أن أضرب بها مثلا لأختيها الكبيرتين ، حتى لا تظنا أن التفريط فى العرض أمر سهل ٠٠ خفت أن تضللهما رحمتى بـ « وداد » فكنت أقسو عليها وأنا أتألم ٠٠ أضربها وابكى فى آن واحد ٠٠ » ٠

.. وحدثته بما فعلناه من أجلها . فانفجرت في البكـــاء مـــرة أخرى وهو يتمتم بعبارات مقتضبة ..

قلت له : « لقد أخذناها منك حطاما لا يصلح لشيء ، وها نحن نعيدها اليك فتاة جديدة .. »

قال : « اللهم قدرنى على رد صنيعكم .. » .

ولم أشأ أن أوليه ثقتى دون تحفظ ، فاستدعيت صديقا من كبار رجال القانون ، وبعد أن أخذ عليه التعهدات الكافية ، سمحنا للأب بالانصراف مع ابنته الى بيته ..

واختفت الفتاة من حياتى ، ومضت الأيام ولا من خبر عنها سوى ما يأتينى من مدرستها دون علمها أو علم أهلها ..

كنت دائما خائفة من أن يحنثوا بوعودهم ويسيئوا اليها ..

ولكن ثبت أن مخاوفى لا تقوم على أساس ، فبعـد ثلاثة أشهر تقريبا ، تلقيت فى عيد الأم رسالة منها تحيينى فيها بأرق العبارات، ثم ترجونى أن البى دعوتها . فأحضر حفلة الشاى التى يقيمها لها أهلها احتفالا ببلوغها التاسعة عشرة ..

ولم ألب الدعوة عن قصد ، فقد رأيت من الأفضل أن أبتعد عن حياة هذه الأسرة ، حتى لا يذكرهم وجهى بالمأساة القديمة ..

ولكن الدعوة طمأنتنى الى أن « وداد » تعيش فى وئام ، وذلك غاية مناى .

(الثـــائرة)

لطيفة الزيـــات
(١٩٢٣ — ١٩٩٦)

لعل أهم ما يصادف قارىء د· لطيفة الزيات ·· هو الانبهار بقدرتها الفائقة على مكاشفة النفس والتعبير عن الذات . والغوص فى المشاعر لتخرج مكنونها الذى قد لا يستطيع الكثيرون أن يواجهوا انفسهم به أو حتى يتلمسوه فى داخلهم ؛ وهى حين تستخدم هذه القدرات فهى تستخدمها بشكل تلقائى ، لا تستغل فيه أنوثتها أو اسرارها كأمرأة ، لتتاجر بها مثل كاتبات أغرقن فى ذلك ليضفين على انفسهن صبغة التحرر . فلطيفة الزيات تمارس التحرر من خلال معتقداتها ووطنيتها كما يتراءى لها كمواطنة مصرية ومناضلة، وليس كمجرد أنثى ·

وقد يكون ذلك هو الذى ميز د. لطيفة ، رغم قلة انتاجها ، بل ورغم التباعد الكبير بين أعمالها ، فالانتاج الأدبى فى حياة لطيفة الزيات من الواضح أنه كان يحتاج الى هزات عنيفة تجعلها تقف مع نفسها تستلهم من الحدث افرازا أدبيا تضفى عليه من ذاتها وروحها . وذلك على الرغم من نصحها للقارىء الا يبحث عنها فى أعمالها ؛ فكل من يقرأ لطيفة الزيات يستقرىء أحداث حياتها بين

السطور ويستكشف علاقاتها الانسانية من خلال هذه الأعمال · وعلى الرغم من امتلاكها لغة ادبية رائعة وقدرة على التعبير عن الحدث فانها لم تستطع أن تتخلص من الاهتمام بالسياسة والتمرد فى داخلها ، وهو ما جعل قارئها يبحث عنها فى أعمالها عكس ما طلبت هى ··· فاذا ألقينا نظرة على حياة د· لطيفة الزيات يمكن أن ندرك بسهولة تعلقها وانغماسها فى العمل السياسى طوال حياتها .

ولطيفة الزيات من مواليد مدينة دمياط فى الثامن من أغسطس سنة ١٩٢٣ وانتقلت مع أسرتها الى مدن عديدة بحكم عمل والدها فى مجالس البلديات ، وعندما توفى وهى فى الثانية عشرة من عمرها ، أكملت تعليمها ، ثم التحقت بجامعة القاهرة كلية الآداب وحصلت على الليسانس سنة ١٩٤٦ ، ثم حصلت على درجة الدكتوراه سنة ١٩٥٧ وكان موضوعها « الترجمة الأدبية من الانجليزية الى العربية من ١٨٨٢ الى ١٩٢٥ » وكانت باللغة الانجليزية .

وقد تقلدت مناصب أكاديمية وغير اكاديمية ، فعملت مديرة لثاقفة الطفل ، وعضوا بمجلس اتحاد الكتاب ، وعضو مجلس السلام العالمى ، وعضوا بلجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة ، وأشرفت على الملحق الأدبى لمجلة الطليعة اليسارية الصادرة عن الأهرام . أما فى الجامعة فقد نالت درجة الأستاذية سنة ٧٢ . وشغلت رئيس قسم اللغة الانجليزية وأدابها بكلية بنات عين شمس ، ورئيس قسم النقد الأدبى والمسرحى بمعهد الفنون المسرحية ، ومدير أكاديمية الفنون · وكان أهم انجاز لها حين تولت العمل بها هو تمصيرها ، وعملت على تطبيق لائحة الجامعات المصرية على أعضاء هيئة التدريس فى معاهد الأكاديمية ·

أما الانتاج الأدبى للطيفة الزيات فقد بدأ فى عام ١٩٦٠ بروايتها الشهيرة « الباب المفتوح » ، ولكنها توقفت فجأة لمدة ٢٦ عاما ، حتى عام ١٩٨٦ لتصدر عملها الثانى « الشيخوخة » . وفى عام ١٩٩٢ أصدرت مذكراتها بعنوان « حملة تفتيش فى أوراق شخصية » . ويشهد عام ١٩٩٤ اصداران لها هما « بيع وشراء » و « صاحب البيت » ثم آخر أعمالها فى عام ٩٥ « الرجل الذى عرف تهمته » . هذا اضافة الى دراستين نقديتين الأولى بعنوان « نجيب محفوظ الصورة والمثال » و « من صور المرأة فى الروايات والقصص العربية » والكتابان صدرا سنة ١٩٨٩ . كما أنها ترجمت نظرية هيمنجواى الادبية . وترجمت أيضا د. هـ لورانس ومفهوم العنصرية .

والمتتبع لحياة لطيفة الزيات يكتشف من الوهلة الأولى أن عام ١٩٤٦ كان عام الميلاد بالنسبة لها . فهى قبل ذلك كانت كأى فتاة مصرية تتأذى من الاحتلال وصوره ، ولا تملك شيئا حيال ذلك وكان أخواها يعملان بالسياسة من أجل التحرر أما هى فكانت مجرد انثى لا تستطيع أن تشترك فى جهاد أو نشاط .

وحتى ندرك النقلة الكبيرة فى حياتها نرى أنها حين تتحدث عن سيرتها الأولى فى كتابها « حملة تفتيش فى أوراق شخصية » تقول : « فى مراهقتها عرفت الفتاة فورة الجنس ، وبحكم تربيتها وجديتها صادرتها ، وفى ظل شعور حاد بالذنب دفعت فى اعماقها الانثى حتى غابت عن وعيها ، أو كادت لا يتبدى منها الا هذا الخجل الذى تستشعره من هذا الجسد المتلىء ، الغنى بالاستدارات . وفى صعوبة كانت الفتاة تقطع الطريق من الجانب المخصص للقراءة الى الجانب المخصص لأرفف الكتب فى حجرة الاطلاع فى مكتبة جامعة فؤاد الأول

يخيل اليها وهى تعود بمرجع من المراجع ان كل عيون من فى القاعة مركزه عليها ، وتفضل الهروب من القاعة اذا ما اتضح لها انها لم تلتقط المرجع المطلوب ، وتطلب الأمر معـــاودة الرحـــلة فى ظل العيون المتربصة ، ويصعب على الانسان تصديق التطور الذى حدث لهذه الفتاة بعد سنتين من بداية دراستها الجامعيــة ، والحركة الوطنية تتصاعد فى مد ثورى فى الجامعــة ، وهى تتقدم تلقى الخطب الرنانة على سلالم ادارة الجامعـــة ، وعلى عتبة كلية الحقوق ، وعلى منبر قاعة الاحتفالات ، وعند نصب الشهيد عبد الحكم الجراحى ، وهى تعقد الاجتماعات وتقود المظاهرات وتتصدى للرفض الذى يشكله طلبة الاخوان المســلمين ، لم يعد جسدها يربكها ، لم تعد تشعر أن لها جسداً ، نسيت ، والناس تعيد صياغتها تمدها بقوة لم تكن لها أبداً ، بثقة لا حدود لها ترفعها على الأكف كالراية ، تنصبها مفكرة وزعيمة وتحيلها الى اسطورة ــ انها أنثى على الاطلاق ! » .

وهكذا نرى كيف حدث التحول فى حياة لطيفة الزيات بل الانقلاب من انثى تخجل من جسدها لتسمو فوق كل ذلك . وتصبح مواطنا مصريا كاملا يتصدى للدفاع عن قضايا بلده ، وفى عام ٤٦ ايضا تصبح سكرتير عام لجنة العمال والطلبة وتنغمس فى العمل الوطنى الذى يتزامن مع ارتباطها بالماركسية التى تقول عنها :«كنت أراها طريقا للتحرر والنمو المستقل ، وأعجبت بأخلاقياتها التى تساوى بين البشر جميعا بصرف النظر عن الطبقة واللون والدين» .

وتقول أيضا : « كان تعلقى بالماركسيــة انفعاليــا عاطفيــا كان تعلقا بطريق بدا لى واضحا للتحرر » .

هذه الكلمات مصارحة للذات ، ومكاشفـــة للنفس بعد أن يراجع الانسان نفسه ومواقفه ، ولكن أن يعلنها فهذا ما تمتاز به لطيفة الزيات !

ونراهـا فى موقف آخـر يمثل علامـة بارزة فى حياتها وتاريخها وهى حـادثة كوبرى عباس الشهيرة . حـين كانت مظاهـرات الطلبة فى فبراير سنة ٤٦ تتجه الى قصر عابدين . ويفتح الكوبرى ليسقط العشرات فى نهر النيل ، نجد أن لطيفة الزيات تصور هذه الواقعـة التى غيرت مجرى حياتها قائلة : . على شط النيل تجلس الفتاة التى وجدت الملاذ فى الكل ، تستر العرى .. عريهـا . عريهم . عرينا ، تجلس ليلا وصبحا وضحى حتى ينتهى الغواصون من مهمة انتشال الجثث . تلف بعلم مصر الأخضر جثة بعد جثة . تتسابق يداها وأيدى الآخرين ، الكثير من الأيدى . والجثث ترتفع بالأعلام عاليه على أيدى العاشقين . وشجرة العشق حية لا تموت. ولا النحن التى هى أنا والنحن .

وعلى الرغم من هذا التصوير الجميل للكاتبـة ، الا أنه يغلب عليه الخيال ! فهذا المشهد الذى صورته لنا لطيفة الزيات يخالف الحقيقة التاريخية التى ذكرها المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى حـول هـذه الواقعـة ! ففى كتابـه « فى أعقـاب الثـورة المصريـة » الجـزء الثالث الـذى يشتمـل عـلى الفترة من سنـة ١٩٣٦ الى سنـة ١٩٥١ ، وفى صـفحتى ١٨٠ ، ١٨١ يقول الرافعى : « فى يوم السبت ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ قـامت فى القاهرة مظاهرة من طلبة جامعـة فؤاد الأول ضمت بضعة الاف منهم ساروا من فناء الجامعة قاصدين قصر عابدين يهتفون بالجلاء ولا مفاوضة الا بعد الجلاء .

« وما ان وصلوا الى كوبرى عبـاس حتى رأوه مفتوحـا لمـرور المراكب ، فنزل بعضهم فى القوارب وأغلقوا الكوبرى ليكون صالحاً للمرور من فرقه ، وأخذ الطلبة يقتحمونه قاصدين البر الشرقى للنيل . واصطدموا بقوات البوليس التى أرادت أن تصدهم عن متابعة موكب المظاهرة وتردهم الى بر الجيزة . فاصر الطلبة على

السير فاعتدى عليهم رجال البوليس بالضرب بالعصى الغليظة بقسوة متناهية . وأسفر التصادم عن اصابة ٨٤ من الطلبة اصابات بليغة . ونقل الكثير منهم الى مستشفى قصر العينى فى حالة مؤثرة » .

ويضيف عبد الرحمن الرافعى حول نفس الواقعة قائلا :
« سميت هذه الحادثة حادثة كوبرى عباس ، وبالغ الرواة فى تصويرها . اذ جعلوا منها فيما بعد دعاية سياسية ضد وزارة النقراشى ، وزعموا أن بعض الطلبة قتلوا فيها وبعضهم غرق فى النيل من أعلى الكوبرى ، وقد تحققنا أنه لم يقتل أحد ولا غرق أحد فى هذه الواقعة بالذات ، ولو قتل أو غرق أحد لذكر اسمه ولو بعد حين ! » .

وفيما يبدو ان خيال الأديبة امتزج بثورة المناضلة لينسجا هذه القصة الرائعة عن جثث الغرقى التى كانت تلفها فى أعلام مصر ! ولم يكن ثمة غرقى ولا موتى ! ولكن الرواية التى نسجتها أعطت للطيفة الزيات صورة رومانسية للمناضلة التى تلتقط جثث الأبطال وتلفها بالأعلام ! وهو ما أثر على حياتها ، فقد دخلت السجن مرتين : الأولى فى عام ١٩٤٩ ، وكان حدثا هائلا فى حياتها حين أغلق البوليس بيتها بالشمع الأحمر ، وسجنت هى وزوجها — وكان لهذا البيت فى وجدانها مكانا بارزا حيث اعتبرته بيتها الوحيد الذى اختارته — وحكم على زوجها أحمد رشدى سالم — وكان شيوعيا — بالسجن سبع سنوات، أما حبسها الثانى فكان فى اعتقالات سبتمبر سنة ٨١ ، وأفرج عنها فى ١٣ يناير ٨٢ .

وكما دخلت لطيفة الزيات السجن مرتين ، فانها أيضاً تزوجت مرتين ، الأولى هى التى ذكرناها من قبل لزميل لها شيوعى وانتهت بسجنه ، والثانية عام ١٩٥٢ واستمرت حتى عام ١٩٦٥ ، وتزوجت فيها من د. رشاد رشدى .

ولم تتناول لطيفة الزيات زيجتها الأولى كثيرا . ولم تحتلها مساحة كبيرة من كتاباتها ، كاهتمامها بالمكان الذى تزوجت فيه على سبيل المثال ، لكن تأثرها بزيجتها الثانية كان كبيرا . وعلى الرغم مما اعتقده الكثيرون من انها بكثرة كتاباتها عن هذه الزيجة تعتذر لمبادئها فانى أرى أنها كانت فيما يبدو ممزقة بين أنوثتها التى فجرتها هذه الزيجة ، والصورة التى تحب أن تكون عليها كمناضلة يسارية تحافظ على مبادئها . ولم يكن ليتأتى هذا والهوة بين التوجهات الفكرية للزوجين هائلة ، فهى يسارية وهو يمينى ، ويبدو أنها كانثى وكتلميذة استطاعت أن تخمد التمزق فيها لسبع سنوات . هى فترة زواجها ، ثم استطاعت بعد ذلك أن تتوافق مع نفسها وتعود الى النضال تاركة الزوج الذى احتواها فهى تقول عنه بكل صراحة : « كان أول رجل يوقظ الأنثى فى » .

وحين سئلت لماذا تزوجته .. كان ردها .. « الجنس سبب سقوط الامبراطورية الرومانية » ! الى هذه الدرجة بلغت مواجهتها مع النفس والى هذا الحد كانت مصارحتها مع الذات وعلى الملأ . والى هذا المبلغ كانت معاناتها ! فكل سيدة شرقية تعرف تماما أنه من الصعب قول ذلك ، ولكنه كان منطقيا مع لطيفة الزيات التى تميزت بالتطرف فى المصارحة .

والواضح من كل ذلك أن هذا الزواج الثانى أحدث شرخا فى داخلها لم تصلحه السنين ، فكان هو الزواج الأخير ! فعلى الرغم من انها طلقت من الدكتور رشاد رشدى فى عام ١٩٦٥ ، وهى فى سن الثالثة والأربعين ، ولم يكن لديها أبناء أو ما يحول دون ارتباطها لسنوات عديدة عاشتها بعد ذلك . فانها امتنعت عن الزواج حتى آخر حياتها .

ومع ذلك ، فمن المحقق أن سنوات زواجها من الدكتور رشاد رشدى ، كانت سنوات خصبة ، ففيها حصلت على درجة

الدكتوراه من جامعة القاهرة ، وفيها كتبت روايتها الأولى : « الباب المفتوح » . وقد ظلت بعد ذلك ٢٦ عاما كاملة ، قبل أن تستأنف انتاجها الأدبى ، بعملها الثانى ، وهو « الشيخوخة » عام ١٩٨٦ ، وهو أمر غير مفهوم الا اذا كان فى اطار تأثير وأستاذية رشاد رشدى ! وبمعنى آخر أن سنوات زواجها من الدكتور رشاد رشدى كانت هى التى وضعتها على أول الطريق ، على الرغم من معاناتها النفسية الناشئة عن التناقض الفكرى ، ويتضح ذلك من تعبيرها عن لحظة طلاقها بهذه الكلمات فتقول :

« ها أنا أبرأ ، على وشك أن أبرأ ، وأنا أرتجف خوفا من أن ترتد كينونتى الوليدة الى الرحم . وتساءلت أكان هو مشروع عمرى الذى انقضى أم السعادة الفردية هى المشروع ، كانت السعادة الفردية هى مشروعى الذى حقيت لتحقيقه ، وجننت عندما لم يتحقق . أنا صانعة المطلقات ، وأسيرة سنوات وأنا أدور فى المدار الخطأ ، لا أملك القدرة على فعل أتجاوز به المدار الخطأ ، سنوات تسلمنى فيها الى الشلل الهوة الرهيبة بين ما أعتقد وما أعيش ، بين الرؤية والواقع المعاش ، بين الحلم والحقيقة ، سنوات وأنا أبرأ بالكاد . أخاف أن ترتد كينونتى الوليدة الى الرحم » .

هذه كانت معاناة لطيفة الزيات وتمزقها بين الخطأ والسعادة والصواب والتعاسة فى رأيها ، ولكن ما يهمنا هنا ابراز هذه القدرة الكبيرة على توظيف الكلمات واستخدام اللغة بسلاسة ، والقدرة على سبر غور النفس . كل ذلك كان يمكن أن يصنع كاتبة اكثر شعبية ، وأكثر شهرة لولا ان اهتمامها الأكبر كان بالجامعة والسياسة ، ثم جاء الاهتمام بالأدب فى درجة أقل .

ولو كان للعمل الأدبى مكانة أعلى فى حياتها لكانت قد نالت حظا أوفر ، وما كانت شهرتها انحسرت بين المثقفين ، فقد كانت

تملك كل ما يؤهلها لتكون أكثر تميزا . لهذا نجد أن أول عمل ادبى لها ، وهو رواية « الباب المفتوح » الذى صدر عام ١٩٦٠ يفصل بينه وبين العمل الثانى « الشيخوخة » ستة وعشرون عاما ! ، ــ كما ذكرنا ــ ثم تصدر أربعة أعمال فى الفترة من ١٩٩٢ حتى ١٩٩٥ !

اذا كل هذه الشهرة كانت لستة أعمال ادبية فقط ! فماذا لو كانوا ستة عشر مثلا ؟ أعلم أن الكثيرين سيقولون ان الشهرة ليست بالكم ، ولكن لا مانع أن يجتمع الكم والكيف معا ! فمن تملك هذه النوعية الرائعة من الأعمال الأدبية كان يمكن أن تصنع المجد لصاحبتها .

وفى سنوات عمرها الاخيرة اصابتها لعنة السرطان فى رئتيها وقبل ان ترحل عن الدنيا بشهور ثلاث حصلت على جائزة الدولة التقديرية فى الأداب عام ٩٦ . وفى ١١ سبتمبر ٩٦ رحلت عن الدنيا دون زوج أو ولد ، ولم يكن حولها غير تلميذاتها اللاتى عوضت بهن بهجة الأسرة التى حرمت منها لأكثر من ثلاثين عاما ، والأمومة التى افتقدتها .

وللقارىء نقدم جزء من أول عمل ادبى لها وهو « الباب المفتوح » ...

البـــاب المفتــوح

وفى السابعة عشرة أصبحت ليلى فتاة ممتلئة الجسم متوسطة القامة ، خمرية ، مستديرة الوجه ، دقيقة الملامح فى استواء ، عريضة الجبهة ، عيناها عسليتان عميقتان ضيقتان شديدتا اللمعان واذا ما ابتسمت ارتفعت وجنتاها الورديتان الى أعلى وضاقت عيناها حتى اصبحتا خطا رفيعا من نور يلتمع واذا ما اطمئنــت ضحكت بكل وجهها .. بشفتيها وبعينيها وبأنفها ، واذا ما أثار الحديث اهتمامها مالت براسها وانصتت والكلمات تتدفق من أذنيها الى قلبها واذا أثار الحديث حماسها او شفقتها التمعت عيناهــا بالدموع ..

كان وجهها يشع بالانطلاق والحيوية والاشراق على عكس جسمها .

كانت تمشى وكأنها مقيدة بسلاسل ثقيلة ، تجر جسمها خلفها وكتفاها منحنيتان وراسها ممدودة الى الأمام وكأنها تريد أن تصل بأقصى سرعة الى هدفها لتختفى عن الانظار ، وحين تجلس لا تكاد تستقر فى مكان بل تتحرك باستمرار ، ولا تكاد تعرف أين تضع

يديها وكأنهما جسمان غريبان عليها وفى حركاتها ثقل وخــوف وخاصة فى البيت . أما فى المدرسة فكانت اكثر انطلاقا ، كــانت المدرسة جزءا من عالمها الذى تحبه ، هذا الهدير من الاصوات المختلفة .. الجرس . الضحكات المجلجلة حينا والمكتومة حينــا آخر ، والخطوات التى تدب فى الممر مسرعة الى الفصل ، والعيون التى تبتسم ، والمرح فى الفصل ، والمؤامرات الهامسة التى تدبر ضد المدرس او المدرسة والولاء الذى يجمع بين الطالبات لا ينال منه تهديد ولا عقاب ، والتعليقات المكتوبة التى تمرر حين يستعصى الكلام وفسحة الظهر والشلة ، والنكات الهامسة التى تحمر منها الوجوه ثم تنفرج فى ضحكة طويلة ، والقصص الخافتة فى ركن ناء والمستمعة تفتح فمها كالبلهاء ، ووقع الملاعق على الاطبــاق فى المطعم ، وسندوتش الموز والتريقة على عباد الله ، والفصــل المتفول فى الفسحة والرقص البلدى ، والمناقشة فى السياســة والخلاف حول أم كلثوم وعبد الوهاب والصداقات التى تنبع فجأة ، والخصام والدموع والصلح . وهى تستحوذ على اهتمام الفصل بتفننها فى الشقاوة ، وتغضب المدرس وتعود فتسترضيه وتخطب فى المناسبات الوطنية وتبرز فى الجمعيات الادبية ويعترف لها مدرس اللغة العربية بالتفوق وتفوز ببطولة المدرسة فى البنج بنج وتشترك فى فريق الكشافة وكرة السلة وتتزعم شلة تفرقها حبا ..

وعندما ينتهى اليوم الدراسى تنتظر حتى تنصرف آخر تلميذة ثم تطلع الى فصلها والمدرسة ساكنة خالية ، وتعد كتبها وتنصرف الى البيت بخطوات متثاقلة .

* * *

وفى البيت تبدأ أمها تعنفها على شىء ، فلا بد أن يكون هناك شىء ما ، شىء كان ينبغى أن يعمل ولم يعمل ، أو كان ينبغى

الا يعمل وعمل . ثم يظهر ابوها بوجهه الهادىء الصامت الخالى من التعبير ويفرض صمته وهدوئه على كل من فى البيت . وتبدأ امها تمشى على اطراف أصابعها وتلتفت حولها بعينين قلقتين تتأكد أن كل شىء معد كما ينبغى أن يعد ، ثم يبدأ الغذاء .. وعلى المائدة يبدأ الأب يعنف أمها فى هدوء وفى صوت هامس ، والأم طبعا حريصة على ألا ترتكب ما يوجب التعنيف ، ولكن هنـــاك أخوتها ، وهى طبعا تتحمل المسئولية الكاملة عن تصرفات أخوتها، لقد قال اخوها الشىء الفلانى وما كان ينبغى أن يقوله ، وفعـــل كذا وما كان ينبغى أن يفعله وتبيض شفتا أمها ولكنها لا تجيب .

ولكن الغذاء يكون ألطف من ذلك بكثير عندما لا يتغيب محمود فى كلية الطب ، عندما يعود الى البيت فى الظهر ويشد الكـــرسى ويجلس على المائدة بوجهه المشرق الحلو ، وبعينيه الخضراويـــن القلقتين وبشفتيه الرقيقتين الباهتتين ويصطنـــع الجـــد ويبدأ فى الحديث ، النهارده ... ويحكى كل شىء ، ما حـــدث فى الكـــلية وما سمعه فى الترام ، وما قرأه وآخر نكتة يتداولها الناس ويحاكى ويعلق ويبالغ ويدلى بآراء غاية فى الغرابة .. آراء تميزه هو عن الآخرين .. وينقلب الجو على المائدة ، وكأنه جاء بنسمة من الهواء المنعش من الخارج ، وتنفرج ملامح الأم المتوجسة ويصبح وجهها جميلا كوجه طفل وتضحك ضحكاتها اللطيفة المنخفضة القصيرة . ولكن المنظر الذى يستحق المشاهدة حقا هو منظر أبيها ، يجلس وقد ثبت عينيه على محمود لا يرخيهما عنه وكأنه معجزة تتحرك على الأرض . وينصت الأب باهتمام ويسقط عن وجهه القنـــاع ويكتسب الوجه الجامد الخالى من التعبير تعبيـــرا من حنان ؛ وعندما يصل محمود الى نقطة من السرد تبرز تفوقه أو شجاعته أو ذكاءه أو خفة دمه تجمد عينا الأب وتكسوهما طبقا خفيفة من دموع ..

وعندما يبدأ محمود فى السخرية من الأوضاع الاجتماعيـة السائدة فى مجتمعه لا يترك شيئا تحيطه التقاليد بهالة من التقديس الا ويحاول هدمه ، وتلمع عينا ليلى وترتجف شفتا الأم ويتوجس الأب شرا ، ولكن محمود يخرج من المأزق بلباقة ، يخلط سخريته بالفكاهة فيكتم الأب ضحكاته ويختلط الأمر عليه فلا يعرف أن كان ابنه جادا أم هازلا .

وتتشعب موضوعات الحديث ولكنها تنتهى عادة بمناقشة فى السياسة وخاصة اذا كان عصام موجودا على الغذاء وغالبا ما يكون موجودا ، فهو دائما مع محمود فى كلية الطب وفى المذاكرة . واذ ذاك تميل ليلى بنصفها الأعلى على المائدة وتركز عينيها على محمود وتستمع اذناها الى كلمات عصام والى كلمات أبيها ولكنها لا ترخى عينيها عن محمود ، وينقبض وجهها بين الحين والحين وكأنها تعد فى عقلها ردا لاذعا وستدير فمها وكأنها تهم بالكلام ثم ينبسط وجهها عندما يجيب محمود وكأنه قال تماما ما ارادت ان تقول .. قالت مرة لجميلة :

ــ عارفه يا جميلة بابا بيقول ايه ؟ بيقول أنا ومحمود بنفكر بقلبنا مش بعقلنا .

ــ دا بيتريق عليكم يا عبيطة .

ــ ما أنا عارفه ، ولكن دى هى الحقيقة .

* * *

ويعتدل محمود ايذانا ببدء المناقشة ويركز عينيه على عصام وكأن عصام مسئول عن كل تصرفات الحكومة ويقول :

ـــ تقدر تقول لى الحكومة الوفدية بتاعتك عملت أيه ؟ تعدنا نقول الوفد . ما حدش حاينقذ البلد غير الوفد ، وبعدين الوفد عمل أيه ؟

ويقول عصام :

ـــ المسألة مسألة وقت والدنيا ما تخلقتش فى يوم .

ـــ ما تجننيش بقى يا عصام ، انت عارف ان المفاوضات مش حاتجيب نتيجة والبلد كلها عارفة كده ، مش النهارده بس .. من سنين .

ويمسح الأب فمه ويقول :

ـــ على العموم الوفد أحسن من غيره .

ويميل محمود الى الامام وتندفع الكلمات من فمه متتالية كانه يتشاجر :

ـــ الوفد أزفت من غيره ، لأن الشعب كان بيثق فى الوفد والوفد خان الثقة دى .

ويهرع الأب الى الحمام دون أن يجيب فلا بد له أن يتوضأ ليلحق صلاة العصر .

ويقول عصام فى هدوء :

ـــ المسألة مش مسألة حماسة ياسى محمود ، تقدر تقول لى الحكومة تعمل أيه ؟ تحارب الملك ! تحارب الانجليز !

ويستند محمود الى ظهر مقعده :

ـــ أيوه تحاربهم ، تحاربهم لو كانت شعبية زى ما بتقول .

ـــ تحاربهم بايه ؟

ـــ تحاربهم بينا .. بالشعب ، بالجيش ، الجيش بتعلى ـ الجيش فلاحين ، مصريين زيى وزيك !

ويخيل الى ليلى أن شعر رأسها قد وقف وتسرى الرجفة الى جسمها ، نفس الرجفة التى تصيبها حين تسمع فى الراديو حديثا عن مجد ماض لمصر أو تقرأ جانبا مشرقا من تاريخها او تسمع عن ظلم وقع بشعبها ، رجفة من يمتلك شيئا يفخر به ويخشى عليه .

ويقول عصام :

ـــ الشعب .. الشعب المصرى يحـارب الامبراطوريــة البريطانية ؟! يا أخى فكر فى الموضوع بتعقل .

وهنا يفقد محمود السيطرة على نفسه ولا يتحرج ، يستخدم أول لفظة تخطر بباله ، ويشتم سنسفيل جدود الامبراطوريــة البريطانية والملك والحكومة ويلعن التعقل والمتعقلين وينتهى باتهام عصام بالخيانة وبمهادنة الاستعمار ، ويكاد الموقف يتعقد وتقول الأم لمحمود :

ـــ يا أخى بلا خيبه حازق نفسك اوى كده على ايه . تقوشى وزير ولا أمير .

ويضحك محمود ويضحك عصام وينتهى الغذاء ، وتدخــل ليلى الى غرفتها وتقفل الباب ورائها وتتنهد بارتياح .

* * *

فهنا فى هذه الحجرة عالمها الذى تتصرف فيه كما يحلو لها ، عالمها الذى تقف فيه وحيدة بعيدة عن كل من فى البيت حتى عــن

محمود . وفى ذلك العالم عاشت تحلم وتفــرح وتتألم وتشتهى اشياء غامضة لا تدرى ما هى .. أشياء تتراقص أحيانا فى كــل ذرة من كيانها ، وتجعلها تشعر أن جسمها خفيف فتجرى الى النافذة وتفتحها ويخيل اليها أنها تستطيع فى نشوتها أن تطير مع هذه الطيور التى تحلق فى الفضاء ، وترسخ أحيانا هذه الأشيــاء على صدرها وتتراكم طبقات فوق طبقات ، طبقات من حزن غامض مضى ، ومن حزن غامض آت ، طبقات فوق طبقات حتى تكــاد تخنقها ، فتجرى الى الدولاب وتدفن فمها فى الملابس وتصرخ بكل ما فيها من قوة ، بكل كيانها ، وتخرج من الدولاب ترتجف وترتمى على السرير تبكى .. ولم تكن تريد الا أن تترك وحيدة فى حجرتها بعيدة عن الآخرين ولذلك هادنت كل من حولها حتى لا يطغى صوت خارجى على عالمها الخفى ، لو تمردت أو ثارت لظلت أمها تعنفها بالساعات ولانتزعها ابوها من سريرها ليلقى عليهــا درســا فى الأخلاق ، لا ، هى لا تريد أن تنشغل بحدث خارجى تافه عن عالمها الرائــع .

ولم تكن الذاكرة تشغل جانبا كبيرا من وقتها ، كانت تنتقل من فرقة الى فرقة فى سهولة وأهلها لا ينتظرون منها خيرا من ذلك ، وكان وقتها فى البيت موزعا بين القراءة الخارجية وبين أحلام اليقظة ، ولكن أمها كانت تنتزعها بين الحين والحين الى الواقع الذى بدا لها جافا ومملا للغاية ، بلا شعر .

كان عليها مثلا أن تقابل ضيفات أمها ، وأن تسامرهن . وكانت الآن قد تدربت بما فيه الكفاية . كانت قد تعلمت تبتســم فى أدب وكيف ومتى تضحك ومتى تجلس ومتى تنسحب ، وكيف تنصت باهتمام مهما كان الحديث تافها ومتى تهز رأسها بالموافقة ومتى تبدى اعجابها أو عجبها ..

ولكنها كانت تكره كل هذا ، تكرهه من أعماق قلبها ، وتعتبره تقييدا لحريتها وقتلا لانسانيتها ولذلك كانت تخطىء أحيانا ، كما حدث ليلة زيارة سامية هانم .

* * *

دخلت الأم على ليلى فى حجرتها :

ــ ياللا قومى ــ البسى هدومك عشان تدخلى لسامية هانم .

وسامية هانم قريبة من قريبات أمها من الفرع الاغنى من الأسرة .

واطرقت ليلى :

ــ أنا مش عايزه أدخل لحد .

ــ ليه ؟

ــ كـده .

ــ كـده ليه ؟

ورفعت ليلى وجهها وقالت :

ــ مش عايزه أشوفها ، مابحبهاش ، مابحبهاش من يوم فصل الشربات .

واغمضت عيناها .. رأت سامية هانم فى صالونها تقفز واقفة من الفوتيل اللاكية المشغول بالاوبيسون وكان كارثة قد وقعت ، ويد أمها ممدودة معلقة فى الهواء والسفرجى قد ادرك انه خالف الأصول فتراجع بعد أن اقترب من أمها بصينية الشربات ، وبدأ بزينب هانم ، الضيفة المهمة . وهزت ليلى راسها وهى ما زالت مغمضة العينين .. المصيبة ، المصيبة ان أمها لم تغضب . قالت يومهـا :

ـــ كل واحد له مكانه فى الدنيا دى ، لو عرفه ما يتعبش .
ومسحت ليلى دموعها وقالت فى سخرية :

ـــ وزينب هانم دى احسن منك فى أيه ؟ عشان غنيه يعنى !
وقالت الأم يومها فى بساطة :

ـــ أيوه عشان غنية .

وفتحت ليلى عينيها لتجد أمها ما زالت واقفة أمامها ، ودون أن تتكلم قامت لترتدى ملابسها .

وجلست صامتة تستمع الى حديث الضيفة مع امها ، وتطرق الحديث الى مغنى مشهور يجاور سامية هانم فى السكن ، ومدى ما يملكه من ثروة وعمارات ثم الى صوته . ولما كان من المفروغ منه أن الأم لا تفهم فى الاغانى العاطفية فقد وجهت سامية هـــانم المتصابية الكلام الى ليلى .

ـــ انا اموت فى صوته ، صوته جنان ، مش كده ياليلى ؟
وقالت ليلى :

ـــ بس بيغنى زى ما يكون بيعيط ، زى ما يكون واحـــده ست .

وبعد فترة قصيرة قامت سامية هانم التى اعتادت أن يؤمن الجميع على اقوالها متعضة . والقت بالفرو على كتفيها وقالت :
ـــ بنتك ملحلحة اوى يا سنيه هانم .

وهى تشد على حرف اللام والحاء وتمد كلمة أوى .

وقفلت الأم باب الشقة وراء الضيفة وواجهت ليلى بوجـــه جـــاد .

ـــ انت ازاى تقولى الكلام الفارغ ده لسامية هانم ؟

ـــ اهى الكلمة اللى جت على لسانى قلتها والسلام .

ـــ الكلمة اللى جت على لسانك ! لو كان كل واحد يقول الكلمة اللى تيجى على لسانه كانت الدنيا خربت .

ـــ ولا يقول ده يحسه .

ـــ اللى يحسه ده لنفسه هو مش للناس .

ـــ يعنى يكذب .

ـــ دا مش كذب دى مجاملة . الواحد ضرورى يلاطف الناس ويجاملهم .

ـــ حتى ولو ما كانش بيحبهم ؟

ـــ حتى ولو ما كانش بيحبهم ؟

وطفرت الدموع فى عينى ليلى وقالت فى صوت مختنق :

ـــ يعنى يكذب ؟ يعنى يكذب ؟

ولأن وجه الأم ووضعت يدها على كتف ليلى :

ـــ انت صعبانه على يا بنتى ، انت جاهلة ، الدنيا عايزة كده وان ما كانش الواحد يعمل كده هو اللى يتعب .

واغمضت ليلى جفنيها ونحت يد أمها برفق عن كتفها ودخلت الى حجرتها واقفلت وراءها الباب .

* * *

وسارت الى النافذة واستندت الى حافتها وودت لو استطاعت أن تخرج من البيت .

وتجمع الغضب فى جسمها واحتبس فى حلقها وجف له فمها ولسانها ، غضب بدأ غامضا ثم لم يلبث أن تركز على امها ،

غضب مثل ذلك الذى كانت تشعر به وهى طفلة حين كانت امها تلقيها على ظهرها وتثبت جسمها فى الأرض وتفتح فمها بالقــوة وتلقى فيه بشربة زيت الخروع .. ولكنها هذه المرة لم تفتح فمها لقد فتحت عينيها بالقوة .

نعم .. فتحت أمها عينيها .. فتحت عينيها ! على ماذا ؟

على الدنيا .. على الحياة .. « انت جاهلة بالدنيا » أمها قالت . وكان من الممكن أن تقول « انت ضرورى تتعلمى الكــذب والنفاق يا بنتى » وطبعا لم تقل هذا ، ولكنها قالت ما يساويه . ولم ؟

الأمر سهل وبسيط وواضح ولم يحرك حتى شعرة من شعر أمها « عشان الدنيا عايزه كده .. عشان الحياة عايزة كده » .

واى حياة هذه ؟ انها حياة لا تستحق أن يحياها الانسان ، هذه الحياة التافهة التى يسيطر عليها رجال تافهون ونساء تافهات مثل سامية هانم واختها دولت هانم ..

هذه المراة هى الاخرى .. دولت هانم .. وشعرت ليــلى ببرودة تتسلل الى جسمها واقفلت النافذة واسندت راسها الى زجاجها وقررت الا تفكر فى موضوع دولت هانم . ولكى لا تفكــر بدأت تحــلم .

أين تقابله ؟ فى حفلة رقص وستكون فى ثوب أبيض كثــوب « أودرى هيبورن » فى فيلم « سابرينا » وعندما يراها .. كــلام فارغ انها لا ترقص وحتى لو كانت تعرف الرقص فمن الأكيد أنها ستعيش وتموت دون أن تذهب الى حفلة رقص . دعنا اذا نغير

الموقف . فى الجامعة ؟ ابدا . لقد اعترض ابوها على دخولها ثانوى ولولا محمود لما اكملت دراستها . فما بالك بالجامعة ؟ فى زيارة ؟ « مش أوى مش رومانتيك » ولكن ليس هناك فرصة اخرى . اذا فى زيارة .. ولكن اين تكون أمها اذ ذاك ؟ ستكون فى حجرة الاستقبال مع صاحبة البيت وتخرج هى الى الحديقة .. ولكنها لا تعرف احدا يملك حديقة سوى سامية هانم واخواتها .. لا لا .. لا يمكن أن تتصور الموقف مع صدقى ابن سامية هانم ، ولم لا ؟ انه انيق أسمر طويل ويشبه « جريجورى بك » ، ولكنها قطعا لا تحب صوته ولا نظراته ، فى صوته نبرة متعالية متكلفة ونظراته تقول « انظرى الى اننى متواضع .. اننى لطيف .. اننى ديمقراطى » .. وعندما أوصلها وامها بعربته الى البيت بعد زيارتهما الأخيرة لسامية هانم ، جلست الى جانبه مشدودة وعينيها موجهة الى الامام لا تجسر على توجيهها اليه . وعندما شكرته امها وابتسم نصف ابتسامة وقال بصوته المتعالى وعينيه عليها هى :

— تعبكم راحة يا طنط .

ودت لو استطاعت أن تصفعه . لا ، ان الرجل الذى تتصوره ، الذى سيحبها وتحبه لن يكون كصدقى ولن يكون كأبيها ايضا ولا كأى رجل قابلته الى الآن ، سيكون .. انها لا تعرف كيف سيكون ولكنها على يقين من أنه سيكون مختلفا عن الآخرين مختلفا قطعا . وشكله ؟ أسمر طويل جذاب قوى التقاطيع بعين ن سود كبيرة مثل .. مثل صدقى مثلا ولكن من ناحية الشكل ، من ناحية الشكل فقط .

صدقى .. صدقى ، لنفرض أن صدقى احبها .. سيخرجان الى الحديقة وضوء القمر يلتمع من خلال الاشجار فى بقع ذهبية

على ممر الحديقة المرصوف ورائحة النرجس تفعم المكان . ويقول بصوت متهدج تختفى منه نغمته المتعالية — ليلى — ويحدق فى عينيها ويضطرب صوته — ليلى ، انا عايز أقولك حاجة ومش عارف أبتدى ازاى ..

وتضحك هى وتجرى امامه وحين يكاد يلحق بها تدير رأسها وتنظر اليه من طرف عينها :

— عايز تقول ايه يا صدقى بيه ؟

ويقول هو بصوت متوسل :

— أرجوك يا ليلى بلاش بيه دى .

وتهز هى كتفها وتميل على حوض القرنفل وتقطف قرنفلة حمراء وتقربها من أنفها ثم تبدأ تنثر أوراقها ورقة ورقة فى الهواء .

ويهمس هو :

— أرجوك خليك جد شويه ، أنا باحبك ، باحبك يا ليلى .

ويحيطها بذراعيه ويحاول أن يقبلها . وهنا تدفعه بعيدا وتصفعه صفعة قوية يرن صداها فى انحاء الحديقة . ويضع هو يده على خده ويتمتم :

— أنا آسف ، آسف يا ليلى ، مقدرتش أتحكم فى نفسى .

وتضحك هى فى سخرية .

— انت فاكر يعنى عشان ما أنا فقيرة أبقى لقمة سهلة ، فاكر الفقرا ما عندهمش شرف ياسى صدقى ..

لا .. لا يمكن أن تقول هذا ، أولا هذا الكلام لا يحدث فى الحياة وانما هو على طريقة يوسف وهبى فى الروايات ، وثانيا

هذه الفصاحة قد تراتيها فى حجرتها ولكنها لا تواتيها فى معاملتها مع الناس فهى جبانة مع الناس · اذا فلنحذف هذا الجزء ولنقف عند الصفعة والاعتذار ·

ـ أنا آسف يا ليلى . آسف ماقدرتش اتحكم فى نفسى ·

ويمسك بيدها فى يديه مستغفرا ولكن يده تمتد الى ذراعيا غتمر عليه وتنتقل منه الى كتفها ومن كتفها الى صدرها فخصرها ·· تعاينها ، تماما كما فعلت يد دولت هانم .. دولت هانم من جديد !

★ ★ ★

وابتعدت ليلى عن النافذة ومشت فى الحجـرة وقد غطت وجهها بيديها ·· تعاينها من أعلى الى أسفل كما لو كانت جاموسة معروضة للبيع ! ·· هذه المرأة لم تتغير ، حدث لها ما يفتت الحجر ولم تتغير ، هى هى ، بقامتها المديدة وبشخصيتها القوية وبقدرتها العجيبة على امتلاك كل من حولها من الناس وعلى تكيف حياتهم . هى هى ، لم يتغير فيها شىء سوى ملابسها طبعا فهى سوداء الآن .

عندما كانت طفلة كانت دولت هانم تسحبها حيث يقع الضوء كلما رأتها ، وتدرس ملامحها لحظة ، ثم تضربها على فخـذها وتقول :

ـ لا لسه برضه حلوه يا مضروبة .

وتلتفت الى من حولها وتقول :

ـ أصل ليلى عندها حاجة جذابة فى وشها ، وكل ما اشوفها ضرورى أطمئن على أن الحاجة دى لسة موجودة ·

ولم تكن تغضب اذ ذاك بل لم تغضب حين قالت لها دولت هانم زمان ٠٠

ــ لأ يا ليلى ، شعرك فظيع يا حبيبتى ، طفلة فى سنك يبقى شعرها طويل كده ؟

ووقفت الدموع فى عينيها حين رأت خصلات شعرها الأسود الناعم على الأرض ولكن دموعها اختلطت بضحكاتها حين قالت لها دولت هانم بعد أن انتهت من قص شعرها ٠

ــ أيوه كده وشك بان ــ بقيتى جميلة خالص يا مضروبة ٠

لا لم تغضب اذ ذاك كانت تحبها ــ وعندما دخلت حجرة الاستقبال فى بيتهم ، ووجدتها جالسة ارتمت فى صدرها ، ولم تكن قد رأتها منذ أن حدث ما حدث ٠

وبدأت ليلى تهز ساقيها وهى جالسة على السرير ٠٠ ليتها ما دخلت ولكنها ارادت أن تدخل ، لم ترغمها أمها بل اندفعت هى فى حماس ! واخذت ليلى تستعيد الصورة جزءا جزءا وكأنها تجد لذة فى تعذيب نفسها ، ورغم أن أسبوعا قد مر على الحادث فقد كان حيا فى خيالها بكل تفصيلاته ٠

قالت دولت هانم :

ــ دهده ٠٠ دا أنت بقيتى عروسة فى غاية الرقة يا ليلى ٠

وفرحت هى وسألتها عن ابنتها :

ــ وازى سناء و ٠٠

وكادت أن تنطق باسم صفاء الى جانب سناء بحكم العادة ولكنها تداركت الأمر ٠

ـ والله سناء فى اسكندرية مع جوزها · النهارده الصبح كانت بتكلمنى فى التليفون وبتقول ..

والتفتت الى أمها وقالت :

ـ من حق ياسنيه ، عملتوا ايه فى العريس اللى أنا جايباه لبنت أختك جميلة ، الراجل كلمنى امبارح فى التليفون ··

واطرقت أمها :

ـ نعمل أيه ؟ يظهر مافيش قسمه يا دولت هانم .

يعنى أيه ما فيش قسمه الراجل وراغب ، يبقى الرفض منكم انتم .

وقالت أمها وكأنها تعتذر ·

ـ والله ما أنا عارفة أقول ايه يا دلوت هانم .. سميرة اختى تعبت مع البنت ما فيش فايده · وقلنا لها ميت مرة يا بنتى الراجل ما يعيبوش الا جيبه ··

ـ بلا كلام فارغ ، بكرة ياخذ ستها ·

واشاحت دولت هانم بوجهها بعيدا ووقع نظرها عليها :

ـ اسمعى يا سنية · ما تخديه لليلى ·

وظهرت دهشة على وجه أمها ثم ابتسمت ابتسامة اعتذار :

ـ البنت صغيرة على الجواز يا دولت هانم دى عندها سبعتاشر سنة ··

ـ صغيرة : ماحدش صغير ، قومى ياليلى ·

ومسحت ليلى وجهها بيديها فى حركة دائرية · وقالت فى صوت مسموع : كفاية كفاية .. ولكن المنظر انطبع أمام عينيها ، والصوت تردد فى أذنيها ·

هى واقفة وسط الحجرة ودولت هانم أمامها ، تفحصها من بعيدة بعين نفاذة . دولت هانم تسحبها حتى تصبح قريبة منهـا ، وتمر على جسمها بيدها اليمنى فى بطء من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى . وتتوقف يدها وهى صاعدة عند خصرها ثم عند صدرها .

وغطت ليلى عينيها وهى مازالت جالسة على السرير وهمست : « يارب .. يارب » .

ولكن صوت دولت هانم تردد فى أذنيها :

ـــ البنت لازمها فستان كويس يبرز كسمها ، ولازمها كورسيه يرفع صدرها ويشد وسطها .. البنت مبهدلة قوى .

ثم قالت لأمها : حرام عليك .. البنت النهاردة مالهاش سعر قالت بالكلمة : حرام عليك البنت النهارده على وش جواز والبنت ان ما كنتش تلبس ما يبقلهاش سعر فى الشوق .

وقفزت ليلى من السرير واقفة .. جارية ! جارية فى سـوق الرقيق .. تلبس وتتزين ليرتفع سعرها .. ولكن لماذا تغضب ؟ لماذا تثور ؟ اليست هذه هى الحقيقة ؟ لا يمكن .. نعم هى الحقيقة. هذه هى الحياة ، هذا هو وضع البنت فى المجتمع الذى تعيش فيه ويجب أن تتقبل هى هذا الوضع أو تموت .. تموت ؟!

وتربعت ليلى على الكرسى الأسيوطى ..

عندما تولد البنت يبتسمون ابتسامة تسليم ، وعندما تكبر يسجنونها ويدربونها على فن .. فن الحياة : تبتسم وتتجنى وتتعطر وتترقق .. وتكذب وتلبس كورسيه يشد خصرها ويرفع صدرها لكى يرتفع سعرها فى السوق وتتزوج .. تتزوج من ؟ أى انسان « والراجل ما يعيبوش الا جيبه » وتلبس الطرحة البيضاء ، وتنتقل

الى منزل الزوج « والدنيا عايزه كده » وكل شىء سهل وبسيط ومفهوم ولكن ·· ولكن يجب أن تكون حريصة ، حريصة جدا ، يجب ألا تحس وألا تشعر وألا تفكر وألا تحب ، يجب والا ·· والا قتلوها كما قتلوا صفاء ·

وانكمشت ليلى فى جلستها ··

عند قالت ذلك فى هذه الغرفة نظرت اليها أمها نظرة غريبة وكأنها تراها لأول مرة وفتحت فمها فى دهشة وخرجت تهرول من الحجرة · ولكنها مسرورة مما حدث بعد خروج دولت هانم ، من كل كلمة قالتها ، ومن كل حركة ··

★ ★ ★

كانت هذه من المرات القليلة التى جرؤت فيها على أن تقول ما ينبغى أن يقال ·· كانت اذ ذاك مستلقية على السرير لا تبكى ولا تفكر ، ودخلت أمها عليها وقالت كلاما دوى فى اذنها ولم تفهمه ثم هزت كتفها هزة عنيفة :

ـ جرى ايه ، انت نمت ولا ايه ؟

ورفعت وجهها الى أمها ·

ـ جرى لك ايه ·· مال وشك مصفر كده ؟

وألقت ليلى بوجهها على الوسادة من جديد ·

وقالت أمها بصوت رقيق :

ـ ما تخديش بالك من الكلام اللى قالته دولت ـ لسنه بدرى على حكاية الجواز دى ·

وغشت عيناها طبقة من الدموع ، وقالت فى هدوء دون ان ترفع وجهها ٠

ـ هى عايره منى ايه ؟!

ـ مين ؟

ـ الست دى ٠٠

ـ حاتعوز منك ايه ؟

واعتدلت بسرعة وجلست على السرير وواجهت أمها :

ـ عايزة تقتلنى زى ماقتلت بنتها ؟

ـ اخرسى قطع لسانك ٠

وقالت هى بصوت هادىء وكأنها تقرر حقيقة ثابتة :

ـ هى مش قتلت بنتها ؟

ـ صحيح انك ماعندكيش احساس ، واحدة منكوبة زى دى ، تقولى عليها الكلام ده ٠

ولم تتأثر هى بهذا الكلام ٠

ـ هى مش انتحرت ؟

ـ وانتى تعرفى منين ؟

ـ أنا عارفه ، وعارفه انتحرت ليه كمان ٠ تحبى أقول لك ؟

ـ هى اللى كانت حطت لها السم فى بقها ؟

واستلقت هى على سريرها ببطء وهى تبتسم ابتسامة كئيبة وتقول :

ـ هى اللى سممت حياتها ، وقفلت عليها أبواب الرحمة ٠٠ مالقتش قدامها الا السم ٠

وفتحت أمها فمها اذ ذاك فى دهشة ونظرت اليها نظرة غريبة وكأنها تراها لأول مرة وخرجت من الغرفة مهرولة ٠

ومدت ليلى ساقيها وأسندت ظهرها الى المسند الخلفى للكرسى ٠٠ ثم خاصمتها أمها ثلاثة أيام ٠٠ ثلاثة أيام كاملة وهى غاضبة ٠ وهى تعرف لم غضبت أمها ٠ غضبت أولا لأنها عرفت أن صفاء قد انتحرت ، فقد أخبرتها فى حينه أنها ماتت ، وغضبت أيضا لأنها قالت « تحبى أقول لك انتحرت ليه كمان ؟ » ٠ ٠ ٠

كانت أمها حريصة على ألا تعرف شيئا عن هذا الموضوع أو عن مثله من الموضوعات ، ولكنها تسمع كلمة من هنا وكلمة من هناك وتجمع الخيوط وتستعمل عقلها ٠٠ موضوع صفاء مثلا ، سمعت أولا أن صفاء انتحرت ، ابتلعت أنبوبة الحبوب المنومة التى كانت تعينها على النوم فى ظل زوج يعيبه كل شئ الا جيبه ٠ ولكنها لم تعرف اذ ذاك أنها انتحرت فى نفس الليلة ، نفس الليلة التى لجأت فيها الى أمها ٠ وعملت الأم بالأصول ورفضت أن تؤويها ، أوصدت فى وجهها الباب فرجعت صفاء الى منزل الزوج وانتحرت ٠٠ وبعد مدة أيضا عرفت قصة الحب وثورة الأم وطلب الطلاق ورفض الزوج ، بعد مدة ، مدة أحالت الفتاة الحلوة الى تراب ٠٠

ودولت هانم أم هذه الفتاة الحلوة هى هى لم تتغير ، حدث لها ما يفتت الحجر ولم تتغير ، حزنت على موت بنتها كما تحزن كل أم ، ولكن هل شكلت لحظة واحدة فى صحة تصرفها ؟ أبدا ٠٠ ولا الآخرون شكوا فى صحة هذا التصرف ٠ انها تمضى برأس مرفوعة وبخطوات ثابتة وتفرض احترامها على الآخرين ٠٠ يارب أى قوة هذه ؟! وأى مناعة ؟! وأى ثقة بالنفس ؟ ومن أين يستمدها الناس ، من أين ؟ ولم لا يرى الناس فى تصرف هذه المرأة ما تراه

هي ، ولماذا زاد احترامهم لها بعد أن ماتت ابنتها وما السر ؟ ما السر في هذا الاحترام ؟

ودقت ليلى يدا على يد دون أن يسمع لدقة يدها صوت وقامت واقفة وبدأت تذرع الحجرة ..

هل يمكن أن تكون مخطئة ؟ هل أخطأت في حكمها على هذه المرأة ؟ هل أخطأت هذه المرة أيضا ؟ .. اللى يعـــرف الأصـــول مايغلطش .. أمها قالت . مايغلطش وما ..

وتوقفت ليلى في وسط الحجرة فجأة ، واتسعت عيناها ، وقالت بصوت هامس :

ـ مايغلطش .. ومايضعفش .. ومايفقدش الثقة في نفسه .
وضمت شفتيها ، ولمعت عيناها كأنها وصلت بعد مجهود الى حقيقة طال بحثها عنها ..
والمسألة التي تطلبت منها كل هذا التفكير مسألة بسيطة ...

مسألة عرفتها أمها دون تفكير .. اللى يعرف الأصول مايغلطش .. تماما كما .. كما في لعبة الكونكان ، يعرف الواحد قواعد اللعبة ، ويلتزمها ويلعب باطمئنان وهو واثق طول الوقت أنه على حق ، أنه على صواب ، لا يخطىء أبدا ، ليس المهم أن يكسب أو يخسر ولكن المهم أن يلعب تبعا للأصول .

ودولت هانم قتلت ابنتها وهي تلعب ، ولكنها على حق ، على صواب فقد التزمت أصول اللعبة .. والناس يحترمونها لأنها فعلت ذلك .

وانهارت ليلى على حافة السرير .. وضمائرهم ، ضمائرهم .. أليست لهم ضـــمائر ؟ لا ... المهم المظهر .. المهم ما يراه النـــاس .

ـ ماما ..

قالت هى يوما لأمها :

ـ ماما ، مش كان كفاية فستانين بدل تلاتة وتشترى لى قميصين تحتانيين ، هدومى التحتانية كلها تقطعت .

وقالت أمها :

ـ الناس مابتشوفش هدومك التحتانية ، المهم انك تظهرى بمظهر كويس .

ومحمود قال ..

واندفع باب حجرة ليلى ودخل محمود وهو يرتدى ملابسه الخارجية ووقف فى وسط الحجرة وقال :

ـ انت قاعدة هنا والبلد بتغلى .

وابتسمت ليلى التى تعرف ميل أخيها الى المبالغة وهزت ساقيها وهى تقول :

ـ بتغلى ليه ؟

ـ الحكومة لغت المعاهدة ، معاهدة ٣٦ .

وقفزت هى من على طرف السرير واقفة وقد احمر وجهها :

ـ مش معقول !

ـ افتحى الراديو واسمعى .

وجرت هى خارجة من الغرفة الى الصالة لتفتح الراديو ، وتوقفت وهى تمر بمحمود ، أرادت أن تحتضنه وتقبله ، ثم مالت عنه فى خجل وهى تبتسم فى ارتباك .

ولم تحلم ليلى هذه الليلة · كان كل جزء من جسمها ينبض بالحياة وقضت ليلتها ساهرة وهى مستلقية على ظهرها وكأنها تنتظر شيئا ·

- ٣ -

وفى الصباح وصلت ليلى المدرسة متأخرة والجرس يدق ، ودخلت وقد جمد وجهها وكأنها تنتظر شيئا ، وتلفتت حولها ثم لان وجهها واندفعت تجرى ·· كان الجرس يدق والطابور لا ينتظم · والطالبات متفرقات جماعات فى الحوش · وأخذت تنتقل من جماعة الى جماعة فى سرعة واضطراب دون أن تدرى لذلك سببا ، كانت الكلمات تنفذ من أذنيها الى قلبها ، والرجفة تسرى فى جسمها من أسفل الى أعلى حتى تتركز فى رأسها ، فى شعرها ·

·· نزلوا البنات اللى فى الفصول ·· لأ مافيش شغل ولا بنت حاتشتغل ·· عليه ، شوفى بنات سنة أولى ، طمنيهم اذا كانوا خايفين ·· بالعكس دول متحمسين خالص ·· دول حتى أشجع من البنات الكبار ·· احنا مش أقل من الطلبة ·· بنات ، البنات برضه عندهم شعور ·· ضرورى نعبر عن شعورنا ·

والجرس يدق ، والمشرفات والمدرسات يصفقن ، والبنات متفرقات جماعات ، ووصلت ليلى الى شلتها وقالت عديلة :

ــ تعالى ياست ليلى شوفى قريبتك ، مش عايزة تخرج ·

وبدت الدهشة على وجه ليلى :

ــ تخرج ؟ تخرج فين ؟

ــ فى المظاهرة طبعا ·

ـ انتوا حاتخرجوا فى مظاهرة ٠

ـ طبعا حانخرج ٠ البلد كلها قايمة على رجل وكل المدارس حاتخرج واشمعنى احنا اللى مانعبرش عن شعورنا ٠٠

وانقطعت المناقشة عندما خرجت الناظرة الى الحوش والجرس مايزال يدق فى الحاح ٠ وتجمعت الجماعات المتفرقة فى كتلة آدمية كبيرة متساندة ، وعلا الهتاف :

ـ يسقط الاستعمار ـ نريد السلاح ـ السلاح ٠٠

وتقدمت الناظرة الى الميـــكرفون وقالت أن وظيفة المرأة هى الأمومة ومكان المرأة هو البيت ٠٠ وأن السلاح والكفاح للرجال ٠

وساد الصمت برهة ، خانقا ثقيلا ثم اخترقت الصفوف فتاة سمراء قصيرة الشعر عريضة المنكبين سوداء العينين لامعتهما وتقدمت وصعدت السلالم الأربعة التى تفصل الطالبات عن الناظرة ووقفت أمامها وقالت وصوتها يرتجف فى الميكروفون ٠

ـ ان حضرة الناظرة تقول ان المرأة للبيت والرجل للكفاح ٠ وأنا أريد أن أقول أن الانجليز حين قتلوا المصريين سنة ١٩١٩ لم بين الرجل والمرأة ٠ وان الانجليز حين سلبوا حرية المصريين لم يفرقوا بين الرجل والمرأة ، وأن الانجليز حين نهبوا أرزاق المصريين لم يفرقوا بين الرجل والمرأة ٠

وعلت صرخات متفرقة ، وبدأت الطالبـــات يقفزن ويعانقن بعضهن البعض ثم ارتفع صوتهن موحدا كالهدير : يسقط الاستعمار ٠٠ السلاح السلاح ٠٠ نريد السلاح ٠٠

وتراجعت الناظرة ٠

وقالت ليلى لسناء :

ـ أما بنت هايلة صحيح ٠

ـ أهو كده الجدعنة صحيح ـ تقدرى انت تعملى كده ؟

وضحكت ليلى وهى تغمض عينيها وتتصور نفسها فى ذلك الموقف وقالت :

ـ ياريت ٠

ثم رجعت الى الموضوع من جديد ٠

ـ اسمها ايه ؟

ـ سامية زكى فى توجيهية علمى ٠

وانعقدت القيادة لسامية وسارت الطالبات خلفها الى باب المدرسة الرئيسى ، وطرقت سامية الباب وطرقته البنأت خلفها ، وظل الباب موصدا ، وانقطع الهتاف وانقسمت المتظاهرات الى جماعات تتشاور وتتصايح ثم ساد الصمت برهة ، كانت الطالبات ينصتن الى همهمة خافتة تترامى من بعيد ، واكتسبت الهمهمة قوة شيئا فشيئا حتى صارت هتافا يصم الآذان ، ونزلت طالبة تجرى من على السلم ٠٠

ـ طلبة الخديوى اسماعيل ٠

واجتمعت الطالبات كتلة واحدة من جديد وبدأ الهتاف من جديد يتبادله الطلبة فى الخارج والطالبات فى الداخل :

لااستعمار بعد اليوم ٠

يسقط أعوان الاستعمار ٠٠

السلاح السلاح نريد السلاح ٠

نموت وتحيا مصر ٠

وازداد طرق البنات على الباب ، وصعد أحد الطلبة على سور المدرسة وقال : ابعدوا عن الباب ٠٠

وتراجعت الفتيات الى الخلف ٠ وبدأ الباب يضعف من الدفعات القوية من الخارج دفعة وراء دفعة ٠

وقالت عديلة :

ـ ياللا يا سناء ٠

وتبعتها سناء دون تردد ، دون أن تنظر الى الخلف ، وانفصلت الشلة الى قسمين وبقيت ليلى مع جميلة ٠

وقالت جميلة :

ـ أنا مش خارجة ٠

وهزت ليلى كتفها وقالت وهى تمشى فى اتجاه الباب :

ـ خليك ٠ أنا شخصيا خارجة ٠

وقالت جميلة :

ـ ليلى ٠٠ انت المسئولة عن اللى حايحصل ، افرضى اهلك شافوك ، أبوك ولا محمود ؟

وابيضت شفتا ليلى وقالت فى ضيق :

ـ أهلى ، أهلى ! هو ماحدش له اهل غيرى ؟

ولكنها وقفت فى مكانها لا تتقدم ٠٠ وقفت مترددة ٠

وقالت جميلة :

ـ ارجعى ٠٠ ارجعى أحسن دى حاتبقى بهدلة ٠

وفى هذه اللحظة اندفعت جماعة من الطالبات تجـاه ليلى وحاولت ليلى أن تتراجع ، أن تشق لنفسها طريقا لتنفصل عن الكتلة الآدمية المتدفقة ، ولكن الكتلة جرفتها فى طريقها وفصلتها تدريجيا عن جميلة ووجدت ليلى نفسها فى الشارع ٠

وتراجع الطلبة الى الخلف وأفسـحوا للطالبـات طريقا ، وتقدمت الطالبات الموكب يتبعهن الطلبة ، وعلى جانبى شارع خيرت تجمع المارة وأصحاب المحلات الصغيرة وصبية الشوارع ٠ وامتلأت النوافذ والشرفات بالناس ٠

وسارت ليلى تتلفت حولها يتنازعها الخوف والخجل ٠ الخوف من أن يراها أحد ، والخجل من جسمها الممتلىء الذى خيل اليها أن كل العيون تتركز عليه ٠٠ وهتاف يعلو كالموج ثم ينحسر لتلحق الموجة الأولى موجة ثم تمتزج الموجتان ٠ وتصفيق وزغاريد وأيدى تلوح وعيون تلمع وأجسام ترتفع وتنخفض فى قفزات مجنونة ، وأفواه مفتوحة وحبات من العرق تلتمع على جبين عريض ، وأقدام تدق ، وأعلام تخفق ، ودموع تنهمر واندفاع ٠٠

٠٠ واندفع الدم فى رأس ليلى ، انتشت ، وشعرت أنها قوية وخفيفة كالطير ٠ وشقت الصفوف الى الأمام وارتفعت على أكتاف الطالبات وهتفت لحظة بصوت غير صوتها ، صوت اجتمع فيه كيانها الذى مضى وكيانها الآتى وكيان هذه الآلاف التى امتدت على مرأى بصرها ، ثم ضاع صوتها ، تلقفته الآلاف ونزلت ٠٠

واجتذبتها عينان ، عينان رحتا تحدقان فيها فى الحاح صامت. الحاح يطوقها ويخنق منابع القوة فى جسدها وروحها ٠

وتقدمت الى الأمام ولكن العينين مازالتا تلاحقانها فى الحاج وكأنهما مسلطتان على قفاها ٠٠ ورأت ليلى نفسها في البيت على مائدة الطعام ، وأباها وقد اكفهر وجهه ومد يده مهددا وأمها وقد ابيضت شفتاها ٠٠ وسرت رعدة في جسدها وانهارت ساقاها ٠ وتلفتت خلفها لترى أباها ٠٠ كان مازال واقفا فى مكانه على رصيف ميدان لاظوغلى بالقرب من القهوة ، وقد كز بأسنانه على شفته السفلى ٠

...

والكتل من خلفها تدفعها بلا رحمة الى الأمام ، بعيدا عن أبيها وقد اسود وجهه ، وعن أمها وقد ابيضت شفتاها ٠ وتلاشى أبوها من مرأى بصرها ، ولم تعد تراه ٠ لم تعد ترى الا هذه الآلاف وقد انصهرت فى كل ٠٠ كل الى الأمام يدفعها ، كل يحيطها ويحميها ، وانطلقت من جديد تهتف بصوت غير صوتها ، صوت وجد كيانها وكيان الكل ٠

...

كز أبو ليلى على شفتيه حين فتح لها الباب ، فتح لها الباب فى هدوء ، وفى هدوء أغلقه ثم أظهر الشبشب الذى أخفاه خلف ظهره وحاول أن يطرحها أرضا ، وتدخلت أمها تحول بينه وبينها ودفعها بعيدا ، وبعيدا وقفت ترتجف شفتاها ، وبيديه خلع حذاء ليلى ، وعلى قدميها دوت طرقعة الشبشب وعلى ساقيها وظهرها ، وضحكة امرأة على السلم وصراخ طفل وليد ونهنهة أمها ، وصوت أبيها يصرخ فيها « اخرسى » وطرقعة الشبشب مرة بعد مرة وبين المرة والمرة توقف ، توقف ، ونفس محبوس ، ثم تدوى الطرقعة من جديد ، وحفيف حقيبة الكتب وهى تسحبها على البلاط وصرير أسنانها فى الجلد وخطوات أبيها تتباعد وطرقه باب غرفته وخطوات أمها تقترب ويداها وقد امتدت اليهما برودة البلاط وهى تزحف على قدميها ويديها الى غرفتها ٠٠

وعندما وصلت ليلى الى غرفتها تحاملت على نفسها ووقفت على قدميها وأقفلت الباب فى وجه أمها وأوصدته بالمفتاح . وجررت ساقيها ألى المقعد المواجه للسرير وجلست ، وشعرت أنها تختنق ووضعت يدها على رقبتها وقامت واقفة وراحت تجرى فى الحجرة وهى تهمس : أروح فين ، مش ممكن ، مش ممكن أستنى هنا .

وكالعمياء تخبطت فى السرير وفى الدولاب وفى المقعد . وقرعت أمها الباب قرعا خفيفا وهمست :

ـ افتحى يا ليلى .

وتوقفت ليلى فى وسط الحجرة وغطت وجهها بيديها ..

ـ أروح فين ؟ لو قفلت ميت باب مش حايبعدوا عنى ، دايما وياّيا ، دلوقت وياّيا حتى والباب مقفول ، دايما وياّيا ، أبويا وأمى وياّيا ، على نفسى على صـدرى ، ولا دقيقة أنسى ولا دقيقة أحلم ولا دقيقة أفكر فى شىء تانى ولا دقيقة لى ، دايما أنا وهم والحقيقة ، الحقيقة الكئيبة ، أنا وهم على جسمى الممدود فى الصالة .

ومضت ليلى تذرع الحجرة .

ـ أعمل أيه ؟ أعمل أيه يارب ؟

أموت نفسى ؟ وساعتها ..

وتخيلت ليلى نفسها نائمة على السرير ميتة وعيناها مقفلتان وجسمها متصلب وأبوها الى جانب السرير يبكى بحرقة .. زى .. زى العيل ..

والناس الذين يخاف منهم يشيرون اليه ويقولون :

ـ هو ده اللى قتل بنته .

وأمها سيسود وجهها وتصرخ فى أبيها وتقول :

ــ انت ٠٠ انت اللى قتلت بنتى ٠

أبدا لن يسود وجه أمها ولن تصرخ فى أبيها ٠ ستظل طول عمرها تمشى على أطراف أصابعها ودموعها تسيل بلا صوت ٠

وانهارت ليلى على طرف السرير ودفنت وجهها فى يديها ٠٠ لم تعيش ؟ لم ؟ أنها ليست انسانا ، انها ممسحة ممددة فى الصالة ، كالممسحة التى يمسح فيها الناس أقدامهم ٠ وليس هناك من يحبها ولا من يعاملها كانسانة ٠

وقرعت أمها الباب :

ــ يا بنتى افتحى ، كلى لقمة ، ولا بلى ريقك بشوية ميه ٠٠

على المائدة زمان ، وهى صغيرة أبوها قال :

ــ ليلى مش بنتنا ــ لقيناها على باب الجامع ــ حتى شوف يا محمود أنا أبيض وانت أبيض وماما بيضة ، ليلى بس اللى سوده ٠

ونظرت هى لأمها وأمها ضحكت وقالت :

ــ لقيناها فى اللفة غلبانة ومسكينة قلنا نربيها ينوبنا ثواب ٠

ووجدت ليلى نفسها تسحب يدها وتخفيها خلف ظهرها ، تماما كما فعلت وهى طفلة ٠

وعاودت أمها قرع الباب فى خفة وهى تهمس :

ــ افتحى يا بنتى افتحى يا ليلى ، انت أصلك تبقى بايخة لما تعندى ــ تبقى زى ٠٠

وهزت ليلى ساقيها فى انتظام وقالت لنفسها :

ــ زى الكلب ، زى الحشرة ، زى الدبة .. بابا قال وهو فى السرير عيان وأنا باحضنه ، زى الدبة اللى قعدت تحضن فى ابنها لغاية ما مات .

لم ؟ لم احتضنته بشدة ؟ لم لا تكون رقيقة كما يريد هو ؟

كل شيء تفعله تندفع اليه بقلبها وبكيانها وتحسب أنه صواب فاذا به خطأ . كل ما تفعله خطأ فى خطأ ، وليس هناك من يحبها .. فى المدرسة ؟

لو رأتها عديلة ممددة فى الصالة لهزت كتفها وقالت : غلط ، غلط منك .. أنت اللى غلطانه ، فضلت ساكتة لما ركبوك ، أنت أصلك ضعيفة ..

وقالت ليلى بصوت هامس باك :

ــ أعمل أيه يا عديلة ؟ أقدر أعمل أيه ؟

نعم هى ضعيفة ، ضعيفة كأمها ستظل ضعيفة طول عمرها تبيض شفتاها وتنزل دموعها بلا صوت .

وارتفع صوت أمها من خلف الباب :

ــ يا بنتى احنا ضرورى صوتنا يجيب لآخر الشارع . افتحى يا بنتى ــ حتموتى من الجوع .

وقال محمود :

ــ افتحى يا ليلى ، بابا نزل .

ولحظت لأول مرة أن الحجرة قد أظلمت وأنها لم تضيء النور .

وازداد القرع على الباب ولم تجب .

وقال محمود فى صوت غاضب :

– ليلى .. حانضطر نكسر الباب .

وترددت برهة ثم قامت الى الباب وأدارت فيه المفتاح .

وعادت الى المقعد وخلفها وقع أقدام والنور الكهربائى يؤلم عينيها .

ورفعت ليلى يديها تحجب النور عن عينيها .

وقالت أمها :

– قومى بقى بلاش عند ، قومى يا بنتى .

وأنزلت ليلى يديها ونظرت الى أمها دون أن تتكلم ، وبدت فى عينى الأم دهشة أعقبها استنكار وقالت :

– كان حد قالك تعملى العملة السودة اللى عملتيها ؟ تفضحينا وتجرسينا فى الحتة ؟ هى جميلة مش بنت زيك . اشمعنى ما عملتش عملتك ؟

ودخل محمود وهو يحمل كوبا من الماء ووقف أمام ليلى وأخذت ليلى الكوب دون أن ترفع عينيها اليه وتقلصت أمعاؤها والماء ينزل فيها وانطوت بنصفها الأعلى على بطنها وأحاطتها أمها بذراعيها من الخلف .

ووقف محمود يواجه النافذة وقد أعطى ليلى ظهره ، وحين خرجت الأم استدار فى بطء وقال فى ارتباك وكأنه يجد صعوبة فى طرق الموضوع :

ـ أنا آسف يا ليلى على اللى حصل ، وأعدك انه مش حايتكرر نانى .. أبدا .

وسالت دموع ليلى وقلبت شفتها السفلى وبدت فى عينيها نظرة حزينة وهزت رأسها وهى تقول :

ـ وأيه الفايدة ؟ أيه الفايدة يا محمود ؟ أنا اتقتلت خلاص انتهيت . بعد اللى حصل النهارده كل حاجة اتغيرت ، مابقتش انسانة ، بقيت ممسحة ، ممسحة جزم .

وغطت ليلى وجهها وانخرطت فى عويل اهتز له جسمها .. واقترب منها محمود ووضع يده على كتفها وقال :

ـ بلاش كده يا ليلى ، بلاش عشان خاطرى ، بلاش المبالغة دى .

ـ دى الحقيقة .

وسكت محمود قليلا ثم قال فى تردد :

ـ عارفه يا ليلى ، المهم انك تدركى انك كنت غلطانه . لو أدركت كده مش حتتألمى زى ما بتتألمى دلوقت .

وازاحت ليلى يد محمود بعنف عن كتفها ، وقفزت واقفة وشفتاها ترتجفان :

ـ وانت كمان ؟ انت كمان يا محمود ؟ انت بتقول انى غلطانة ؟!

وانهار صوتها وهى تردد :

ـ وانت كمان يا محمود ! وانت كمان !

ـ اهدى شوية وخلينا نتناقش بعقل .

ـ عقل ! فين هو العقل ده ؟ أنا مش فاهمه حاجة ، مش فاهمة حاجة خالص ·· أنا غلطانة ·· غلطانة ليه ؟ ماسرقتش حد ، ماقتلتش حـد ، خرجت فى مظاهرة فيهـا ألف بنت ، عبرت عن شعورى ··

وتوقفت ليلى عن الكلام برهة وكأنهـا تفكر قالت بصـوت خافت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ غلطانة ، فعلا غلطانة ، عبرت عن شعورى زى ما أكون انسان ونسيت ، ونسيت انى مش انسان ، نسيت انى بنت ·· ست ·

وضحكت ضحكة أشبه العويل ·

والتفتت الى محمود وهى تكمل كلامها :

ـ مش ده اللى انت عايز تقوله يا محمود ؟

ـ أنا ماقلتش كـلام فارغ زى ده ، وانت عارفة كويس ، عارفه انى أحترم المرأة وأعتقد انها زى الرجل تمام ·

وأكملت ليلى كلامه وهى تشير بيدها اشارة خطابية :

ـ لها كل الحقوق وعليها كل الواجبات ·

ثم التفتت الى محمود وهى تبتسم ابتسامة باكية :

ـ على الورق ؟ مش كده يا محمود ؟ على الورق ؟

ـ ورق أيه ؟

ـ كلام حلو على الورق ولكن لما ندخل فى الجد ، لما أختك تعبر عن نفسها كانسان تبقى غلطانة ! مش كده ؟ تبقى غلطانة والغلط راكبها من راسها لرجليها ·

وأدرك محمود أنها تقول الحقيقة وأثاره هذا الادراك وصاح في حدة :

ـ دى مش طريقة مناقشة دى ، اهدى شوية وأنا أفهمك كل حاجة ·

وهزت ليلى رأسها وقالت وقد اختفت من صوتها نبرة الغضب وحلت محلها نبرة يأس ·

ـ أنا مش فاهمة حاجة يا محمود ، مش فاهمة حاجة خالص ، أيه الصح ؟ وأيه الغلط ؟ مش عارفة أصدق مين ؟ وما أصدقش مين ؟ وأعتقد فى أيه ؟ وما أعتقدش فى أيه ؟

ولم يحر محمود جوابا ، وقالت ليلى :

ـ قول لى يا محمود ، أعمل أيه ؟

ونظرت اليه بتوسل وكأن حياتها تتوقف على رده على هذا السؤال · وبدت الحيرة على وجه محمود وود لو استطاع أن يهوى عنها بأى كلمة ، أن يكذب عليها كما كان يفعل وهى صغيرة وأن يدفن رأسها فى صدره ، ولكنه أدرك أنها كبرت ، كبرت أكثر مما كان يتوقع · وأراد أن يقول لها أن المشكلة ليست مشكلتها وحدها وأنها مشكلته هو أيضا ومشكلة جيلهم كله ، ولكنه وجد أن من السخف أن يتفلسف وانسان يتألم أمامه ·

ودخلت أمه تحمل صنية الطعام ومسح محمود وجهه بيده ، وبقى السؤال معلقا بلا جواب ·

ووضعت الأم الصنية على مائدة خشبية صغيرة أمام المقعد وقالت :

ـ اقعدى يا بنتى كل لقمه ، والله انت غلبانة ومسكينة وجايبه لروحك النكد ٠

ولم ترخ ليلى عينيها عن محمود ٠ وضايقه اصرارها على انتظار الجواب وقال بحدة :

ـ ما تسمعى الكلام يا ليلى وتقعدى تاكلى ٠

وأغمضت ليلى عينيها لحظة ثم فتحتهما وقالت :

ـ اخرجوا الأول ٠

ونظرت الأم الى محمود تنتظر قراره ٠ وأشار اليها بالخروج وسار خلفها ، وعندما هم باغلاق الباب خلفه تعمد أن تلتقى عيناه بعينى ليلى ٠٠٠ وفهمت ليلى ، فهمت أنه هو بدوره حائر مثلها ، مسكين مثلها انه يعرف ما الخطأ وما الصواب ولكن على الورق ٠٠ على الورق ٠

ونظرت ليلى الى الطعام لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه ، واتجهت الى مفتاح النور وأطفاته ثم تحسست طريقها الى المقعد وجلست ٠

وسمعت ليلى طرقة خفيفة على بابها ، واتصلت الطرقة خفيفة فى الحاح ، ولم تجب ، ثم انفتح الباب وسطع النور فى الحجرة ، ووقف عصام على الباب وعلى شفتيه بسمة مرتبكة ٠

ـ أقدر أدخل ؟

ولم تجب هى ، واختفت ابتسامة عصام ، وبدأ يحك ذقنه بيده وقالت ليلى :

ـ ارجوك يا عصام سبنى دلوقت ٠

وأشرق وجه عصام وتقدم الى داخل الغرفة وجلس على طرف السرير مواجها لليلى ومال بنصفه الأعلى الى الأمام وشبك يديه حول ساقيه وقال :

ـ أسيبك ازاى بقى يا ستى ـ انت مش أختى الصغيرة ..

وأخذت ليلى تقرع مســـند الكرسى بيدهـــا قرعات خفيفة منتظمة ..

أخته ! أخته الصغيرة ! لم تعد هذه الجملة تؤثر فيها ، ولكن فى يوم من الأيام كانت غارقة وانتشلتها هذه الجملة .. فى حوش البيت محمود قفز وقال « ليلى مش أختى . مش بنتنا . مش بنتنا » وعصام قال « أختى أنا أختى الصغيرة » « خلاص .. أنا أخت عصام ، أخت عصام الصغيرة » . ومن يومها وهو يدللها بهذا اللقب ..

وكان عصام ما زال فى جلسته وما زالت عيناه متعلقتين بليلى . ولحظت هى أن يدها تقرع مسند المقعد وسحبتها الى جانبها وارتخت فى جلستها ومالت برأسها الى الخلف .

وقام عصام من على طرف السرير ، وجلس نصف جلسة على مسند المقعد الذى تجلس عليه ليلى ، ومال عليها ومر بيده برقة على خدها من أسفل الى أعلى وأزاح خصلة من الشعر تهدلت على جبينها . وتوقف تنفس ليلى حتى أكملت يد عصام دورتها وهوى قبلها الى أسفل جسمها ودقة دقة عنيفة . قال عصام :

ـ انت مش عايزة تكلمينى ولا أيه يا ستى ؟

بصوت صغير كمن يكلم طفلة صغيرة ، طفلة تافهة حقيرة .

وقامت ليلى كالملدوغة من على المقعد وقد صعد الدم الى رأسها .

وأعطت ظهرها لعصام وتقدمت حتى حاذت النافذة ·· وخلفها وقف عصام ووضع يديه على كتفيها · واستدارت هى استدارة عنيفة لتواجهه وهى تقول فى غضب :

ـ اسمع يا عصام أنا مش عيله ··

ولم تكمل جملتها ·· تقلص وجه عصام كمن يعانى ألما عنيفا ولمعت حبات من العرق على جبينه ولفحت أنفاسه وجهها ساخنة ، وشعرت بجسمه يلاصق جسدها · وتراجعت حتى التصقت بجدار النافذة · ولانت ملامح عصام ولانت عيناه وأشرق فيهما نور ثاقب اخترق جسدها واستقر فى حناياها ··

وقطعت خطوات أمها لحظة السكون التى دامت بينهما ، وعيناه فى عينيها والنور فى حناياها ، وهز عصام رأسه كمن يفيق من حلم ، واحمر وجهه وأخرج منديله وجفف العرق من على جبينه ثم بدأ يحك ذقنه بيده ·

وفتحت أمها الباب نصف فتحة واستدار عصام دون أن يلتفت الى ليلى واتجه الى الباب ، وتراجعت أمها تفسح له الطريق ، واقفل عصام الباب خلفها فى رقة وحرص ، وسمعت ليلى همسا فى الصالة ثم خطوات تبتعد ··

وجرت ليلى الى المرآة وأسندت خدها اليها ولكن برودة المرآة لم تطفىء ذلك الشىء الذى يتوهج كالشرار فى صدرها بل زادته اشتعالا · وجرت الى النافذة وفتحتها على مصراعيها وانكفأت على حافتها ودلت رأسها ويديها فى الهواء ··

كم دامت هذه اللحظة ؟ دقيقة ؟ عمر ؟ لقد عاشتها من قبل ،
··

نعم عاشتها بكل تفاصيلها · متى ؟ قبل أن تولد ؟ بعد أن ولدت ؟ في الحقيقة ·· في الحلم ··

وانسحبت غمامة من على القمر وشعرت ليلى بالنور يغمرها ويتساقط كالأزهار من شعرها ويديها · وعرت جسدها رعشة من برودة الجو فاستقامت وأقفلت النافذة وعادت الى مقعدها ولمحت الطعام فشعرت بجوع شديد ، والتهمت عشاءها بشهية واندست في قميص النــوم وأطفأت النور ودخلت السرير وأغمضت عينيها ونامت نوما عميقا ولكنها صحت مبكرة مع الفجر ·

صحت ليلى واسم عصام على لسانها ، وأبقت عينيها مغمضتين على صورته وهو يقف تجاهها يركز عينيه في عينيها ·

وشعرت وهي مستلقية في سريرها كأنها تعيش اللحظة من جديد ·· شعرت بنور ثاقب يخترق جسدها ويستقر في حناياها ·

وتنهدت ليلى وتمطت وفتحت عينيها وراحت تستعيد ملامح عصام في ذاكرتها ، وانطبعت أمامها صورته وهو يقف تجاهها يركز عينيه في عينيها · وحاولت أن تتذكره كما كان منذ سنة ، منذ شهر ، منذ أسبوع · ولكنها لم تستطع ، وكأنها لم تشاهده من قبل ، وكأنها لم تشاهده الا أمس وهو يقف تجاهها ينظر اليها بوجهه الحليق وببدلته الأنيقة في لون البن المحروق ، وبربطة عنقه السماوية وبقميصه الأبيض بياض الثلج ··

ووضعت ليلى يديها على الوسادة تحت رأسها وابتسمت ·· أليس من المضحك أنه كان دائما معها ، منذ الطفولة معها ، تحت سقف واحد ولم تره الا بالأمس ؟ وهذه الفكرة بدورها مضحكة · كيف ؟ كيف لم تره الا الأمس ؟ لقد رأته آلاف المرات ولعب معها

وهى طفلة ، وكان هو الذى علمها العد من واحد الى عشرة وكتابة اسمها بالعربية والانجليزية ، وهو الذى حماها من سيطرة محمود . ثم رأته بعد أن بلغت كل يوم . ومع ذلك لم تره الا أمس وكأنه مخلوق جديد ، وكأنها رأته من قبل بعين غير العين التى رأته بها أمس ، عين .. عين القلب ، عين الحب .

وقفزت ليلى جالسة فى سريرها وأحاطت فخذيها بذراعيها .. نعم هو الحب .. الحب وهمست ليلى « عصام بيحبنى وأنا باحب عصام » .. واستمعت الى الكلمات كلمة كلمة . وملأتها الكلمات كأنها السحر بشعور غامر من السعادة ، وعادت تردد الجملة كأنها أغنية ، تستمع كل مرة الى وقعها فى نفسها وهى تهز رأسها منتشية .

وغمرها الشعور بالسعادة حتى لم تعد تتحمله ، وأرادت أن تصرخ ، أن تغنى أن ترقص أن تقفز .. وقفزت من السرير الى وسط الحجرة وجرت الى النافذة ، وفى سرعة واضطراب فتحتها على مصراعيها ..

كان نور الفجر يمرق ما تبقى من وحشة الليل ، وحشة الظلام .. ووقفت ليلى رافعة الرأس مفتوحة الصدر ، وقفت تتلقى أشعة النور وكأنها تمتصها فى حناياها شعاعا وراء شعاع .

وأدركت فجأة ، وهى واقفة فى النافذة ، أن مرحلة جديدة من مراحل حياتها قد بدأت .. لقد انتهت دنيا أحلامها ، انتهت بلا رجعة ، حطمها أبوها .. وبدلا من دنيا الأحلام تفتحت أمامها دنيا الحقيقة ، لا دنياهم الكئيبة المقيدة ، بل دنيا حرة ، تستطيع فيها أن تحب وتحب ، بلا خوف بلا وجل بلا لوم بلا ندم .. دنياها

هى وهو ٠٠ دنياهما التى لا يستطيع العالم الخارجى أن ينفذ اليها أو أن يتحكم فيها ٠٠ دنياها التى تستطيع فيها أن تعبر عن نفسها كالطير الطيق ، وهى تعرف طول الوقت أنها محبوبة وأنها مرغوبة وأنها محترمة وأن كل تصرف لها معقول ومقبول ٠

واستدارت ليلى وأعطت ظهرها للنافذة واستندت على حافتها بذراعيها وأغمضت عينيها ومضت تمشى فى الحجرة وهى تتمايل كأنها ترقص ثم توقفت وفتحت عينيها ، وعلى مبعدة عكست لها المرآة صورة فتاة متوردة الخدين يشع النور من عينيها ومن شفتيها ومن خديها ، وخيل اليها أن الشمس المنعكسة على المرآة تخدعها ، وجرت الى المرآة والتصقت بها ٠

واكتشفت ليلى لأول مرة فى حياتها أنها جميلة ٠٠ ووجدت نفسها تضحك وحدها كالمجنونة أمام المرآة ، وابتعدت قليلا وأحنت رأسها وسندت صدغيها بيديها وراحت تسكن من موجات الضحك التى اجتاحت جسمها ٠

(المسافرة)

نهاد جاد

(١٩٣٦ - ١٩٨٩) .

مثل نسمة رقيقة مرت في أجواء الثقافة والصحافة المصرية ، كانت نهاد جاد ! ونهاد جاد كاتبة تحسب على الجيل الأكثر حداثة بين الكاتبات المصريات ، الجيل الذى تعلم بسهولة ، والتحق بالجامعة كأمر مفروغ منه ، وعاش وشارك فى القضايا الوطنية والتحررية فى فترة الخمسينات والستينات .

وهى أيضا من السيدات القلائل - فى وقتها - اللائى مررن بتجربة السفر لبلاد بعيدة بمفردها للحصول على شهادة علمية من أمريكا .

وكتابات نهاد جاد تنوعت بين مجالات شتى ، فحين بدأت العمل الصحفى فى أواخر الخمسينات تركز اهتمامها على الأطفال والكتابة لهم ، وأصدرت عدة قصص للأطفال ، لكنها قطعت هذه المرحلة بسفرها الى أمريكا فى منتصف الستينات للدراسة بجامعة انديانا بمدينة بلومنجتون ، وهناك حصلت على الماجستير فى الدراما والأدب .

وكانت هذه السفرة الى « بلومنجتون » نقطة تحول فى حياة نهاد جاد ، ليس على المستوى العلمى فقط ولكن على المستوى الشخصى أيضا ! فهناك كان لقاؤها بشريك حياتها الدكتور سمير سرحان الذى كان يدرس لنيل درجة الدكتوراه من نفس الجامعة وكان لهما قصة سجلها د٠ سمير سرحان وصورها تصويرا جميلا من خلال سيرته الذاتية بعنوان « على مقهى الحياة » فيقول :

« عاد الفتى الى بيته وفى مخيلته صورة فتاة مصرية قادمة الى هذه البلاد البعيدة ، وربما تكون هى الفتاة العربية الوحيدة فى الجامعة ، وبالقطع ستكون مسئوليته هو الشخصية أن يساعدها ، فضلا عن أن يحميها ويحافظ عليها حماية الأخ الشرقى لأختيه »

وقد وصفها د٠ سرحان حين شاهدها أول مرة فى جامعة القاهرة عندما كان معيدا بقسم اللغة الانجليزية وهى طالبة بالسنة الثالثة وقد كتب عن هذا اللقاء قائلا :

« لمح صديقا حميما له من الصحفيين هو مصطفى الحسينى يصطحب معه فتاة سمراء هيفاء ذات شعر أسود كثيف وعينين واسعتين يعتريهما تعبير دائم بالدهشة ممزوج بشىء من التعالى والسخرية الخفيفة ، ربما كانت تدارى به خجلها الكامن ٠٠ وكانت تسير منحنية الرأس قليلا رجلاها تكاد أن تصطدمان ببعضهما البعض كأنها خجلى من طولها الفارع الذى أضفى عليها فى حقيقة الأمر من جمال الوجه والعينين والشعر جاذبية لا حدود لها ٠

على أن هذه الصورة التى انطبعت فى ذهن سمير سرحان عن تلك الفتاة فى القاهرة ثم الرغبة فى تقمص دور الأخ الشرقى عندما

قابلها فى أمريكا قابله فتور شديد من الفتاة القادمة من مصر فقد رفضت كل مساعدة وكل التسهيلات التى يمكن أن يقدمها مغترب قديم الى مغترب حديث فى بلاد بعيدة عن الأهل والأصدقاء ٠٠

ولكن هذا الفتور لم يلبث ان تحول الى حميمية وود يرويه د٠ سرحان ويقول « كانت قد بدأت بينهما روح من الالفة والشعور العميق بالزمالة والانتماء لنفس الأفكار ونفس الأصدقاء من نجوم الحركة الثقافية فى القاهرة ٠ أخبرته ان سوزان الأمريكية (وكانت شريكتها فى السكن) تطبخ ما لا يؤكل وما لا يشرب كعادة الأمريكيين — تفرض عليها أكل السمك المسلوق فى اللبن ٠٠ والطرشى بالسكر وغير ذلك مما تعافه نفس المصرى ٠٠ وعند ذلك وفى اللحظة المناسبة تماما أخبرها انه قد طبخ باميه مصرية باللحم الضانى مع أرز بالشعرية ، ثم أعطى لها ظهره واستدار متجها الى الطريق الموصل الى منزله على مشارف شارع الجامعة ٠٠ وتعمد ألا يلتفت الى الوراء ، وعندما أدار المفتاح فى باب المنزل وجدها تقف خلفه مباشرة ٠٠٠

أما كيف تمت هذه الخطوة التى أوصلتها الى طريق الرباط المقدس فيحكى عنها الدكتور سمير سرحان قائلا : « فى اليوم الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ طرقت بابه فى الصباح الباكر لتخبره انها تودعه ، فقد قررت السفر لأسبوعين أو ثلاثة الى مدينة نيويورك للفسحة والفرجة ٠

انخلع قلبه ولم يدر ماذا يقول ٠ ارتدى ملابسه على عجل وقال انه سيوصلها الى مدينة انديانا بوليس القريبة بسيارته حيث تستقل الطائرة من هناك ٠٠ انطلقت السيارة فى الطريق الواسع الرائع الجمال الذى تظلله على الجانبين أشجار باسقة يانعة

الخضرة ٠٠ جلسا صامتين حتى منتصف الطريق تقريبا ٠ امتدت يده ليدير مفتــاح راديو السيارة حتى يقطع الصمت الذى كان يخنقه ، مد يده فأمسك يدها أول مرة يلامسها ٠٠ تركت يدها فى يد تشعر بدفء الدنيا ، فى لحظة أحس انه عاد الى وطنه ٠٠

ـ تتجوزيني ؟؟

أطرقت موافقة دون أن تنطق بكلمة ! استدار بالسيارة وعاد فى الطريق المتجه الى بلومنجتون فى سرعة جنونية كسرعة دقات قلبــه الذى غمره الفرح ٠٠ وعجب : لمــاذا لم يفكر فى ذلك من قبل ٠٠٠ وعجب أكثر لأنه اكتشف فجأة انه كان قد وقع فى حبها منذ اللحظة الأولى ٠٠ وانه ظل طوال هذه الفترة يكابر ٠٠ وأنه لابد انهــا أيضــا قد وقعت فى حبه ، والا فلماذا وافقت على الفور عندما عرض عليها الزواج ٠

كانت السعادة تغمرهما كطفلين يرتديان ملابس جديدة فى صباح يوم العيد عندما توقفت السيارة عند بيتها لتزف الخبر الى صــديقتها سوزان ٠٠ قالت سوزان انها كانت تعرف انهما لابد عائدان منذ أن انطلقا بالسيارة ٠ وانها ظلت جالسة تنتظر عودتهما وهى تمسك بساعتها ٠٠ كانت تعرف ان الحب قد ربط بين قلبيهما وانه لن يتركها تســافر ٠ وستعود معه عند أول اعتراف لهــا بالحب ٠٠ ضحكت نهاد ولم تعلق ، وانما وضعت حقيبة السفر وأسرعا الى منزل ابراهيم حماده ليرتب أمر زواجهما ٠

لم يندهش ابراهيم أيضا وانما أخذهما الى زميل لهم من الاخوان المسلمين الذى عقد قرانهما وشـــهد ابراهيم وزميل آخر على العقد ٠ وقال انه سيرسله صباح الغد الى السفارة المصرية فى واشنطون لتوثيقه ، ولكنه أشار أن يذهبا الى مكتب عقود الزواج

فى صباح اليوم التالى ليصبح زواجهما ساريا امام الحكومة الأمريكية ..

قال الزملاء المصريون سنقيم فرحا فى المساء ونرقص رقصا بلديا حتى الصباح وزغرد زغروده طويلة متعرجة ، وضحكوا ضحكات صافية من أعماق القلوب المغتربة وهم يرددون « اتمخترى يا حلوه يازينه » ويصفقون . وعم الجميع شعور بأنهم فى وطنهم وان كانوا بعيدين عنه آلاف الأميال » .

هذه القصة الجميلة كانت بداية لمشوار جديد فى حياة نهاد جاد . كان هذا الزواج بمثابة انطلاقة جديدة فى الحياة وكان لها تأثيرها فى نشاطها الثقافى .

فبعد عودتها وسمير سرحان الى القاهرة عادت لتمارس انتاجها الصحفى ، وعملت بالتدريس فى جامعة القاهرة ، لكنها سافرت مرة أخرى الى جدة كمحاضرة بجامعة الملك عبد العزيز ، ثم عادت لتصبح احدى الكاتبات اللامعات فى الحقل الصحفى ، حيث أخذت تكتب بانتظام فى مجلة صباح الخير حتى وصلت الى منصب مدير تحرير المجلة .

وفى الوقت نفسه كتبت عددا من المسرحيات منها : عزيزه وعديلة و « ع الرصيف » التى تعد أشهر أعمالها والتى ثبتت أقدامها كواحدة من اثنتين فقط شهدتهما ساحة الكتابة المسرحية فى مصر ، وكانت الأخرى فتحية العسال ، كما كتبت للسينما فيلم النساء وملف امرأة .

وتعد نهاد جاد واحدة من الكاتبات التى أرقتها قضايا المرأة وتحريرها ، وهى أيضا واحدة من أفضل من ساهمن فى أدب

الرحلات مستخدمة البعد الانسانى ٠ وربما كان أهم ما تميزت به كتاباتها هو احساسها الشديد بالآخرين وبآلامهم وآمالهم ، وكانت تمتلك اسلوبا وصفيا جميلا ، وقدرة على اشراك القارىء معها فيما تكتب وتحكى ٠

فحين كتبت عن زيارتها الى مدينة نيويورك بعنوان « أنا قادمة يانيويورك » قالت :

« انتهت زيارتى لمدينة الحكم والحكام العاصمة واشنطون ٠ وكان الموقع الثانى على خريطة برنامج الزيارة هو نيويورك مدينة المثقفين والاقليات والجريمة ٠

« وكان من الضرورى أن أسير وراء العربة التى تحمل حقائبى فى مطار لاجوارديا المحلى فى نيويورك ٠٠ وأنا أسمع من بعيد وقع أقدامى عندما كنت أترك القطار فى آخر زيارة لى لمدينة نيويورك وأنا طالبة فى الستينيات عندما تركت مدينة الجامعة بلومنجتون انديانا فى أجازة الربيع واتجهت نحو نيويورك بمفردى بغية زيارة ثقافية ترويحية أشاهد فيها مباهج نيويورك ٠٠ من زيارة المسرح فى برودواى الى زيارة المتحف والمكتبات ٠٠

كان ذلك بين فصلين دراسيين ٠٠ فصل الربيع الذى ينتهى فى مايو وفصل الصيف الذى يبدأ فى أغسطس ٠

وبدولارات قليلة بدأت زيارة نيويورك وقبل أن أترك بلومنجتون ورحاب الجامعة استمعت لنصائح الأصدقاء والأساتذة عن الممنوعات ومن بينها ممنوع السير فى الشوارع المظلمة ٠ وممنوع أن أتكلم مع الغرباء ، وممنوع التنزه فى حديقة نيويورك وخاصة فى الطرقات غير المأهولة ٠٠ وممنوع ٠٠ وممنوع ٠٠

قائمة طويلة من الممنوعات ، وشعرت وأنا أركب القطار الى نيويورك انني مثل ذات الرداء الأحمر ، أحمل سلة الكعك واخترق الغابة لزيارة جدتي وقلبي يمتلأ بالخوف من مقابلة الذئب ..

- « ومثل « كل الصعايدة » الذين يزورون المدينة الكبيرة لأول مرة نزلت من القطار بعد رحلة طويلة استمرت ليلة كاملة لم يغمض لى فيها جفن ، لأنى كنت الراكبة الوحيدة في عربة القطار ، غير الراكب الآخر ويجلس في نهاية العربة وكان زنجيا مخمورا ومشاكسا » .

ويمكن القول ان نهاد جاد تمثل مرحلة مختلفة في كتابات المرأة ، فهي تتميز ببساطة الأسلوب وخفة الظل والقدرة على الوصف ، وهى تنتمى لجيل جديد وعصر جديد .

وعلى الرغم من أن نهاد جاد كانت تنتمى الى طبقة اجتماعية ميسورة فانها انشغلت بالقضايا الاجتماعية ، بل نجحت في التعبير عن الطبقات الشعبية ورصد التغييرات الاجتماعية بذكاء شديد ، والتنبيه الى الانهيار الذى يوشك أن يصيب قيم هذا المجتمع . ولعل مسرحيتها الشهيرة على الرصيف كانت خير مثال على ذلك ولعل هذا أيضا هو ما حقق لها نجاحا غير مسبوق في تاريخ المسرح ، ترتب عليه تأكيد تفرد نهاد جاد ككاتبة مسرحية .

ففى مشهد فى المسرحية يدور الحوار التالى :

القاضى : أيه أقوالك فى التهم الموجهة اليك ؟

كمال : معترف يا بيه بكل التهم دى ، وبأى تهم تانيه تحبوها ، أنا معترف بكله أنا اللى زورت الدولارات وبعتها فى

السوق السودة ·· وأنا اللى هربت المخدرات ووزعتها ··
وأنا اللى حرقت القاهرة ، وحرقت الأوبرا ، والضاهرية
وأنا اللى ولعت فى شـارع الهرم ·· وأنا المسئول عن
معاهدة ٣٦ وحرب ٥٦ وهزيمة ٦٧ والكيلو ١٠١ و ١٠٥
و ١٠٦ وأنا السبب فى الانغلاق والانفتاح والاشتراكية
والدكتاتورية والرأسمالية والطعمية والملوخيـة ·· أنا
السبب فى كل حاجه وفى أى حاجه وهات لى أى ورق
وأنا أمضى عليه أنا معترف يا بيه (ويكاد يبكى) » ·

هذا نموذج لكتابة نهاد جاد المسرحية التى لخصت بها هموم المواطن البسيط المقهور كأنموذج للشعب الذى مرت عليه أحداث ومحن كثيرة ثم تحمل هو مسئوليتها فى النهاية ! وهو ما يعكس ذكاء نادرا فى الكتابة المسرحية ·

ومن سخرية الأقدار انه حين بدأ نجم نهاد جاد يلمع كان صراعها مع المرض يشتد وكانت تقاومه بجلد · وقد حكى د· سمير سرحان ، الذى ظل يرافقها حتى لحظاتها الأخيرة ، انه فى الليلة الأولى لعرض مسرحية ع الرصيف أصرت على حضور هذا العرض ، ورغم ان المرض كان قد اشتد عليها بقسوته فانها حين صعدت لخشـبة المسرح لتحيى الجمهور كانت قد تماسـكت لتبـدو كما لو كانت فى أتم صحة ···

وفى ٣٠ يونيو عام ١٩٨٩ توقفت حياة نهاد جاد وتوقفت أعمالها ، ولكنها تركت انتاجا رائدا بالنسبة للمرآة فى الكتابة المسرحية خاصة ، وناجحا بالنسبة لتاريخ المسرح ·

وفى هذا الكتاب نقدم للقـارىء بعض كتابـاتها فى مجال الرحلات ···

١ ـ تعددت الأسباب والغضب واحد !

طائرة ايرانديا الرحلة رقم ١٨٢ تحمل على متنها ٣٠٩ ركاب بينهم رجال ونساء وأطفال قادمة من تورنتو كنــدا ومتجهــة الى بومباى ، الركاب عائدون من أجازة فى الخارج الى الوطن • تختفى الطائرة فجأة من شاشة رادار مطار ايرلندا فى يــوم ٢٣ يونيه عام ١٩٨٥ ، فقد انفجرت فى الجو وقتل ركابها ، وأعلن السيخ مسئوليتهم عن تفجير الطائرة

وفى يونيو عام ١٩٨٦ شهدت نيودلهى أسوأ أعمال العنف فى مدى عامين عندما أطلق النار بعض الرجال المسلحين على حفــل عيد ميلاد امتلأ بالأطفال كما أطلقوا النــار على المارة فقتــل ١٢ وجرح عشرون • وبعد ذلك بثلاثة أسابيع أطلق النار على ٧٢ راكبا فى أتوبيس وكلهم من الهندوس وقتلوا جميعا •

وهذه الحوادث ارتكبها جماعة من رجــال السيخ المتطرفين وهؤلاء فيما يفعلونه فى السنوات الأخيرة من عمليات قتل وارهاب يقدمون أسوأ مثلا على اختلاط أوراق الدين بالســياسة ، وعلى استخدام اســم الله فى تخريب الكون • الذى خلقــه الله فى أحسن ترتيب •

وقد شهد العالم في العشرين سنة الأخيرة جماعات الغضب الدينية ، وكلهم من الشباب • في سن القلق والتحدى ، ومن السهل على أصحاب النوايا السيئة والأهداف السياسية والأطماع الدنيويه ان يخدعوهم بالمزايدات الدينية ، وفى هذه السن الصغيرة هم أقدر على التدريب للقتال وأعمال العنف •

وأقدر أيضا على تصديق وعود الكبار بالجنـــة أو بالسلطه ومما لاشك فيه أن غضب هؤلاء الشباب ينبع من احساسهم بالظلم الحقيقى والاضطهـــاد فى مجتمع لا يعطيهم حقوقهـــم أو لا يوليهم الاهتمام الكافى بهم وبمشاكلهم • أو أن يكون هذا المجتمع يعانى من سيادة حكم ديكتاتورى ظالم أو أن يكون هناك خلل اقتصادى واضح• وفى العالم الثالث حيث تختلط المفاهيم وتسود الديكتاتورية والخلل الاقتصـادى دائمـــا ويختفى الحوار الديمقراطى فى العائلة وعلى مستوى الدولة ، يزداد شـــعور الغضب عند الشباب وتبدأ دائرة من الخوف والتحدى والعنف تصل الى حد التطرف •

ولذلك فان حركات التطرف الدينى ظهرت بين أرجـاء العالم الثالث وبدأ العالم يشهد أحداثا وحشية وعمليات تخريب وقرصنة جوية وبرية ترويع اعلامى للارهاب وكل هذه الأعمـــال ترتكب باسم الدين وباسم الله •

ودائما وأبدا فى كل هذه الأعمال الاجراميـــة يكون الضحايا أبرياء لا شأن لهم بالقتال ولا شأن لهم بالقضية التى من أجلهـــا ارتكبت الأعمال الارهابية واختفت الطمأنينة من القلوب، وبدأ الخوف يتصاعد فى النفوس •

والعلاقة بين الدين والعنف علاقة ليست بجديدة ، فقد امتلأ التاريخ بأحداث العنف التى ارتكبت باسم الدين كما امتلأ بمحاكم

التفتيش الظالمة ، وثبت أن الحركات الدينية المتطرفة تظهر دائما في الدول الضعيفة أو عندما تصبح الأحوال الاقتصادية متردية .

وقد ظهرت الجماعات الدينية المتطرفة وازدهرت منذ مئات السنين في الاسلام واليهودية والمسيحية والهندوسية .

ويختلف التطرف الديني في العـــالم الحديث عنه في العالم القديم اذ أنه في الزمن الماضي كانت الجماعات الدينية تقتصر وتهتم بالقضايا الاقليمية أما الآن فامتدت اهتمامات الجماعات الدينية الى القضايا خارج الحدود .

ومن الدراسات التي قام بها أساتذة متخصصون عن التطرف أثبتوا أن التطرف يظهر دائما بين الأقليات سواء أكانت قبائل في دولة أو طائفة دينية ، لأن الأقليات هم أكثر الشرائح التي تتعرض لتهديد تواجدها وكيانها . وطائفة السيخ مثلا تمثل ٢٪ من مجموع تعداد الهند الذي يبلغ ٨٠٠ مليون نسمة .

وعقيدة السيخ تؤمن بالوحدانية ، وهي طائفـــة انشقت عن الهندوسية ، وظهرت في القـــرن الســـادس عشر ، ولازال السيخ يخافون من العقيدة الهندوسية أن تبتلعهم ويذوبوا فيها مرة أخرى وهي العقيدة المسيطرة والكيان الأكبر في الهند . ولذلك فهم ـ أي السيخ ـ في حالة تأهب مستمر ودائم ويدافعون عن أنفسهم ووجودهم بضراوة .

وقد قامت جماعات السيخ الموجودة في أمريكا وبريطانيـــا وألمانيا الغربية وكندا بمظاهرات عنيفة قادها زعماؤهم المتطرفون احتجاجا على زيارة راجيف غاندي للولايات المتحـــدة عـــام ١٩٨٥ وحاولوا اغتياله أثناء الزيارة .

والشعور عند جماعات الأقلية الدينية بأنهم مهددون بالانقراض أو بالذوبان فى الكيان الأكبر الدينى يوجـــد عنـــد كثير من هذه الأقليات الدينية فى العالم بجانب السيخ ، ففي لبنان نجـــد أن المارونية تطاردها نفس المخاوف وتقف مدافعـــة عن نفسها بنفس الضراوة فى حالة اســتعداد وتأهب للتجنيد والتعبئة طوال الوقت دون الاهتمام بما يحدث للكيـــان الأكبر فى الدولة • وقد يسبب موقف الطائفة المارونية أو غيرها حربا أهلية كما حدث فى لبنان حيث تدخل الحرب الأهلية عامها الثالث عشر ، ولكن تهتم طوائف الأقلية بكيانها أكثر من اهتمامها بمصلحة الوطن •

وبالنسبة لطائفة الشيعة فيجتاحهم نفس الشعور بالاضطهاد ، وان كان هذا الشعور عنـــد الشيعة عمره ١٣ قرنـا من الزمان ، فالشيعة وإن كانت تمثل الأغلبية فى ايران الا أنها تمثل ٢٪ فقط من مسلمى العالم ، ولذلك فالشيعة أيضا أقلية غاضبة •

والكارثة أنه عندما يزداد شعور الغضب والعنف فى داخل طائفة ، فان هذا الشعور ينتقل الى الطوائف الأخرى كردود فعل ، وبالتالى يتصاعد الغضب فى كل الأرجاء ، وتنشأ دائرة من العنف من الصعب اختراقها •

فالغضب يزداد عند طائفة السيخ فى الهند وانتقل الغضب الى مسلمى الهند وأدى هذا الى تصاعد التوتر عند الهندوس ، وظهر هذا التوتر عندما تقدمت مئات الألوف من الجموع الهندوسية فى مسيرة تخترق الهند فى عام ١٩٨٣ مطالبة بانقاذ العقيدة الهندوسية من اعتداء الطوائف الأخرى •

وقد أدى العنف المتصاعد بين صفوف السيخ أن أخطر الجيش الهندى أن يهاجم المعبد الذهبى وهو أهم وأكبر معابد السيخ فى

الهند ، وأسفر هذا الهجوم عن قتل ألف شـــخص داخـــل المعبد وخارجه . وبعد هذه الحادثة أغتيلت أنديرا غاندى رئيسه وزراء الهند ، عندما أطلق عليها الرصاص حارســها ، وكان من السيخ المتطرفين ، واستمرار لدائرة العنف والغضب ، وكنتيجة لاغتيال أنديرا غاندى حدثت مذبحة السيخ الذى قتل فيها ٢٥٠٠ منهم .

وفى مايو ١٩٨٧ حـــل راجيف غاندى حكومة السيخ المعتدلة ولكن ازدادت حوادث الاغتيال والعنف بين صفوف السيخ وتصاعد الغضب فى كل مكان فى الهند ودفع الثمن الفقراء الذين يحلمون بلقمة العيش الهادئة .

●●

وظهرت القلاقل بين الأقليات الأخرى فى كل مكان فى العالم الثالث ، سواء أكانت الأقليات المسيحية أو المسلمة فى أنحاء آسيا وأفريقيا ، كما حدث فى السودان ونيجيريا .

وتبدأ مطالب الطوائف الدينية بأن تكون اقتصادية أو سياسية أو طائفية وتنتهى بأن تصبح دينية وصعبة الحل .

وقصة بداية الغضب الدينى والتطرف قد تكون متشابهة فى كل مكان فى العالم الثالث .

ففى الهند بدأت قضية طائفـــة السيخ فى الستينيات عندما شجعتهم رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندى حينذاك ، وتجاوبت معهم مسز غاندى عندما طالبوا بولاية البنجاب والاستقلال بها لأن أنديرا غاندى كانت فى ذلك الوقت على خلاف مع حزب الأغلبية فى البرلمان الهندى وكانت تأمل أن تعتمد على طائفة السيخ كحلفاء لها فى هذا

الخلاف السياسي .. ولكن فشلت أنديرا غاندي ومن بعدها ابنها راجيف في السيطرة على طائفة السيخ وفي تحويلهم الى أدوات طيعة تستخدمهم أينما شاءت ودفعت حياتها ثمنا لذلك .

وبعد حقبتين من الصراعات السياسية أعلن مجلس من زعماء السيخ المتطرفين أن البنجاب ولاية مستقلة تحت اسم خاليستان وتعنى « أرض النقاء » كما أعلن أيضا الحرب المقدسة على الحكومة ، وهؤلاء جماعة تسمى نفسها جماعة تحرير خاليستان ، وهم من المتشددين في طائفة السيخ أي أنهم أقلية أكثر غضبا في داخل أقلية غاضبة .

وقد أكد كثيرون من زعماء الهند أن ما يحدث الآن في طائفة السيخ التي بدأت كجماعة دينية تبحث عن استقرارها الديني تحولت الى جماعة ثورية متطرفة تهدف الى مطامع سياسية قد تمزق البلاد وتهدد استقلالها وتحول النسيج الواهي الذي يربط بين مختلف طوائف الهند الى شراذم غاضبة لا يقف بينها وبين حرب أهلية حائل . وهكذا تنتهي الديمقراطية والاستقلال ، وقد تكون النتيجة عودة الاستعمار الى هذه المناطق بهدف حماية البلاد .

وبالرغم من تطرف طائفة السيخ واستخدامها العنف والارهاب وسفك الدماء في كل أعمالها الا أنها عقيدة مثل بقية الأديان تمضي على عدم استعمال العنف وتحرم القتل . وبالرغم من تقاليدها الدينية فان حركة السيخ مثل جميع الحركات الدينية المتطرفة التي اختلطت فيها أوراق الدين بالسياسة ولم تعد تتبين أين يبدأ الدين وأين تنتهي السياسية فانها تدعو الى العنف والقتل كوسيلة لتحقيق أهدافها وما تقوم به هذه الحركة من أعمال متطرفة تجد لها تبريرا في أنها تبحث عن حقيقة كبرى وهي الوصول الى الله وليس لأنها

تعتمد العنف لكي تكسب من وراء ذلك بعض المكاسب الاجتماعيه أو السياسية .

ان هذه الجماعات المتطرفة عندما تدعو الشباب الى الايمان بها والى الانضمام اليها فانها تدعي أنها تناضل من أجل اصلاح المجتمع من منظور اصلاح الكون ذاته أو بالأحرى حل مشكلة الصراع بين الحق والباطل أو بين النظام والفوضى في محاوله لاحلال الحق محل الباطل والنظام محل الفوضى ، وفي سبيل ذلك فانهم يسلكون العنف في الوصول الى حل هذه المشكلة ، وينسون أن الدولة اذا اختلط فيها الدين بالسياسة فان التعصب سيكون هو السيف المسلط على رقاب المواطنين وسوف يسود الحكم الدينى الخالص وبالتالى سيصبح الرأى المخالف للكهنة هو خارج على الدين ويعيش الانسان فى رعب أن يصبح كافرا يوما بعد يوم اذا نطق قول يراه الآخرون كفرا . وقد ثبت أن الاطار المدنى للحكم هو الاطار الوحيد الحضارى الذى يسمح بتعدد الآراء .. وبالتالى بالديمقراطية والحرية التى يمكن من خلالهما أن يبدع الانسان وينتج وتتقدم حضارة البشر .

وهذا النمط من العنف الدينى الذى يتبعه السيخ يشبه الى حد كبير أسلوب العنف عند اتباع المذهب الكاثوليكى الرومانى فى أيرلندا أو مذهب الشيعة فى الدين الاسلامى أو المتطرفين المسيحيين فى الولايات المتحدة .

والواقع أن حركات التطرف الدينى فى كل الأديان مسيحية كانت او مسلمة أو يهودية أو بوذية تبرر مسلك العنف لنفسها بانه طريق للوصول للحقيقة الكبرى وهى الله . والواقع أن التوفيق بين أهداف معظم هذه الجماعات أصبح يبدو مستحيلا .. فاذا أخذنا مثلا جماعة طائفة السيخ وخاصة المتشددين منهم وجدنا أن

محاولتهم للوصول الى الاصلاح الاجتماعى لا تنفصل فى أذهانهم عن فكرة النظام والفوضى على المستوى الكونى ، والمسألة بالنسبة لهم أنهم لا يريدون اصلاح هذا العالم الدنيوى فقط وانما يقنعون أتباعهم أنهم يضمنون لهم العالم الآخر أيضا ويمنونهم بالجنة ومن خالفهم سيكون مصيرهم جهنم وبئس المصير .

والنموذج الغاضب الذى يطرحه السيخ يبين لنا أن العنف المرتكب باسم الدين وباسم الله هو أكثر قسوة من أية صراعات أخرى يمكن أن تنشأ فى المجتمع ، فهم يتسلطون على الرقاب سواء الاتباع أو الأعداء بسيف التكفير وأن المسألة تتعلق بدخول الجنة أو عذاب النار ، وهذا كله عودة الى العصور الوسطى قبل عصر التنوير والى محاكم التفتيش عندما كان الكهنة هم وحدهم الحاكمين بأمر الله .

والخطورة فى هذا الأمر أن العقيدة الدينية هى شىء متأصل وأساسى فى حياة الانسان ، خاصة انسان العالم الثالث الذى يقاسى من الأزمات والويلات ، ولا يمكن لأية أفكار دنيوية أو معاصرة أن تؤثر على هذا الشعور الكامن فى نفس انسان العالم الثالث الذى يحتاج الى الدين ليخفف من شعوره بالقلق وبالاضطهاد فى مجتمع متخلف .

وبالتالى فان أية متاجرة بالدين تصبح أقوى بكثير من أية دعاوى اصلاحية سواء على المستوى الاجتماعى أو السياسى .

وفى عالم السياسة فى العالم الثالث يبحر المسئولون فى محيطات بلا شواطىء ، بلا ميناء يرسون فيها ولا أعماق مرئية ، ولا توجد نقطة بداية عند الابحار ولا محطة للوصول ، والرحلة تتلخص فى أن تظل سفينة الدولة عائمة بدون أن تغرق . تتحكم

فى سفينة السياسة فى العالم الثالث رياح أتية من الغرب والشرق ٠

ويستخدم رجال السياسة أحيانا فى سبيل أن تظل السفينة عائمة أدوات خطيرة مثل الحركات الدينية أو الأقليات أو غير هذا من الأسلحة يستخدمون هذا أو ذاك فى تحقيق أهداف سياسية مثل الدعاية لموقف سياسى أو قضية معينة ، أو ايقاظ حواس المجتمع الدولى لحل مشكلة ما ٠

وقد استخدمت أنديرا غاندى طائفة السيخ يوما ، فكبر المارد وخرج من القمقم وقتلها السيخ ٠ وحدث هذا أكثر من مرة فى تاريخ الدول ٠

ان الدولة يجب أن تكون حريصة فى تعاملها مع التطرف وأن تكون حاسمة فى هذا التعامل ٠ ان ضعف الدولة مناخ يستيقظ فيه مارد التطرف ويفرض شروطه ويبتز الدولة والمواطنين ولا يمكن التخلص منه بعد ذلك كما حدث فى ايران والهند ٠

ان العالم يتجه نحو مستقبل ملىء بالتوقعات ، ازدحم القرن الواحد والعشرون بالمشاكل والكوارث من الحروب الصغيرة وعمليات الارهاب والضغوط الاقتصادية ٠ فقراء العالم يعانون أكثر من أى وقت مضى منذ بدأت الحياة على الأرض وهناك من يقول : ان الأسوأ مختزن فى المستقبل يقبع فى أحد أركان الحاضر ٠ وهناك من يقول : ان فى الوقت متسعا للحلول والحيلولة دون الكوارث القادمة ٠

والغريب فى الأمر أن الأرض وما عليها لأول مرة فى تاريخها تجابه مشاكل موحدة فى كل أرجائها ٠

والمشكلة الكبرى هى الانسان وماذا سيفعل بالكون ٠

٢ ــ الهند تجلس فوق قنبلة موقوتة

العالم يجلس فوق بركان ، ما قبل درجــة الغليان ، لم يعد مفهوما متى سينفجر البركان ويحرق الكون ، الأســباب تعددت عما كانت عليه ، كانت التوقعات فى السياسة العالمية تدور حــول الصراع بين الدول الكبرى ، المعسكر الغــربى والمعسكر الشرقى والقضية بينهما مناطق النفوذ فى العالم الثالث الغلبان ، وكان هناك أيضا يوم ثورات التحرير الوطنية ضــد الاســتعمار والنفــوذ الأجنبى .

ولكن الآن ظهرت صراعات أخرى مختلفــة عن السابقــة وهى الصراعات الطائفية الدينية الأيديولوجية بين أرجاء الوطن الواحد .

فى أوروبا مثلا وخاصة فى فرنسا وألمانيا وايطاليــا ظهرت تيارات أقصى اليمين تردد فيها صيحات عودة النازية والفاشية وقد تناسوا ويلات هذه الفترات قبل الحرب العالمية الثانية ، وفى بلاد العالم الثالث الذى يعانى من قهر فى الخارج وفى الداخل ظهرت الطائفية فى أمريكا الجنوبية وآسيا والمنطقة العربية تنادى بالجهاد كسلوك وأسلوب فى الحياة ضد المجتمع القائم .

واذا أخذنا ما حدث وما يحدث في شبه القارة الهندية كمثل قائم وواضح على تفشى الطائفية بين أبناء الوطن الواحد مما أدى الى تقسيم المجتمع والى حركات الارهاب والغضب الذى يهدد السلام والاستقرار الوطنى • نرى أن الطائفية بدأت بالمواجهة بين الاسلام والهندوسية ، الاسلام كحركة سياسية وحضارية في شمال الهند وبين الهندوسية وهى الديانة الرسمية فى الهند وأيضا الثقافة الوطنية السائدة بين أرجاء شبه القارة الهندية •

وقد لعب الاستعمار البريطانى دورا فى هذا الشأن كما يحدث دائما بين الدول الكبرى والدول الصغرى ، بعد استقلال الهند مباشرة فى عام ١٩٤٧ وشعور التاج البريطانى أنه فقد أغلى جوهرة عنده قامت بريطانيا بتحريك الطائفية بين المسلمين والهندوس مما أدى الى حرب أهلية انتهت الى تقسيم الهند الى الهند وباكستان ، ولعبت الحكومة الهندية نفس لعبة المستعمر بعد ذلك عندما أثارت الشعور الشعوبى مرة أخرى فى الباكستان ، وانقسمت الباكستان الى باكستان وبنجلاديش على أساس اختلاف الأجناس واللغة عام ١٩٧١ ، وقد امتدت هذه الظاهرة الآن الى سريلانكا ، أما الآن فالهند مهددة بانقسام آخر لا قبل لنا به وهو الانقسام المنتظر بين دولة السيخ ودولة الهندوس •

والتعمق فى مشكلة السيخ فى الهند يعطينا مثلا واضحا لدراسة الغضب بين الأقليات الدينية فى العالم الثالث الذى يتشابه دائما فى ظروفه الاقتصادية والاجتماعية وفى انكساره عند مواجهة تحديات العصر • فان التطرف الدينى فى مجتمعات العالم الثالث يكاد يكون أسبابه واحدة • وأهدافه أيضا واحدة سواء كتبنا عن التطرف الدينى فى آسيا أو آمريكا الجنوبية أو المنطقة العربية •

وعندما نتكلم عن السيخ كطائفة دينيـة غاضبة أمام الحكومه المركزية في الهند التي تدين بالهندوسية ، نجد أن الغريب في الامر أن السيخية لا تختلف كثيرا عن الهندوسية بل هي طائفة منبثقة من الهندوسية وتتشابه في كل الطقوس تقريبا ما عدا شكليات أضيفت على مر القرون ٠

وقد ظهرت عقيدة السيخ منذ خمسمائة سنة ، وان كانت في القرن التاسع عشر بدأت تذوب مرة أخرى في العقيدة الأم وهي الهندوسية ، ولكن حال دون ذلك الذوبان الاستعمار البريطاني في الهند الذي بدأ في اعطاء الامتيازات لطائفة السيخ وتشجيعهم على اقامة شعائرهم وبناء معابد خاصـــة بهم ، كمـا أعطتهم الحكومة البريطانية مقاعد في لجان تشريع القوانين الهندية ٠

وهكذا يلعب الاستعمار وقواه الخفية على الاختلافات القومية أو الطائفية في العالم الثالث على طريقة فرق تسد ٠

وفي بعض المراحل كان السيخ يتحدون مع الهندوس عندما كان هذا التحالف يفيد في محاربة الاسلام في الهند ، وقد زاد هذا التحالف بين السيخ والهندوس مباشرة قبل قيام دولة باكستان اذ اشترك السيخ مع الهندوس في الحرب الأهلية بين هؤلاء وبين مسلمي الهند ٠ ولكن بعد أن استقلت باكستان وأصبحت حقيقة قائمة ٠ بدأت القلاقل بين طائفة السـيخ وبين الهندوس ، وبدأ السيخ يطالبون بولاية مستقلة للمحافظة على كيانهم واذداد شعور الاضطهاد عند السيخ ، وبدأ السيخ يطالبـــون بـولاية مستقلة للمحافظة على كيانهم وازداد شـــعور الاضطهاد عند السيخ ، وبدأ الهندوس يتنكرون لهم ، والاختلاف بين السيخ والهندوس شكلي بحت ، فالسيخ يستخدمون خمسة مظاهر في الشكل والملبس ، هي الشعور الطويلة وتسمى (كش) وأسورة معدنية (كارا)

ومشط (كنفا) وسيف قصير (كيربان) ولقب يسمى به الرجال وهو سنغ بمعنى أسد ولقب المرأة هو (كور) بمعنى أميرة ويؤكد كل هذه الاختلافات الشكلية بين الهندوس والسيخ الكهنة وهم الجورو . والأقلية المتطرفة بين السيخ وهم طائفة الخالسا ومعناها المتطهرون . ويعتقد الهندوس أن كل هذه التقاليد والطقوس السيخية لا داعي لها وخاصة أن السيخية فيما عدا ذلك تقريبا هي الهندوسية .

ويعتقد جماعة من الهندوس المتطرفين ان السيخ ما هي الا جماعة من الهندوس الذين ضلوا عن الدين الصحيح وأن من الواجب اعادتهم الى الدين الأصلي بعد تطهيرهم وقص شعورهم . ما عدا الأقلية المتطرفة بين السيخ وهم الخالسا ، فنجد أن بقية السيخ لا يتمسكون بالمظاهر الخمسة وهم قريبون جدا من الهندوس وكانوا يوما يتزوجون فيما بينهم ويتزاورون . ولكن بدأت الهوة تتسع بينهم وبين الهندوس أخيرا .

وقد بدأت الاختلافات والخلافات تتأكد عندما طالب حزب « الأكالى دالى » وهو حزب سياسى معارض موجود فى ولاية البنجاب بمنح ولايتهم البنجاب وضع سائر ولايات الاتحاد الهندى ، وبنجاب ولاية من أربع وعشرين ولاية هندية وتقع فى شمال غرب الهند على حدود باكستان . وقد تكونت بنجاب عام ١٩٦٦ على أساس حدة اللغة البنجابية وتتكون الولاية من أديان مختلفة من سيخ وهندوس وغيرهما ، ويمثل حزب « الأكالى دالى » طائفة السيخ من الناحية السياسية والدينية ويسيطر على معابدهم كما يسيطر وهو الأهم على الموارد المالية الهائلة لهذه المعابد . ولهذا لعب حزب « الأكالى دالى » دورا هاما فى البنجاب .

ففى عام ١٩٨١ تقدم حزب « الأكالى دالى » بعدة مطالب الى حكومة « أنديرا غاندى » وكانت المطالب الرئيسية اطلاق سراح

زعيم من زعماء السيخ اتهم فى جريمة قتل ، وأيضا اعتبار مدينة أمريتسار مدينة مقدسة وهى المدينة الموجودة فيها المعبد الذهبى أكبر معابد السيخ ، بالاضافة الى انشاء محطة اذاعة فى المعبد تذيع الصلاة والأغانى السيخية · كما طالبوا بحرية حمل السيف القصير وهو من شعائر السيخ أثناء انتقال أبناء الطائفة فى خطوط الطيران الداخلية وأن تعطيهم رئيسة الوزراء حق الاشراف على معابد السيخ فى سائر أرجاء الهند وليس فى البنجاب وحدها · وأهم من كل هذا طالبوا بانشاء بنك خاص بهم يضمن لهم الاستقلال المادى عن الدولة ، كما أن هناك كثيرا من المطالب الأخرى التى تتعلق بالمحاصيل الزراعية وتحديد كمية مياه الرى وتنمية اللغة البنجابية ، وأيضا تحديد العلاقة بين ولاية البنجاب وولايات الهند الأخرى ·

وقد أجيب حزب « الأكالى دالى » لمطالبه وحصل على اذن بانشاء ولاية البنجاب أو خاليستان أرض الطهر ، ولكن المطالب لم تتوقف واستمر الحزب فى تقديم مطالب أخرى ·

وشعرت حكومة « أنديرا غاندى » أن المشكلة أبعد من مجرد المحافظة على القيم الدينية وعلى كيان طائفة السيخ ، ولكن الهدف أصبح سياسيا هو انشاء دولة فى داخل دولة وأن تكون لهذه الدولة وهى دولة للسيخ حرية الحركة والنمو ·

وحاولت حكومة الهند المركزية أن تبدأ مفاوضات بينها وبين حزب « الأكالى دالى » بعد أن وافقت على معظم مطالبه ، ولكن فوجئت الحكومة أن الوصول الى أى اتفاق بينها وبين الحزب من المستحيلات ، واكتشفت الحكومة أنها خدعت وكنتيجة لهذه المفاوضات الفاشلة ، أعلن حزب « الأكالى دالى » التعبئة العامة ضد الحكومة ·

وقد وافق ازدهار النشاط فى حزب « الأكالى دالى » ظهور حركة دينية سلفية بزعامة احدى قيادات السيخ هو « جارنيل سينغ بيندرانوال » تحالف الحزب السياسى مع الحركة الدينية واتفقا على أن يناضلا معا من أجل أهداف واحدة وهى مصالح السيخ ، وحصلت الحركة الدينية على تدعيم الحزب السياسى كما حصل الحزب على الشعبية من الحركة الدينية وبعد هذا التحالف السياسى الدينى بدأت سلسلة من القلاقل بين طائفة السيخ وأخذت شكلا عنيفا لم يسبق له مثيل ، فارتكبت حوادث ارهابية متتالية .

واضطرت حكومة الهند المركزية تجاه هذا الارهاب ان ترسل جيشا الى البنجاب بحجة مساعدة الحكومة المدنية هناك على السيطرة على الارهابيين واعادة الاستقرار الى الولاية .

وقد سميت عملية ارسال الجيش الهندى الى البنجاب باسم سرى هو عملية « النجم الأزرق » وحدث اشتباك دموى بين قوات الجيش وطوائف السيخ الذين يحتمون بالمعابد وقتل فيها مئات من الجانبين واعتقل ألف من السيخ ومن بين القتلى كان الزعيم « بيندرانوال » ولم يتوقف العنف منذ عملية « النجم الأزرق » زاد غضب السيخ وبدأت سلسلة من الأحداث انتهت بمقتل رئيسة وزراء الهند « أنديرا غاندى » التى تصورت يوما أنها قادرة على السيطرة على المارد اذا خرج من القمقم ، وأنها اذا منحت السيخ بعض الامتيازات فقد كسبتهم فى صفها الى الأبد ولكنها دفعت حياتها ثمنا لهذا التصور الخاطىء .

وفى يوليو عام ١٩٨٥ حاول « راجيف غاندى » أن يوقف موجة الارهاب والعنف بأن يصل الى اتفاق مع زعيم حزب الأكالى

دالى » لونجوال » بأن يعطيه مزيدا من الامتيازات الجديدة لولاية البنجاب . ولكن قتل « لونجوال » نفســه على يد بعض الارهابيين بعد شهر من امضاء الاتفاقية باعتباره خائنا للقضية واستمرت عمليات القتل والارهاب بين الجانبين لم تتوقف حتى كتابة هذه السطور .

والشعور العام فى الهند الآن أن شعور الود بين الهندوس والسيخ الذى كان موجودا يوما ما انتهى تماما بلا عودة وأن عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين تهدد وحدة الهند الوطنية، وأما المستقبل فهو علامة استفهام كبيرة .

هناك فجوة بين الهندوس والســيخ تتسع مع الأيام فكل منهما يختلف مع الآخر فى كل شىء ، فالهندوس يعتبرون أن زعيم السيخ « بيندر انوال » الذى قتل فى عملية « النجم الأزرق » مجرم وشــيطان وقتله أرواح الهند من شر مســتطير ، ولكن الســيخ يعتقدون أن « بيندر انوال » شهيد وزعيم دينى عظيم . ويقال ان « أنديرا غاندى » كانت يوما وراء ظهور هذا الزعيم حتى حدثت اختلافات بينهما

ويعتقد الهندوس أن عملية « النجم الأزرق » ، عملية تأديبية كان من الواجب القيام بها لاثبــات هيبة الدولة ، ويعتقد السيخ أن عملية « النجم الأزرق » عملية اجراميــة وذنب لا يغتفر ضــد طائفتهم . كما يعتبر الهندوس أن اغتيال « أنديرا غاندى » عملية ارهابية قام بها السيخ فى لحظة جنون .

أما السيخ فيرون أن قتل « أنديرا غاندى » عقاب أنزلتــه الآلهة على مذنبه .. وقد احتفل الســيخ فى أنحاء العــالم بقتل « أنديرا » بالرقص فى الشوارع .

وكل هذه الاختلافات بين الهندوس والسيخ تزداد مع الايام وظهرت أيضا جماعات بين السيخ متشددة أكثر من غيرها وهى تحذو فى سياستها وفى تكوينها نمط الجماعات الدينية المتطرفة فى اسرائيل وأيضا بعض الجماعات الكردية ٠

وبدأت فى الهند أخيرا ظاهرة الهجرة الداخلية ٠ فيترك السيخ كل الولايات ويتجهون الى ولاية البنجاب ، بينما يترك الهندوس ولاية البنجاب طلبا للأمان متجهين الى أية ولاية أخرى فى الهند ، وهذه الظاهرة أصبحت تهدد الوحدة الوطنية فى الهند وقد حاول حزب « الآكالى دالى » أن يوقف من حدة التوترات ومن موجة العنف والارهاب فى البنجاب ، ولكن اكتشف الحزب مؤخرا أنه لم يعد يسيطر على الموقف ، وأن جماعات الارهاب الدينية لم تعد تدين للحزب بالولاء ، فقد قويت شوكتها وهكذا بعد ان بدأت حركة السيخ على أنها حركة ديمقراطية تطالب بمساواة مع الأغلبية وتعارض ديكتاتورية الحكومة ، أصبحت حركة ارهابية تهدد الوطن الهندى بأكمله ٠

والبنجاب أغنى ولايات الهند ، فالمواطن فى البنجاب يملك أعلى ايراد بين مواطنى الهند ، والبنجاب تعتمد على الزراعة ، وفى السنوات الأخيرة استخدم الزراع فى البنجاب الآلات الحديثة وتكنولوجيا الزراعة والبذور المهجنة التى تدر محاصيل أكثر ٠

والمعروف أن السيخ من أغنى الطوائف الهندية وهناك بالذات أقلية بين السيخ هم « الجات » أغنى من غيرهم وأكثر تشددا ٠

والحقيقة الاقتصادية الأخرى لطائفة السيخ هى أنهم هاجروا الى أمريكا وكندا وبريطانيا وكونوا ثروات هناك ويرسلون الأموال

الى داخل الهند للقيام بحركات ارهابية ، فهناك تمويل من الخارج لاثارة القلاقل للحكومة المركزية ·

وفي السبعينات عاشت الهند مشساكل اقتصادية نتيجة ازدياد البطالة وتفشي اليأس بين الشباب كنتيجة لعدم وجود فرص للعمل أمامهم وكانت النتيجة الحتمية انهيار في السلوك الاجتماعي وازداد عدد من يتعاطون المخدرات ويشربون الخمر ، وكانت في السبعينيات صيحة للجماعات الدينية تطالب بالعودة الى الطهارة وظهرت الحركات السلفية · وقد نادت عندئذ « أنديرا غاندى » بعودة قانون الطوارىء وايقاف الأحزاب والشكل الديمقراطي للحكومة الى حين ولكن عارضت كل أحزاب المعارضة هذه الاجراءات واضطرت « أنديرا غاندى » الى التسليم لهم وايقاف قانون الطوارىء وأقيمت انتخابات ١٩٧٧ وتحالف أحزاب المعارضة لمقاومة الحزب الحاكم وهو الكونجرس ، وكانت هذه هي السبعينيات في الهند ثم حدث ما حدث في الثمانينيات ثم وصل الحال بالهند الآن إلى ما هو عليه ·

ويمكننا أن نقول انه من خلال المؤسسات الديمقراطية التي تم ترسيخها مع حركة تحديث الهند سياسيا ومع تعميق تجربة الديمقراطية كان لابد من ظهور حركات المعارضة والتطرف وخاصة في قارة تجمع كل هذه المتناقضات التراثية واللغوية ·

ولكن نجد أنه بالرغم من أن الطبقة الحاكمة اكتسبت خبرة طويلة في التعامل مع هذه الحركات فانهم لم يسلموا من تقديم الكثير من التنازلات حتى يوسعوا قواعدهم الانتخابية ، وكانت نتيجة هذه التنازلات أن زادت حدة المعارضة وزادت حركة العنف عند الأقليات ، وتمادت هذه الأقليات في مطالبها في مقابل تردد

الحكومة فى التصدى الحاسم لها ، مما وسع من دائرة العنف والتطرف والارهاب • وكان أمام الحكومة أن تختار بين الاستمرار فى التجربة الديمقراطية التى تؤكد عليها وعلى وحدة الهند تحت مظلتها ، وبين الاطاحة بالديمقراطية وحسم العنف والقضاء عليه بالعنف •

ولكن تقف حكومة الهند عاجزة أمام التطرف الدينى . والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل ما يحدث الآن فى الهند قريب الشبه بما يحدث بين أرجاء العالم الثالث الذى يقف هو أيضا على قنبلة موقوتة من غضب الأقليات وأحلام الشباب المجهضة والمجتمع الذى لا يقدم لهؤلاء الشباب الا فرصا محدودة للتقدم بسبب الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى يسببها الكساد الاقتصادى والتضخم • وفى نفس الوقت فان نسبة الزيادة الرهيبة فى السكان لم تقابل باجراءات كافية للتقليل منها أو لزيادة معدل الانتاج الذى يقابل زيادة الكثافة السكانية •

وهذه الظواهر زادت من حدة المنافسة فى المجتمع وزاد الاحساس بالعجز والحرمان • وفى مثل هذه البيئة يشعر بعض فئات المجتمع بأن التطرف هو الحل •

٣ ــ الصهيونية المسيحية فى أمريكا

منذ أن أنشئت دولة اسرائيل عنوة واغتصابا في عام ١٩٤٨ ، ومنذ هذه اللحظة لم تستقر الأمور أبدا فى المنطقة العربية • فقد وضعت أمريكا وبقية الدول الكبرى مسمار جحا فى ظهر الدول العربية الاسلامية ، وعاشت هذه الدول بعدها تداوى الجرح بلا فائدة • فقد فضلت أمريكا أن تحقق حلم الأقلية اليهودية وأن تساند قضيتهم بكل قوتها العظمى ولوت ذراع المنطق والتاريخ وحتى الدين حتى تعطى لاسرائيل الشرعية والاستقرار • وليذهب المعارضون لدولة **اسرائيل الى الجحيم** •

وعندما وجدت الدول الكبرى أن الوجود الاسرائيلى فى المنطقة لايزال نقطة زيت عائمة على سطح البحر العربى وأنه لا يمكن اذابة هذا الوجود الاسرائيلى فى الكيان العربى ، بسبب أن يهود أوروبا من مغتصبى الأرض هم جنس آخر وحضارة أخرى غرباء على المنطقة العربية ولا يمكن أن يحدث تعايش سلمى بين أولئك وهؤلاء ، فالدول العربية والاسلامية تجمعهم وحدة اللغة والتاريخ والمصير وجذورهم ضاربة فى الأرض العربية • وقد حاولت اسرائيل بواسطة تقدمها العلمى أن تجمع ما يسمى بالتراث الاسرائيلى وهو فى الحقيقة

شتات من تراث بلاد متعددة وتنسبه الى قوميتها اليهودية التى هى فى الحقيقة القوميات المتعددة الأوروبية التى تسمى بالدولة اليهودية .. ولم تنجح اسرائيل وظلت الغريبة فى المنطقة بكل ما هى عليه من تقدم أوروبى ٠

وبدأت القوى الكبرى تلعب لعبة أخرى لتعضيد الوجود الاسرائيلى فى المنطقة العربية ، وهذه اللعبة هى اثارة الشعور الطائفى فى كل ركن من أركان الدول العربية ، تحرك الدول الكبرى الوحوش النائمة فى القلوب ، تستيقظ هذه الوحوش تبحث عن الدم ، الأقليات تعلن عن غضبها واعتراضها على النظم القائمة سواء أكانت ديمقراطية أم ديكتاتورية أم قبائلية ، صوت الغضب فوق باقى الأصوات ، وكل طائفة تتكلم باسم الله ، فى ايران ولبنان وسوريا وفى كل مكان تعلن عن وجودها بغباء مغرور ، وتطالب بالفوضى والعدمية ؛ وكل هذه الطوائف لا تعلم أنها أدوات طيعة فى أيدى الكبار ، وكل هذا يحدث من أجل عيون اسرائيل حتى تصبح طائفة أخرى تتعايش مع بحر القلق الطائفى ، ولم لا فليتقبل العالم العربى الذى تسوده حروب الأقليات والطوائف الدينية حربا أخرى هى دولة اسرائيل ٠

والآن فى محاولة لتفسير الحالة الأمريكية تجاه قضية الكيان الاسرائيلى ، هل الدعم الأمريكى مجرد وجهة نظر سياسية ، أم هو أكثر من ذلك !

فى داخل الولايات المتحدة تحظى اسرائيل بدعم لا نهاية له ولا يذبل مع السنين ، وقد يحدث لهذا الدعم بعض التصدع فى مراحل سياسية مختلفة واجهت العلاقات الأمريكية الاسرائيلية ولكنها مجرد خلافات بين العائلة الواحدة ، فالقراءة العامة للأوراق

الأمريكية تؤكد أن الولايات المتحدة تقف بكل ثقلها السياسى القومى خلف دولة اليهود · وتقف الدول العربية أمام هذا الدعم الأمريكى للعدو الاسرائيلى مشـــدوهة وغاضـبة ومقهورة ، وأحيانا كثيرة بلا حول ولا قوة · ويرى العرب أن قضيتهم عادلة وواضحة ومع ذلك يستمر الدعم الأمريكى لا يتزحزح ·

واذا حاولنا تفسير أن هذا الدعم ينبع من جزء متأصل فى العقل الأمريكى ويعود الى تاريخ الشعب الأمريكى والأهم من كل هذا هو مثل آخر على اختلاط أوراق الدين بالسياسة فهناك طائفة بروتستانتية تؤمن بما يسمى بالصهيونية المسيحية وأن قدر الولايات المتحدة المكتوب فى السماء هو مساعدة اسرائيل وهذا الخلط بين الدين والسياسة فى دولة كبرى مثل الولايات المتحدة قد يؤدى بالعالم الى التهلكة ·

والهدف من تفسير السلوك الأمريكى أو الحالة الأمريكية تجاه اسرائيل هو أن يعلم العرب أن عليهم أن يجدوا حلا للقضية من داخل أنفسهم ، ولا ينتظروا حلولا تأتى من الخارج على طبق من فضة أو حتى من صفيح ·

وتتركز العقيدة الصهيونية المسيحية حول فكرة أن اقامة دولة يهودية فى فلسطين عام ١٩٤٨ هو تحقيق لنبوءة جاءت فى الانجيل أن هناك صلة بين قيام دولة اليهود وبين تتابع الأحداث التى تنبأ بها المسيح فى الانجيل وقد رسمها الله لمصير البشرية ··

وقد ظهرت فكرة الصهيونية المســيحية الى النور عن طريق بعض رؤساء الولايات المتحدة الذين ينتمون الى الكنيسة الانجيلية التى تؤمن بهذه المعتقدات وآخرهم الرئيس رونالد ريجان · وقد ظهر أيضا بجانب الرؤساء دعاة الكنيسة الانجيلية على التليفزيون

الأمريكى وفسروا أسباب دعمهم لدولة اسرائيل وسياساتها بأن هذا جزء من تعاليم الكنيسة الانجيلية وهى كنيسة تنتمى الى مذهب البروتستانت مع بعض الاختلافات فى تفسير آيات الانجيل ٠

ونجد أن التدعيم الأمريكى لاسرائيل بجانب كونه جزءا من معتقدات خاصة بالعقيدة البروتستانتية الانجيلية ، الا انه أيضا يتلاءم مع نشأة الحضارة الأمريكية عندما هاجرت الشعوب الأوروبية الى الأرض الجديدة وتكون الشعب الأمريكى فى بوتقة واحدة ٠

وقد تبدو هذه الأفكار الدينية التى تدفع الشعب الأمريكى الى تدعيم دولة اليهود ، وكأنها رؤى دينية متطرفة عن قوم ضلوا الطريق واستغلوا اجتهادهم ٠ فى تفسير آيات من الانجيل لكى يصلوا فى النهاية الى أهداف سياسية معينة ، ومع ذلك فان الوصول الى تفسير وجهة نظر الصهيونية المسيحية الأمريكية من الناحية التاريخية والقومية تفيد فى أن نفهم الحالة الأمريكية ٠

وقد قام أحد أساتذة العلوم السياسية فى جامعة ميتشجان باستفتاء بين أهالى المنطقة وكان السؤال الموجه منه الى المشتركين فى الاستفتاء « هل تعتقد بأن قيام دولة اسرائيل هو تحقيق لنبوءة جاءت فى الانجيل أم أن قيام دولة اسرائيل لا علاقة لها بتاتا بآيات الانجيل » ٠

وقد أجاب ٤٦٪ من هؤلاء بأنهم يعتقدون بأن اقامة دولة يهودية هو تحقيق لما جاء فى الانجيل ٠ ويرى أستاذ العلوم السياسية أن الصهيونية المسيحية موجودة فى الوعى الأمريكى وأنها تتلاءم مع الطبيعة المتزمتة المنتشرة فى طبقات اجتماعية أمريكية معينة وأيضا أن الصهيونية المسيحية فى أمريكا هى المسئولة عن التعاطف الأمريكى مع دولة اسرائيل ٠

ونعود الى الحقائق التاريخية عن الصهيونية كما بدأت فى عالم السياسة ، فالصهيونية تعنى أن اليهود ليسوا بجماعة دينية أو من الاقليات المنتشرة ولكنهم شعب له ذاتية قومية تشتتوا فى العالم ينتظرون اللحظة المناسبة للعودة الى وطنهم بعد غيبة ألفى عـــام .

وقد ظهرت الفكرة الصـــهيونية فى نهاية القرن الثامن عشر عندما شعر اليهود بأن كيانهم مهدد فى أوروبا الشرقية ، وتزايد الشعور العدائى ضد السامية فى أوروبا الغربية .

ولكن من غرائب الأمور أن الصهيونية المسـيحية ظهرت فى أمريكا قبل ذلك بحوالى ثلاثمائة سنة على يد الكنيسة الانجيلية التى طالبت باقامة دولة يهودية فى فلسطين وكان هذا قبل أن يدعو هرتزول الى أفكاره الصــهيونية فى عام ١٨٩٦ وترجع جـــذور الصهيونية المسـيحية مع ظهور حركة البروتســتانت فى القرن السادس عشر ، وكانت حركة دينية تتحدى الكاثوليكية وهذه تعنى الكنيسة الجامعة .

وظهرت البروتستانتية على يد مارتن لوثر الألمانى وكالفن وزوينجلى السويسرى .

والبروتستانتية تنقسم الى ٣٤ طائفة ، وتنادى البروتستانتية باحياء تراث التوراة أو العهد القديم الخاص باليهود بجانب الانجيل، ويهتم دعاة البروتستانت بالوصايا العشرة التى نزلت على النبى موسى وبأرض الميعاد كما يؤمنوا أن اليهود هم شعب الله المختار ، ومن هؤلاء دعاه الكنيســة الانجيلية وهى عقيدة تنادى بالعودة الى تطبيق الانجيل أى تتبع فى هذا الاتجاه ما يسمى بالسلفية .

وقبل ظهور الكنيسة الانجليلة كانت العقيدة المسيحية بشكل عام تؤمن بأن اليهود الموجودين الآن ليسوا ورثة الحضارة العبرية القديمة ، وانما مجرد قوميات مختلفة تؤمن بالعقيدة اليهودية وتنتمى الى حضارات مختلفة ٠

وان الوعد الذى اشير اليه فى التوراة قاله الله للنبى موسى عن عودة بنى اسرايل الى وظنهم كان يعنى عودة اليهود من بابل الى فلسطين وهؤلاء قد عادوا فعلا فى الزمن القديم ونفد الوعد ، أما كلمة اسرائيل فهى تعنى « شعب الله » والعودة الى الى اسرائيل تعنى العودة الى الله وهنا يعنى العودة الى الكنيسة ٠

واستمر هذا الاتجاه الدينى المسيحى عند اليهود آلاف السنين ثم تغير فجأة بواسطة السياسة واحتلال الغيبوبة محل الوعى ، ولكن حركة الاصلاح الدينى التى قامت فى القرن السادس عشر متحدية الكنيسة الكاثوليكية غيرت كل هذه المعتقدات ٠

وقد عاصرت حركة الاصـــلاح هذه ثورة اجتماعية مع ظهور الرأسمالية وترجمة الانجيل من اللاتينية الى اللغات المحلية الأوروبية وقد أكدت الحركة الدينية الجديدة على عنصر الاجتهاد الفردى فى تفسير الانجيل ، وأن الانجيل هو المصدر الوحيد للعقيدة وهذا هو الاتجاه السلفى الذى ساد ٠

ولكن فى أمريكا كانت العقيدة البروتستانتية ظهرت تختلف عن البروتستانتية الأوروبية مثل غيرها من الشيع المسيحيين تؤكد على مجىء المسيح وانه سيحكم ألف سنة ويتحول العالم الى فردوس أرض يتأخى فيها الذئب والجمل ٠ وتؤكد أيضا على سفر الرؤية وعلى التبشير باصلاح العالم وكل هذه العقائد الأوروبية كانت تنهج

منهج اصلاحى فتبشر باصلاح المجتمعات الموجودة فيها أما بالنسبة للصهيونية المسيحية الأمريكية فكانت تهدف الى تحرير الشعب اليهودى وبذلك فى رأيهم يصلون الى تحرير أنفسهم وتحرير العالم كله ، وهذه تعتبر الحالة الوحيدة فى العالم التى يعتقد فيها شعب أن مصيره يتعلق بتحرير شعب آخر ٠

واستقر هذا الاتجاه فى ضمير الشعب الأمريكى .

ونرى فى العقائد المسيحية الأوروبية أن اليهود ينظر اليهم على أنهم المذنبون المسئولون عن صلب المسيح ، وأن القدس يجب أن تحرر منهم وليس لهم ٠ وفى بعض العقائد يؤمنون أن القضاء على الجماعات اليهودية واجب من خلال اعتناقهم المسيحية ، وأن بهذا سيبدأ العالم من الاقتراب للألف سنة من الفردوس الأرض ٠ ولكن فى الصهيونية المسيحية فى أمريكا نجد أن اليهود يلعبون دورا هاما وأن انشاء دولة اليهود هو العهد الذى تكلم عنه موسى فى التوراة ، وأن جود هذه الدولة سيكون المرشد الذى يضىء للعالم الطريق نحو المصير وهو الفردوس الأرض ، والفكرة المهيمنة عند الصهيونية المسيحية أنه حتى تستقر دولة اليهـود فى أمان سيظل العالم يرتكب الأخطاء التى لا تنتهى ٠

ويعتقد الأمريكيون أن بدايتهم على أرض العالم الجديد تماثل شعب اليهود صاحب العهد الذى عاد الى أرض الميعاد بأمر الله ، وأن هناك تشابها آخر بين الأمريكيين واليهود وهو أن كلاهما يتكون من عدة أجناس قدمت من بلدان مختلفة ، وامتزجت معا فى وطن واحد ، وهذا يعنى انسجام بين الحلم الأمريكى وبين الحلم اليهودى، فالأمريكيون حققوا ذاتهم فى أمريكا العظمى واليهود يحققون ذاتهم فى اسرائيل الكبرى ٠

وفى احساسهم بالثقافة نجد أن الأمريكيين يتوحدون مع الثقافة العبرانية ، وأنه يوجد فى المجتمع الأمريكى اهتمام كبير بالمملكة العبرانية عادتها وتاريخها ، فيطلق الأمريكيون أسماء عبرية على أبنائهم وأيضا على مدنهم ، وتمتلأ اللغة الأمريكية بالصور العبرية .

وفى القرن الثالث عشر . أصبحت أمريكا أول دولة فى العالم تستقبل اليهود بدون قيد أو شرط .

وفى نهاية القرن التاسع عشر عندما بدأت هجرة اثنين ونصف مليون من اليهود من أوروبا الشرقية لجأ الى الولايات المتحدة مليونان منهم .

وفى عام ١٨٩٩ أعلن مجلس من الكهنة اليهود أن انفتاح أمريكا لليهود جعلت أمريكا فلسطين ومدينة واشنطون جبل صهيون المقدس .

وبدأت تتجمع فى سماء أوروبا فكرة أن يعاد انشاء دولة يهودية ، وفى عام ١٧٩٩ عندما غزا نابليون فلسطين ، دعا يهود العالم أن يلحقوا به وأن يعاد انشاء دولة يهودية . وبعد خمسين عاما من غزوات نابليون فى الشرق الأوسط ومع ازدياد النفوذ الأوروبى فى المنطقة بدأت القوى الغربية تتعاون مع الأقليات مثل الأرمن واليهود والمارون فى الدولة العثمانية حتى تزداد قوتهم من خلال هذه الأقليات .

وكانت هذه الأقليات مقهورة وتحلم بأن تصبح لها كيان مستقل ، ولذلك فكان من السهل أن تستخدم القوى الغربية هذا الشعور بالقلق عن الأقليات فى الصراعات بين القوى العالمية .

وفى نهـــاية الحرب العالمية الأولى اقترح الرئيس الأمريكى ويلســـون أن تعلن أمريكا حمايتها لأرمنيا ، وكانت أرمنيا منطقة مسيحية فى شرق تركيا ، وان كانت تمتد من الناحية الثقافية الى أعد من هذا فى داخل روسيا فى ذلك الحين ، ولكن رفض اقتراح ويلسون فى الكونجرس الأمريكى ٠

وعادت أمريكا الى التحالف مع الأقليات بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن فى هذه المرة مع اليهود ، وكانوا خلال السنوات السابقة قد قويت شوكتهم فى أمريكا ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية كان التعاطف مع اليهود بلغ ذروته بعد ما حدث لهم من قتل جماعى فى أفران هتلر ٠

والمنطق الدينى الذى تؤمن به الصهيونية المسيحية عن حكاية للسيد المسيح مع حواريه وهذه الحكاية تختلف قليلا فى كل من لوقا وماثيو ومارك وهى عن زيارة السيد المسيح على فخامة المعبد وجماله ، ولكن فى نهاية الزيارة يقول السيد المسيح : انه سيجىء اليوم الذى سينهار فيه هذا المعبد ولن يوجد حجر منه فوق حجر وتكلم السيد المسيح بعد ذلك تفسيرا لنبوءته عن المعبد فأشار الى تحرير القدس ونهاية زمن الأمم ممن ليسوا من بنى اسرائيل وعن عودة المسيح بعد ذلك وعن حكم المسيح للأرض لمدة ألف عام من الفردوس الأرض ٠

وتختلف الاجتهادات فى تفسير لكلمات المستيح من شخص الى آخر ، ومن طائفة لأخرى ٠ ولكن يقول ليندساى وهو أحد دعاة الكنيسة الانجيلية انه عندما يقرأ الانسان الانجيل بتوءدة سوف يفهم تتابع واضح للاحداث التى أشار اليها السـيد المسيح بعد زيارته لمعبد القدس ، فهناك علامات الساعة ، وتبدأ هذه العلامات

بأن تصبح اسرائيل أمة مرة أخرى فى أرض أجدادها ثم تحدث بعد ذلك بقية الأحداث وهى بالتتابع صرعات حول السيطرة على الشرق الأوسط ستنتهى بمعركة فى مجيدو وهى بلدة فى شمال اسرائيل وهذه المعركة هى أرماجيدون وهى الحرب التى ما بعدها حرب وهذه أشبه بحرب نووية ثم يأتى بعد ذلك المسيح وتبدأ الألف عام من الفردوس الأرض ٠

ويضيف ليندساى فى تفسير لما جاء فى الانجيل انه يتضمن حديث عن أربع حروب عالمية كل منها ستغزو اسرائيل دولا :

أولها روسيا ، ثم مصر ثم ايطاليا ثم الصين ثم يحدث فى روسيا حرب لمدة سبع سنوات تتحطم بعدها روسيا تماما ، ولكن بواسطة عناصر الطبيعة ، وعندئذ يحكم العالم المسيح الدجال ثم يعترف ١٤٤ ألف يهودى من الموجودين فى القدس بأن يسوع هو حقيقة المسيح ثم يجىء نبى مزيف يدعم المسيح الدجال ، ثم تحدث حرب دموية يتحطم فيها جيش الصين ٠

وأهم هذه القراءات هى شخصية المسيح الدجال الذى سيأتى فى أعقاب الفوضى والدمار ويمسك بزمام العالم ويتبعه الأتقياء وهم يتخيلون انه يمثل كل ما هو صادق وصائب وسيحكم المسيح الدجال من القدس وسينشأ نظام اقتصادى عالمى وبعد سبع سنوات سيأتى المسيح الحقيقى وسيقود جيشا بنفسه لهزيمة المسيح الدجال وسيقتل المسيح الدجال والنبى المزيف الذى يدعمه فى معركة ، أما الشيطان الذى كان يقف وراء المسيح الدجال فسوف يسجن ثم تبدأ ألف سنة من الفردوس الأرض تحت حكم السيد المسيح ٠

ويكتب فالويل وهو أحد دعاة الصهيونية المسيحية الذى يدعم يدعم اسرائيل بكل قواه فى كتابه « استمعى أمريكا » الصادر فى

فى عام ١٩٨٠ يشير فيه الى احدى آيات الانجيل التى تقول « سوف أبارك هؤلاء الذين يباركونكم ، وسوف ألعن هؤلاء الذين يلعنوكم »، ويقدم هذه الآية دليلا على أن واجب المسيحيين أن يباركوا اسرائيل وأن يدعموا اليهود ويقول فالويل ان فى اعتقاده أن الله قد بارك أمريكا لأن أمريكا قد باركت اسرائيل ، ويقول فالويل أيضا تحت عنوان هذه « المعجزة التى تدعى اسرائيل » يقول فيه ان الانجيل قد تنبأ بوضوح أن الشعب اليهودى بعد ٢٥٠٠ سنة من التشتت فى الأرض سوف يعود لأرض اسرائيل ويقيمون دولة اليهود مرة أخـــرى ٠

ويقول أيضا فى نفس المكان ان منظمة التحرير الفلسطينية ما هى الا جمـــاعة من القتلة الذين سيلجأون الى ابتزاز الولايات المتحدة حتى تتراجع عن مساندتها لاسرائيل ، وانه اذا تراجعت الولايات المتحدة عن موقفها فى دعم إسرائيل سوف تفقد مركزها كقوى عظمى وتصبح فى كتب التاريخ دولة كانت يوما عظيمة مثلها فى ذلك مثل روما القديمة التى فقدت سطوتها ٠

ويقول فالويل فى رد على سؤال اذا كان من الممكن أن تقوم علاقات بين الولايات المتحدة والدول العربية الاسلامية فقال ان هذا ليس من الممكن لأن هذه الدول توافق على القيم الشمولية ٠ وتنكر عليها طريقتها فى الحياة والسلوكيات ، وهى دول غريبة عنا وعن تقاليدنا المسيحية اليهودية ٠

وفى مكان آخر من كتابه يعلن فالويل أن سفر التكوين يحتوى صراحة على المقولة « لقد أهديت لكم هذه الأرض ولأحفادكم من وادى مصر الى النهر العظيم ، وهو نهر الفرات » ٠

وهذه الحدود من النيل الى الفرات تتضمن معظم الأردن وسوريا والعراق ومصر .

وبالنسبة لزعماء أمريكا فهم دائما يطلقون على اليهود أهل الكتاب ويرون القومية اليهودية فى هذا الضوء .

فقد قال فرانكلين روزفلت فى عام ١٩٤٨ انه سوف يتقاعد ويكرس حياته للمفاوضات حتى تقام دولة يهودية فى فلسطين .. وقد قال كارتر ان قيام دول اسرائيل الحديثة هى تحقيقا لنبوءة الانجيل .

وقد نشأ كارتر فى أسرة تتبع الكنيسة الانجيلية ، ومع ذلك فأثناء وجوده رئيسا للولايات المتحدة لم يعلق كثيرا على معتقدات الصهيونية المسيحية ولم يفسر سياساته فى ضوء هذه النظرية .

ولكن بعد أن خرج من مقعد الرئاسة ، كتب فى مذكراته عن فترة رئاسته ان نشأته الانجيلية جعلته يتعاطف مع اسرائيل ومع التقاليد المسيحية اليهودية ، وأن اهتمامه بدراسة التوراة والانجيل كان ولازال جزءا من حياته . وقال : « اننى أعتقد أن هذا الوطن اليهودى يتناسق مع تعاليم الانجيل . وانه أمر قدره الله » كارتر فى مذكرته عام ١٩٨٢ صفحة ٢٧٤ . وبعكس كاتر فان ريجان طوال رئاسته يستخدم مقولات الصهيونية المسيحية فى مناقشاته عن الشرق الأوسط ، ومن بين التعليقات التى لفتت الأنظار فى حديث له مع توماس وأين رئيس لجنة العلاقات العامة الأمريكية الاسرائيلية وهم جهاز يساند السياسة الاسرائيلية فقال ريجان له :

« هل تعلم ، اننى عندما أعود لسير أنبياء العهد القديم وكل هذه العلاقات التى تنبىء بميعاد حرب أرماجيدون الحرب التى ليس

بعدها حرب ، أجد نفسى أتساءل هل سنكون نحن الجيل الذى أشار اليه الانجيل بأننا سنرى هذه الأحداث ، ولا أدرى اذا كنت قد لاحظت أخيرا بداية • حلول هذه العلامات ولكننى أرى اننـــا نعيش هذه العلامات الآن فى زماننا هذا •

ولكن من الخطأ أن نعتبر أن كل الطوائف المسيحية تتفق مع التفسير الذى تقدمه الصهيونية المسيحية ، فهناك آراء أخرى تخالف هذا تماما •

فهـــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصـــفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

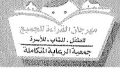
رقم الايداع بدار الكتب ٢٢٠٥٥/١٩٩٩

ISBN — 977 — 01 — 6377 — 5



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



٣٠٠ قرش

